أبو عبد الرحمن الكردي

في قلب بن لادن!

الرجل والعائلة

د. سعد الشريف «نصف أسامة» ورفيقه في السلاح
يروي كيف مات زعيم القاعدة وتصاهرا وجاهدا... وتغيّر؟



مصطفى الأنصاري

مصطفى الأنصاري

في قلب بن لادن!

الرجل والعائلة

أسامة	د. سعد
بن لادن	الشريف

د. سعد الشريف: كيف مات أسامة

وتصاهرنا وجاهدنا وتغيّر؟

المحتوى



المقدمة

في حضرة بن لادن

لست أحب تهويل الأمور. لكنني فجأة وجدت نفسي أمام أسامة بن لادن. فزعت بادئ الأمر. حاولت إيجاز الحديث لأخرج من مكان اللقاء. كان ذلك في عام 2008 عندما أسّر إليّ الزميل والصحافي السعودي العريق محمد عباس بأن الذي كان على الكنية الأخرى شخص يدعى د. سعد بن عبد الله الشريف. وماذا في الأمر أضفت، قال: تستطيع أن تعتبره أسامة بن لادن!

اعتبرت التشبيه في بداية الأمر مزحة، لأنني كنت متابعاً للشأن الفكري على الأقل في تنظيم القاعدة وشخصياتها السعودية، فلم أسمع يوماً بسعد الشريف بينهم! وإن أكن وهمت، فالسعودية لم تزل في معركة ضارية مع الإرهاب، فهل يعقل أن يكون أسامة بن لادن آخر يحتسي القهوة في جدة مثل أي شخص عادي؟ أي بلادة أمنية قلت في نفسي دبت في رجال وزير الداخلية الأمير نايف بن عبد العزيز؟ شُرحت لي القصة فيما بعد فحاولت أن أستوعبها. أكون كاذباً لو قلت تمّ لي ذلك يومئذ أو في اليوم التالي!

وحتى تكتمل الإثارة أردف أبو مروان «إنه لن يكون سعيداً بالفكرة، ولكن امنحني أسبوعاً لأفاتحه في الأمر. فإن وافق سيكون حظاً جميلاً»!

لم أهتم بالأمر كثيراً رغم فضولي الصحافي الذي أحاول السيطرة عليه، لسبب واضح هو أني أعتبر الأمر حتى الآن هراء، فقبل أسبوعين خاطبني شخص على مكتبي في الجريدة وطلب مقابلتي لأن لديه قضية أشبه باكتشاف «سجن أبي غريب»، فلما دققت في الأمر وجدت الحكاية لا تستحق مساحة صغيرة في صفحة «بريد القراء». كل يزعم أن قصته هي الأجمل، وأن لديه الحكاية الكبرى. فلو كان أسامة هاهنا لكنا سمعنا عنه وقرأنا، ورأينا صورته على الأقل.

مع ذلك لست مجنوناً حتى أفوت التحاور مع أسامة ولو في المنام، طالما أنني من المنتسبين لهذه المهنة «اللعينة»، حتى إن كان أسامة من ورق. أريد معرفة نهاية الكذبة! هذا لسان حالي وتفكيري.

أقسم لكم ليس ذلك مبالغة. وافق أسامة بن لادن الافتراضي على سماعي أقواله مبدئياً بعد أن أخذ مني تعهداً خطياً بعدم نشر حرف منها إلا بإذنه، وافقت. سألته وما الحكاية؟ اسمح لي أنا أشكك في الرواية وخذني بحلمك وأخبرني لو في دقيقتين.

تدخل عباس مجدداً: لا فائدة. يجب أن تخلو بالدكتور ثلاثة أيام فأكثر حتى تستوعب القصة. وأقترح منتجع درة العروس (جدة) أو الهدا (ضاحية قرب الطائف)، مكاناً مناسباً. أبدى سعد أو بالأحرى أسامة بن دلان تفضيله للهدا بحكم عزلته. وافقت وأنا أخشى من سوء العاقبة.

بعد أربعة أيام قضيناها سوياً في فندق «مريديان» هنالك، آمنت حقاً بأن الذي أمامي أسامة آخر، أو «نصف أسامة» كما سميته أنا على اعتبار أن أسامة آخر في أفغانستان في تلك الأيام، فإن كان هاهنا آخر، فإنه لا محالة نسخة منه أو نصفه.

كلانا فهم صاحبه، واتفقنا على العمل سوياً لتسجيل مذكرات، وظننت الأمر نزهة وسبقاً صحافياً، لكني وجدت الأمر بعد ذلك مشقياً ومتعباً، إذ لازمني همّه نحو ثلاثة أعوام.

مع الوقت أصارحكم انسجمت مع سعد، وتضامنت مع قضيته، وتمنيت لو أنني كنت أملك شيئاً غير هذه السطور لأرفع عنه الظلم، فكان هذا العنصر يمدني بالطاقة كلما قررت الاستسلام والتخلص من هذا «الكابوس» الذي يسمى تدوين مذكرات. إنها مثل «الشاكولاته» لذيذة الطعم وقت تناولها، مضنية التصنيع، لمن شاهد منكم مسلسل صناعة ذلك المنتج كاملاً.

كان مقتل نصف أسامة في أفغانستان، امتحاناً حقيقياً لإرادتنا فقد جاء في الوقت الخطأ بالنسبة لنا. فقد نسي الشريف

عند وفاة بن لادن كل خطاياه، وما عاد يلح في ذهنه إلا أسامة الذي أحب وجاهد معه وضحك وبكى وتصاهر وسهر. هل يجوز أن أنشر محاكمة لصديقي بعد أن قتل؟ وافقت على المذكرات لأن أسامة كان سيقرأها أو يسمع عنها. كانت صرختي الأخيرة التي تمنيت أن تبلغه. لقد مات، فلتذهب المذكرات إلى الجحيم! هكذا قال.

تفهمنا مشاعر شخص فقد نصفه، ولكن الأمر لم يعد بيده. بل كان النصف الذي هاهنا في السعودية، أقدر على تفسير ما حل بالنصف الآخر، في ذلك اليوم الذي صفق له البيت الأبيض والعالم أجمع. ليس أحد يفهم أسامة كما يفهم نفسه، ولذلك أضفنا بعد الموت فصلاً آخر. من لم يشعر بأنه يتحدث إلى نصف أسامة في الصفحات التالية، فليحاسب نفسه، فلربما كان جاهلاً بالنصف الغائب.

في النهاية لا بد من الإشارة، إلى أن الذي بين أيدينا يظل عملاً روائياً، مستنداً إلى معلومات وذاكرة الراوي الدكتور سعد الشريف، وليس عملاً استقصائياً من جانبي فذلك عمل آخر له ميدانه. الدكتور سعد الشريف إلى جانب علاقته الأخوية والجهادية مع بن لادن هما أيضاً متصاهران، متداخلان علاقة ونسباً: فزوجة بن لادن التي قتل بين يديها، أخت سعد وكان هو من زوجها بأسامة، وزوجة سعد التي تشاركه اليوم حياته،

خالها أسامة بن لادن، وكان من زوج بها سعداً. امبراطورية بن لادن الشهيرة بكفاءتها في البناء والعمران جمعت الاثنين أيضا، ففيما كان أسامة أحد ملاكها الكبار والمؤثرين فيها قبل الجهاد الأفغاني، حاز سعد فيها أهم دور وهو الإشراف على تنفيذ أعمالها في «الحرمين الشريفين». وما خفي أعظم وأعظم، وستجدون بعضه في الصفحات التالية. إذ لا يمكن حصره.

مصطفى الأنصاري

صحفي في جريدة «الحياة»

باحث في القضايا الفكرية والدينية.

صدرت له كتب عدة بينها،

«تقارير هاربة»

«الأحرار الملثمون»

amustfa@hotmail.com



الفصل الأول
الحياة والدراسة والصبا



ابن المدينة وجار النبي

إذا كانت مكة المكرمة تضم «الكعبة المشرفة» قبلة المسلمين في صلواتهم يومياً، فإن المدينة المنورة، استأثرت هي الأخرى بجسد خاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام، فضمت بين ذرات رملها أكرم مخلوق على الله، كما يجمع المسلمون قاطبة بكل طوائفهم. لذلك يُعد مجرد التفاضل بين المدينتين المقدستين (مكة والمدينة) غير مستحب لدى شريحة من الفقهاء. ففي الأولى أنجبت قريش النبي وترعرع فيها وتزوج ونزل عليه الوحي، وحين أخرج منها عنوة، ذرف الدمع مدراراً أسى على فراقها، وهو الذي يحن فيها إلى مجد آبائه الأنبياء إبراهيم وإسماعيل، وجدوده العظماء من بني هاشم، الذين ظلوا أوفياء للكعبة والبيت الحرام، حتى في لحظات الشدائد، بالقوة الناعمة والخشنة.

وفي جوف الكعبة وظلها الأكرم، كان عبد المطلب، يسامر الفتى النبي ويمنحه حرية التنقل واللعب والتدليل على نحوٍ ما كان أحد يطمع في معشاره في حضرة الأب الزعيم، وبجوار كعبة أقامتها في الأساس ملائكة السماء، بقصد جذب الخليقة للرب الأعظم، حجاجاً على كل وسائل النقل، يتدفقون من كل فج عميق.

وفاء مكة مع ابنها النبي ظل حتى وهو يعاني مرارة يتم الأب والجد، وبقي شيئاً عصياً على الزوال حتى مع الدين الجديد

الذي كذّب القوم الكبراء به، فهنالك بين بطحائها روح للإسلام وإن سراً في البدء، فآمن به رجال نادرون منها، أصروا على البقاء بجواره فوق الأرض وتحته[1].

وأياً ما كان وفاء الجميع من قبل أو بعدُ لن يبلغ أقصى من العمّ أبي طالب الذي رغم اختلافه الديني مع ابن أخيه، إلا أنه وقف شامخاً يقاوم كل إغراء في سبيل التخلي عن نبي آثر من جانبه المضي في طريق الله مهما كانت النتائج.

فحتى عندما غاب العمّ النبيل، وغادرت سيدة قلبه الأولى خديجة التي شغف كل منهما بالآخر حباً تكلل بزواج ونضال في وجه الأعداء؛ ظل أبا القاسم ماضياً في مشروعه الجديد، وإن أحس بألم التكذيب ومرارة خذلان العشيرة، وجفوة لم يجد لها مبرراً. إذ كان مثلهم في الصدق والوفاء والأمانة، قبل أن يفاجئهم بأمر الرسالة الإلهية.

غير أن مكانة الأرض التي سكن وأحب، ورحمته بالناس كافة، جعلت الكهل النبي دائم التواصل مع قومه، حتى في أحلك ساعات كرههم له، وشديد الميل للحلول السلمية لحسم الشقاق الديني معهم، رغم تعليمات إله السماء الذي ظل وثيق الصلة بنبيه

---

1 - نعني بذلك الصحابة القرشيون الأوائل مثل أبي بكر وعمر، الذين أصرا على دفنهما إلى جانبه في الحجرات النبوية الشريفة. ومثلهما آخرون مثل علي وعثمان وطلحة والزبير وبقية المبشرين بالجنة من المهاجرين الذين خرجوا من ديارهم وأموالهم مؤازرين له ومناصرين.

في كل التفاصيل، ويطمئنه بأن أمر المكذبين على الله يسير، وأن الملائكة متأهبة عندما يشاء الإنتقام من عشيرته.

لكن الرسول الذي أخبر الله نفسه فيما بعدُ أنه أرسله «رحمة للعالمين» جعل يجنح للصفح والعفو، ويفضّل شرح مبادئ الدعوة لقومه حتى انتظمَ في سلكها عدد هائل منهم، وأعلن أمام الكافرين بها قولته الشهيرة، ساعة الانتصار: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

إذا كانت «مكة» وأهلها بتلك المكانة والأهمية بالنسبة إلى الرسول الأعظم، وهي التي طردته مع المؤمنين الأوائل، فما ذا عسى أن يكون موقع «يثرب» من الوجدان النبوي، وهي التي كانت له ملاذاً في الحياة وبعد الممات، وخلع عليها لقب «المدينة» المطلق، فغدت به تاج المدن على الأرض كلها، إذ منها انطلقت آيات النبوة ووحي السماء إلى كل أرجاء شبه الجزيرة العربية، التي نبذت «الأمين»[2] قبل أن يظفر بمجد حمايته ابنا «قيلة»[3] من الأوس والخزرج، ومن ثم تغدو حاضنة النبي ودولته الأولى، وموطن جهاده وغزواته، وداره التي رضيها لنفسه بعد أن دخل الناس في دين الله أفواجاً، وصار المشككين بالأمس جميعاً يتسابقون إلى نصرته.

---

2 - لقب أطلقته قريش على النبي قبل أن يبعث بالنبوة.

3 - اسم الأم التي يلتقي عندها الأوس والخزرج، الذي لقبهم الله ورسوله فيما بعد بـ «الأنصار» لنصرتهم النبي.

هنالك في المدينة أسس المصطفى قواعد الملة، ونزل جبريل بجل القرآن، وجاد الأخيار من المهاجرين والأنصار بأنفسهم على مداخل «المدينة» وجنباتها، بأرواحهم في بدر وأحد والخندق وخيبر. ومنها سارت الجيوش تهدي الحيارى إلى الطريق، وتعيد مرتدّي العرب إلى جادة الحق. وعندما صعدت روح النبي إلى ربها، اختارها الله سكناً لجسده الطاهر، فروّى ببركته أرجاءها، فغدت به «طيبة الطيبة»، يأنس إليها كل مؤمن، وينفي عنها كل فاجر. بل لم يغادرها حتى تعهد لأهلها ببركة في الأرزاق وأمان من الفتن وشفاعة يوم الحساب[4].

بها فاخرت العرب أمم الأرض فأضأوا بنورها ظلماء الجهل في آسية وأوربة وإفريقية، ولبثت تعطي وتتفق من الوحي والقرآن والسنة وآثار النبي وروضه، ولا تزيد مع ذلك الإنفاق إلا كرماً وإغناء للناهلين.

سوى أختها الكبرى «مكة» لا توجد بقعة تكفلت ملائكة السماء بحراستها، بأمر الله الذي جعلهما «حرماً آمنا»، كما تنص التعاليم الدينية القطعية لدى المسلمين.

كانت تلك هي «المدينة المنورة» مسقط رأس سعد بن عبد الله الشريف. وهي بكل ما تعنيه للمسلمين من إرث ديني وتاريخي

4 - صحت أحاديث نبوية بهذا المعنى عن النبي عليه الصلاة والسلام، إلى جانب فضائل أخرى كثيرة.

مقدسين، بقيت أرضاً يستعصم بها الهاربون من الفتن في الديار الإسلامية الأخرى، وموئلاً يقصد للصلاة وزيارة النبي ومجاورته بالسكنى، ومكاناً كان الصالحون يدعون الله أن يتوفاهم به، لما سبق من إشارة شفاعة النبي الخاصة لأمواتها. لكن المدينة رغم ذلك كانت منذ القدم محل استقرار أسر وقبائل هي أرضهم التي ورثوها كابراً عن كابر. كما هو بالنسبة للشريف عبد الله الذي قضى نحبه على ثراها بعد عمر مديد في طاعة الله وصناعة المعروف، وإكرام زوار بيت رسول الله، تاركاً خلفه ذرية تجاهد في سلوك نهج الصحب الأخيار من سلالة النبي عليه الصلاة والسلام، وآله وصحبه الأطهار.

حفيد الزهراء... ورأس «الحربة»

لحسن الحظ فإن عبدالله الشريف، وإن لم يترك لأبنائه مالاً وفيراً، يكفيهم شرور الحياة التي كثيراً ما عبست له قبل أن يبني نفسه من «القاع»، إلا أنه بكل تأكيد ترك لهم ذكرى طيبة، ونسباً رفيعاً لا يشترى بمال، إذ لا يفصله عن الحسن سبط رسول الله صلى الله عليه إلا 35 رجلاً. وهي خاصية لو كانت تشترى بالمال لبالغ الموسرون المسلمون في إنفاق طائل الأموال عليها، فالنسب الشريف الذي يُقصد به أحفاد النبي من أبناء فاطمة الزهراء زوج علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، لم يزل حاملوه في مكانة شاهقة في نفوس المسلمين، الذين يحفظون أحاديث عدة، يوصيهم فيها النبي عليه الصلاة والسلام بآل بيته، والإحسان إليهم، ومحبتهم، وإغنائهم عن الصدقات. إلى جانب أحاديث أخرى تعلي من شأن السبطين (الحسن والحسين) رضي الله عنهما، بين أبرزها قول النبي جدهما، إنهما «سيدا شباب أهل الجنة»، ناهيك عن مناقب لا تحصى لأبيهما علي بن أبي طالب رضي الله عنه، الذي تُقدمه الشيعة على سائر أصحاب النبي، فيما تعتبره السنة من العشرة المبشرين بالجنة، وأخا النبي وصاحبه في السراء والضراء.

غير أن النسب الزكي بالنسبة للفتى سعد الشريف في سن الثامنة، لا يفقه كثيراً من مدلولاته التي ستثقل كاهله فيما بعد مع

أسامة والأفغان والسودانيين وأنّى وجد، فغاية ما في الأمر التمسك بقيم العشيرة، والتزام السلوك القويم مع الآخرين، خصوصاً إن كانوا زوار المسجد النبوي، أو ساعة الخلوة مع النفس بين يدي الله في روضة يؤمن المسلمون بأنها «روضة من رياض الجنة». ففي تلك الأيام يتلقى كل ابن من السلالة الشريفة تعاليم صارمة دستورها «القدوة الحسنة» من جانب الآباء، الذين يشددون على أن حامل اللقب الشريف، خليق بأن يكون مثالاً في التهذيب والأخلاق العالية، اقتداءً بالجد الذي زكى الله تعامله مع الناس، وقال«إنك لعلى خلق عظيم».

تلك التقاليد كما يفيد سعد نفسه «لم تكن على هيئة طقوس يشدد عليها، أو تعاليم يحقن بها رأس الصغير، بقدر ما هي سلوك ينشأ عليه الصغار، أخذاً عن الآباء وعامة أهل المدينة المقدسة الذين بأجمعهم آية في الحب والتآلف والتواصل، والتوادد فيما بينهم». لولا أن الناس أنفسهم يُشعرون حامل اللقب باحترامهم له وثنائهم عليه بأنه شخص مختلف. فترى شيخاً كبيراً مثل محمد المختار الشنقيطي وهو على جلالة قدره وعلمه، «عندما يبصر أخي الأكبر قادماً إلى الحلقة التي يدرس فيها الشنقيطي في الحرم النبوي، يثب الأخير من على كرسيه ويستقبله في حفاوة بالغة ثم بعد ذلك يعود إلى درسه».

لكن ذلك لا يعني أن السلالة النبوية في المدينة المنورة تحديداً، كانت بلا أعراف خاصة بها أو تقاليد، بل هناك الكثير مما يشاركهم فيه غيرهم، وما يتميزون به أحياناً. ففي جانب التأدب مع القبر الشريف وحرمه وجواره، ينظر الأشراف إلى أنفسهم كما لو أنهم أخلق الناس بالتحلي بالهدي الإسلامي في خفض الصوت عند رسول الله وإجلال قدره، فهم أهله وعشيرته وأولى الناس بحماية جنابه كما يعتقدون.

كما أن الأوائل منهم يسابقون الناس إلى الصفوف الأولى من الصلاة، حتى لا يتفوق أحد عليهم في الطاعة. مثلما يتنافسون في خدمة زوار المسجد، ويسكنونهم داخل بيوتهم، في وقت لا فنادق تذكر في المدينة. إضافة إلى محافظتهم على تتبع الآثار النبوية، والوقوف عندها تأملاً في سيرته وإحياء لذكره.

ومع أن سعداً لا ينكر أن الشبان من عائلته حينئذ يعتقدون أنهم معنيون بالاستقامة والتحلي بالآداب أكثر من غيرهم، إلا أنه يقر بأن «معظم أهل المدينة قبل توسعة الحرم الجديدة، التي اضطروا بعدها إلى تغيير مساكنهم، كانوا على قلب رجل واحد، استقامة وأخلاقاً وحباً للخير وتسامحاً، وبذلاً للمعروف».

ويذكر أنه في تلك الأيام قبل عام 1398هـ كان منزل أسرته في ناحية الحرم «الغربية» بجوار «باب الرحمة»، فيما يقع

متجر والده بجوار «باب الملك سعود»، وفي كل ناحية قريب لأسرتنا، أو صديق أو جار عزيز. بيوت الطين، ثم المسلحة المتواضعة مفتحة على بعضها. الطرقات والأزقة ضيقة لكنها حية بلعب الأطفال وتزاور النساء، وتجوال المارة. كل ذلك يتم في سكينة وهدوء وأنس بلا صخب أو ضجيج، ولا مبالغة في فصل النساء عن الرجال، أو شحناء تذكر. إلا ما يحدث منا معشر الأطفال أحيانا من شغب لا يستثني حتى ساحات الحرم التي نلعب فيها الكرة في غفلة من أهلنا أحيانا.

وأتذكر إلى عهد قريب أن أهل الحي كلهم مسؤولون عما يجري فيه، فالحاضر من أعمامنا أو من إخوتنا الأكبر سناً هو الوصي على الحي، لذلك تجد الجميع في تناغم فريد، وود غريب لا تكاد تجد له نظيراً، حتى إن الأهالي ربما إمعاناً في المؤانسة اخترعوا مناسبات تجمع، يفرح بها الصغار ويتفاعل معها الكبار بالخروج إلى المزارع، مثل «الشعبنة»، وفنون شعبية للتسلية يتبارى فيها الأقران، مثل «لعبة العود (المضمار)». إلى جانب الكرة التي ازدهرت في عهدي. وكنت بين فتيان الحي الذي يحاولون إتقان ما أوسعهم من تلك المهارات والأهازيج، ليس لشيء عدا الحصول على احترام الناس أجمعهم، وفرض السيطرة على أشقياء الحي!

ويتذكر سعد في هذا الصدد نشاطه المستميت في قيادة نادي حارته (الأحمدية) للانتصار على النوادي المنافسة في

الحارات المجاورة، وقد تم له ذلك، لولا أن إحدى البطولات كان ثمن الإنتصار فيها عراك بالأيدي والعصي، دفع أسر لاعبيه إلى منعهم من خوض أي منافسة خارج الحارة. لكن ذلك لم يمنعه من الاستمرار في قيادة الفريق محلياً، مدافعاً تارة، ومهاجماً ورأس حربة تارة أخرى، حتى ذاع صيته كما يقول، وصار مفزعاً للمشاغبين من أبناء حارته بما استطاع جمعه من المهارات اللازمة للتفوق في ذلك المحيط.

مجنون الحرم... وتلميذ «الإخوان»

بحكم اعتبارات كثيرة. بينها انتماؤه لآل البيت، وجواره للمسجد النبوي، وتكوينه الشخصي، واختلاطه بالحجاج، وجد الشريف نفسه ينقلب فجأة من «مجنون الكرة» وتجمعات الأقران في حارة الأحمدية، إلى «عاشق للحرم» لا يكاد يخرج منه إلا للنوم والدراسة وأداء الواجبات الاجتماعية. ففي سن مبكرة من أوائل المرحلة الابتدائية، بدأ يواظب على الصلوات الخمس المفروضة جماعة مع المسلمين في المسجد النبوي الشريف، وما يتلوها من السلام على النبي، والجلوس في روضته الشريفة ساعات طويلة، يبتهل فيها الغلام الصغير إلى الله بما يفتح عليه، ثم يتوجه إلى كرسي أحد علماء المسلمين الذين كانوا حتى عهد الملك فيصل بن عبد العزيز يدرس في الحرم من كان لديه منهم حظ وافر من

العلم الشرعي، حتى وإن جاء زائراً فضلاً عن الماكث بالمدينة النبوية.

شيئاً فشيئاً يجد سعد نفسه يصبح أحد أعمدة المسجد النبوي، وطالباً ملفتاً بنباهته وصغر سنه بين تلامذة علماء الحديث والفقه والتفسير، خصوصاً أولئك الذين جذبوا الشريف مبكراً من المغرب العربي. ولا يزال يستذكر درس الشيخ منتصر الكتاني ونبرته في تلاوة الحديث، التي لها وقع خاص في نفوس حضور حلقته عرباً كانوا أو عجماً، وبالذات سعد الذي كلما أتى الشيخ على ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، هبّ متذكراً جده الذي يرقد في الحجرة المجاورة له، مستذكراً وقع الكلمات من فمه الشريف على صحابته الكرام، وهو يحدثهم في الموقع نفسه، فيترك ذلك الشعور أثراً بالغاً في نفس الطالب الصغير، جعله يدمن على تلك المجالس، حتى خشي عليه والده من «الجنون»، وظنه في حالة غير طبيعية، جراء حالة الهوس الديني التي جعلت تتغشاه.

حاول أبو سعد ترشيد حماسته للدروس والمكث الطويل في الحرم، عدا أوقات الصلوات المفروضة، حتى استيقن أن ولده لا يصرفه عن هذا المنحى شيء، فخلى سبيله ونفسه تتوجس من عواقب هذا التدين الشديد خيفة!

لم يكن والد سعد على خطأ، فشحنات التدين الطاغية التي تجتاح قلب ابنه أخذت تتعاظم شهراً بعد آخر، ولم تعد الصلوات

ودروس الحرم والمكث فيه كافية للتنفيس عنها بعد تقدم العمر بسعد. فأخذ ينظم الأنشطة والفعاليات في المدارس التي درس فيها الابتدائية والمتوسطة. وغدا توهجه ملفتاً للدراسين معه، ومثيراً لإعجاب طلاب ومدرسين وأولياء أمور، مثلما يثير ريبة آخرين، يرون تحركاته أكبر من حجمه وعقله.

صحيح أن وهج النشاط والتدين التي تلبست الشريف مبكراً أفادته في التهام كثير من متون الفقه والتفسير والحديث وهو صغير، إلا أنه سريعاً ما وجد تياراً آخر يختطفه من دون أن يشعر في البدء. فما إن لفت أنظار أفراد الإخوان المسلمين، الذين كانوا يعيشون ربيعهم آنذاك في السعودية، وهم يشهدون نشاطه وحماسته العلمية، حتى عاد هدفاً مغرياً من جانبهم.

بدخول الإخوان المسلمين - الذين كان منهم المعلمون في المدرسة والحاضرون لحلق الدرس في المسجد النبوي - في عالم الشريف بشكل أو بآخر، سخّر الفتى كل حماسه الديني السابق في الانكباب على مؤلفاتهم، يقرؤها ويحللها ويطرح على نفسه تساؤلاتها، ويعيش معها الليل والنهار، حتى غدا كما يقول عن نفسه «مثقل بهم الدعوة والعالم الإسلامي وأنا صغير».

أدرك الشريف وهو يقرأ «معالم على الطريق»، و«فقه السيرة» للسباعي، و«في ظلال القرآن»، و«رسالة التعاليم»، و كتاب

«دعاة لا قضاة»، أنه يجب عليه استشعار حاجة أمته إليه، وأن عليه رسالة يجب أن يؤديها، وأن حياته السابقة في الاعتكاف وحفظ المتون وحلق الدروس مهمة إلا أن ثمة رسالة أكبر، هي «كيف أخرج أمتي من الذل والجاهلية التي تعيشها»؟

لم يمكث الفتى طويلاً مع حالة التحول الجديد، حتى وجد نفسه وعاء لأسئلة كبرى لا يملك أي حول أمامها، فجعل يحاول أن يعيد إلى نفسه التوازن بدعم من والده الذي ظل يرقبه ويحذره من الشطط. واستمر في قراءة كتب الإمام الغزالي خصوصاً «إحياء علوم الدين» كما لم ينقطع بالكلية عن دروس الحرم.

بدأ سعد يحاول تطبيق ما يقرأ في كتب الإخوان من التنظير في إنشاء الخلايا الدعوية، والتنظيمات العلمية، فشرع يتدرب على مدرسته المتوسطة، التي نظم فيها نشاطاً ثقافياً وخطابياً واجتماعياً، وأسس فيها «نشرة إعلامية»، إلا أن إدارة المدرسة انتبهت لما يجري فلم تمهله كثيراً، إذ أصدرت قرارها بإيقاف أنشطته المؤسسية، غير أنه ظل يقاتل على الناحية التنظيمية والدعوية، عبر النشاطات الطلابية، والرحلات المدرسية، والخلوات الشخصية مع الطلاب، وهو في كل ذلك يجهد نفسه في إصلاح التلاميذ تربوياً ودينياً، ويحشد حوله الأنصار والأتباع.

الغريب في سعد الشريف أنه رغم كل النشاط المستميت الذي كان يقيمه، والقراءات الطويلة في كتب الإخوان، إلا أنه ظل

حذراً منهم في القديم والحديث. ويقول: «تأثرت بكتبهم تنظيمياً، لكني بقيت حذراً منهم تارة، وساخطاً عليهم أخرى. فمما أنقده عليهم حتى اليوم شحذهم لأذهاننا ونحن صغاراً بأسئلة كبرى كالخلافة والجاهلية والجهاد ونحن صبياناً لا نملك حتى من أمر أنفسنا شيئاً، لكن الحق يقال في الناحية التنظيمية والتربوية استفدت منهم كثيراً».

أما أثناء الأنشطة الدراسية، فإن الإخوان أخذوا بسعد على حين غرة، فهم يتقربون منه كما يقول ظناً منهم أن الحشد والتعبئة التي يقوم بها لصالح دعوتهم واتجاهاتهم الفكرية، إلا أنهم فوجئوا به يصر على «الاستقلال» ويرفض أن يكون تحت لوائهم.

لكن ربيع التعليم لم يدم طويلاً، فلم يمض أكثر من فصلين من المرحلة الثانوية حتى ظهر التدافع بين التيارات، وبرزت حادثة هزت السعودية بأسرها، خصوصاً المدينة المنورة والجامعة الإسلامية فيها، إذ انطلق شباب يدرس بعضهم في الجامعة الإسلامية، وزعموا أن أحدهم المهدي المنتظر يقودهم جهيمان العتيبي فاحتلوا الحرم المكي، وأحدثوا فيه من ترويع الآمنين الشيء الكبير، قبل أن تقضي عليهم السلطات الأمنية، ما جعل الكل في المدينة المنورة مرهوباً من الشباب المتدينين والملتحين، ويدفع عددا منهم إلى إرغام أبنائه على حلق اللحية، وترك التجمعات الشبابية. وكان ذلك الحدث من أهم الأسباب

التي ستجعل والد سعد يعترض على توجهه لكلية الشريعة، ناصحاً إياه بشد الرحال إلى الأزهر لإتمام تعليمه الجامعي.

غير أن الشريف الذي سيتضح فيما بعد أن شخصيته دائماً تميل إلى الاستقلال، بدلاً من الإصغاء إلى نصائح أسرته ومحيطه في التخفيف من آثار التدين على الأقل اتقاء لغضبة السلطات الأمنية، التي يخشى أولياء الأمور أن تتبع كل أبناء المنطقة؛ أصر والمجموعة التي يقودها على التمسك بما كانوا عليه من انضباط ديني، قال إنهم زادوا من وتيرته لبيان الوجه الحقيقي للدين، وأن هذا الفجر والتوجه لا يمثل أبناء المدينة. على حد قوله.

وكان الحدث رغم ما يبديه الشريف من شجاعة نحوه إلا أنه أقر بصعوبة هوله، ففي تاريخ الدولة السعودية، لأول مرة يستحل الحرم، ويطلق فيه الرصاص الحي، ويقتل فيه الأبرياء من جانب شباب يفترض بهم أن يكونوا أدرى الناس بشناعة ذلك الفعل، فكان الناس لا يدرون ما ذا سيكون. غير أن أهل المدينة كما يقول الشريف طمأنهم نسبياً أن المباشرين للحادثة كان معظمهم طلاباً قادمين من خارج المدينة، وليسوا من أهلها الذين عرفوا بالسماحة والوسطية.

الشريف الذي تخرج من القسم العلمي في المرحلة الثانوية، اتجه إلى كلية الشريعة في الجامعة الإسلامية، التي كانت مخصصة حينئذ للقادمين من العالم الإسلامي الراغبين

في دراسة علوم الدين، فيما كان الزهد فيها شديداً من جانب السعوديين المميزين الذين ما كان يتجه منهم أحد إلى الأقسام الأدبية إلا إذا كان بليداً أو على الأقل غير متفوق كما يزعم الشريف.

أما المتخرجون من الأقسام العلمية بتفوق، فإن الطبيعي أن يقصدوا كليات الطب والهندسة والعلوم عبر الجامعات المحلية، إذا لم يحالفهم حظ في الابتعاث إلى الخارج.

الاختيار الغريب فاجأ والد الشريف، الذي تمنى أن يتجه ولده إلى الكليات الأكثر أهمية في نظره، ولم يدر أن ابنه غدا همه أكبر، إذ أصبح يحمل هم الأمة كلها، ويرى أن أفضل الطرق إلى حل مشكلها يمر على طريق التخصصات الشرعية.

الشريف لا يشاء الحديث كثيراً عن تحليل شخصيته يوم أشرف على إنهاء كل مراحل التعليم العام، إلا أن سرده ليوميات ذلك العهد، تخلص إلى أنه حاول ما استطاع في كل ما سبق أن يترجم ما تعلمه من فقه السيرة النبوية تنظيراً، وما استقل به من فهم، إلى واقع عملي يراه في سلوك من يعتبرهم جمهوره من أصدقاء الدراسة. كما أنه ظل منذ الأيام الأولى في الابتدائية يناضل من أجل أن يكون متميزاً وملفتاً للانتباه ومستقلاً في الرأي، يجاهد في سبيل الظهور بالشخصية القيادية التي تدفع جاذبيتها الأقران للتجمع حولها، يسمعون لها ويطيعون. تمنى

كثيراً أن يصبح أحد المدرسين في الحرم الذين كان يحضر دروسهم، وجعل يهيء نفسه لأن يكون مرجعاً علميا مجتهداً غير تقليدي، يحلق الناس حوله ويستفتونه. لم يكن مجرد شاب يسعى لنجاح شخصي وحسب، بل كان هاجسه التميز الذي يجذب حوله الجمهور. ثم تطور إلى هاجس الأمة الذي ألقته كتب الإخوان في حبائلها. وكان الذي يشعل فيه تلك الجذوة أكثر، شغفه بالتحدي، وركوب الصعاب، وهزيمة الأقران، ولو كان ذلك في مسائل لا تساوي العناء.

ربما تكون تلك الشخصية المهووسة بالتميز والتحدي، هي التي قادت الشاب المتوقد حماسة إلى الشريعة من غير سابق إنذار لأسرته. وهنالك وجد عالَماً آخر من الجوّ الأكاديمي، الذي استهواه وجعل يتفاعل معه بكل ما أسسه تراكمياً من معارف وعلوم عبر القراءة والدرس، فصار يباري ويناقش ويناظر، ويبرهن على تفوقه بخوض سجالات فقهية مع الطلاب في القاعة حيناً والمدرسين حيناً آخر، مما أحوجه إلى مطالعات منتظمة وقراءات فقهية جديدة، حتى انسجم مع ذلك العهد وأُسر به.



الفصل الثاني
رفيق السلاح والنسب



«الشريفة» في قلب «بن لادن»!

لم يمض وقت طويل على الفتى منتظماً في دراسته الجامعية. لا يفكر في شيء أبعد من جامعته وأمته عبر متابعة أخبار الجهاد في أفغانستان. أو دروس علمائه في الحرم النبوي، والكتب التي سيبدأ في دراستها على شيخ قادم من هناك أو مقيم هنا. أخذت الكلية بمقرراتها الضخمة أكثر وقته في الاستذكار والتحصيل، ومدارسة رفاق الدراسة. بين فينة وأخرى يسمع قادماً من أفغانستان يتصدر مجلس أحد الأقارب أو تقام على شرفه مأدبة في إحدى الاستراحات وبساتين المدينة العامرة. إلا أن حماسة سعد لا تحمله على تصديق كل ما يسمع ولا إلى المجازفة بمجرد التفكير في أي انحراف عن الدراسة قبل أن ينهي مراحلها بانتظام.

كان التفكير عند الشاب منصباً على ذلك، لكن شيئاً غير متوقع في طريقه إلى الحدوث. أتى إليه صديق يخبره بأن أسامة بن لادن يسأل عنه. لم يهتم الفتى المملوء زهواً بنفسه كثيراً بسؤال مدير مشروع توسعة المسجد النبوي الكبرى في مرحلتها الأولى، ولا بحفاوة منتظرة من ممثل شركة عملاقة مثل شركة بن لادن. إلا أنه لم يستطع تجاهل الصفة الأكثر جذباً في أسامة هاتيك الأيام، وهي كونه من أوائل شباب المدينة الذاهبين إلى أفغانستان مجاهدين في سبيل الله، ويتصدرون كل مجلس، ويتمنى كل شاب

في مثل سن سعد أن يقابل أحداً منهم أو يظفر باستضافته. ومع ذلك كابر الشريف فأجاب المخبر: «إن كان يسأل عني فليأتني حيث أنا. إنه يعرف مكاني».

بهذا النفس استقبل سؤال بن لادن عنه، إلا أن الأخير الذي سيخبرنا سعد كيف كان يحصل على كل ما يشتهي بإصرار شديد، أعاد إليه رسولاً آخر وآخر، حتى تقابلا!

في ذلك الوقت لم يكن الجهاد في أفغانستان قد اكتسب سمعة كبرى، إذ لم يزل في بدايته، ولم يكن الذهاب إليه «موضة» بعد. لذلك لم يكن شاغلاً ذهن أسامة بقدر ما تعبث به حتى النخاع «ابنة الشريف»، الذي يعرف من أصولها وحسبها ما يغني، ويبدو أن استخباراته المدنية كشفت له سر ما يهوى عن فتاة أديبة متعلمة، معيدة في الجامعة ويخشى أن تطير. فاتح أسامة سعداً في غايته بعد لقاءي تعارف، إلا أن الأخير استبعد الأمر كلياً. لم يفاجئ بن لادن الخبر. فاستمر يقنع الشريف الذي ما كان يعيب في بن لادن آنئذ خلقاً ولا ديناً، إلا أنه كان متزوجاً ويصعب على أخته أن تحل في قلب رجل ثالثة أو رابعة. فيما المال الذي يغري في بن لادن نظيراتها لا ترفع به رأساً.

من تلك الأيام بدأت العلاقة تتوطد بين سعد وأسامة، وكلما اقترب الأول من اليأس في إقناع أخته بالزوج الجديد، نصحه الثاني بالاستمرار ومزيد من الإقناع والمبررات، التي كان

أغلبها شرعياً، فما يطغى على النسب مثل «المال والتقوى» كما يقال. وكان بن لادن قبل أن يتخذ من أفغانستان قضية له، كان «التعدد» أم القضايا عنده، فلا تقابله إلا ونصحك وأفتاك به، ولا تجده في مجلس إلا تلقى تعدد الزوجات حديثه وأنيسه. كما يقول الشريف.

مرت الأيام سريعاً والعلاقة بين الرجلين تزداد اطراداً، وقلب الأخت معها يزداد افتتاعاً، حتى هوت في أحضان أسامة بعد جهد مضن، يبدو أن بن لادن لم ينسه للشريف، إذ خصه بعد ذلك بأخوته ومحبته، إلى أن صار نصفه الآخر.

ذلكن «وش» أسامة كما تقول العامة لم يكن خيراً على والد الشريف الذي اكتوى بنار بن لادن مرة إثر أخرى. على عكس توقعه، وهو الذي ما كان يتمنع من تزويج ابنته إلا بذرائع تحوم حول التعدد وكفاءة النسب، ولم يطرأ عليه أنه يخط بعقد النكاح بداية مآسي عائلته. كما يعتبر.

هاهي ابنته التي كان يخصها بين إخوتها بمودة ملفتة، يحرم منها على نحو متفاوت، ويتجرع ألم الشوق إليها حين تغيب أشهراً في أفغانستان، فيما ظنها تقيم بجواره في المدينة أو بالكثير في جدة، يراها حين يشاء، وتزوره حين تشتاق.

حين يغادر أسامة إلى السودان، ويقرر أن لا عودة تتهتك أسرار قلب الأب الحنون والأم العطوف، وينفد الصبر، ثم يستعطف

ويستجدي أسامة أن يسمح للابنة بطلّةٍ تغيث والدين أضناهما الفراق والكبر، فيستجيب ولكن ليته لم يفعل!

أرسل الزوجة إلى المدينة النبوية وبقي بطبيعة الحال في السودان، وأبقى معه أولادها، فيما أرسلها وحيدة من دون رفقة جميع أطفالها! جاءت المسكينة كما يصفها أخوها مقسومة بين صبية وزوج ووالدين وإخوة. لما مكثت يسيراً جداً، ظلت تبكي ليل نهار «أولادي أولادي»، فكانت تلك حيلة أسامة التي أراد بها أن لا تغيب عنه طويلاً لذلك منعها من اصطحاب أي من ولدها. بنفس الأب الرحيمة التي تفطرت من شدة ما يرى من معاناة ابنته بين يديه، توسل إلى الجهات الأمنية أن تسمح لها بالمغادرة إلى السودان، وقد فعلت مشكورة. فكانت تلك خاتمة التلاقي!

وفي وقت صار فيه سعد نصف أسامة، كان لوالده نصف المعاناة بعد أن نهضت أخته بالنصف الأول. فبينما يعدّ أبو سعد سني الجامعة يستعجلها، ترقباً للساعة التي يتخرج فيها ابنه ويزف إليها أكرم الفتيات، ويرى أحفاده من حوله ينسجون له خيوط السعد. كان لأسامة رأي آخر. إذ أوقد في الفتى الشريف حماسة الجهاد الأفغاني وسهل له الذهاب الذي ما كان من الأساس صعباً حينئذٍ، وما زال به حتى ترك الانتظام في الجامعة، وكاد أن ينفصل عندما غاب ذات عام فصلين كاملين، إلا أنه تمكن من تدارك الأمر في آخر لحظة ولم يفته العام الدراسي.

وكان أبو سعد لما شعر بعلاقة ابنه مع أسامة تكبر، وخشي عليه ما سيحصل في المستقبل، عنف بن لادن بأغلظ ما يمكن أن يوجهه أب إلى صهره، طالباً منه أن يكف عنه شره في محاولته استقطاب ولده إلى أرض الجهاد. وعندما أحس أن كل وعيده بالسخط على ابنه وزوج ابنته لن يجديا كثير نفع، صادر جوازه سعد فاطمأن، وتأكد أنه لن يغادر إلى خارج البلاد، فلم يعد يكثر في الإلحاح على الشابين المندفعين. بقي أقصى أمله أن يبقى ابنه داخل السعودية. إلا أن الحيلة القانونية أعطت مفعولها فاستخرج سعد جوازاً جديداً، مدعياً أن الأول مفقود. وهكذا سافر مع أسامة إلى أفغانستان بلا علم والده بذريعة أن «الجهاد فرض عين» عليه في ذلك الوقت! أبلغ الوالد بالخبر فوقع عليه كالصاعقة، إذ ما كان يتصور أن ولده وزوج ابنته اللذان يحظيان بسمعة طيبة بين الناس تبلغ بهما الجرأة إلى هذا الحد. يتحايلان على السلطات. ويعصي الابن أباه، وكل ذلك من أجل الجهاد الذي لا يجادل في مشروعيته بقدر ما يرى أنه أحق بولده من الأفغان.

غضب أبو سعد وحلف أن لا يكلم ابنه. وزادت حدة غضبه على بن لادن حتى كاد لا يرد عليه السلام. مضت أيام الجهاد وسعد يجود بنفسه في المعارك والمواقع وكلما اتصل بأهله يرفض والده مكالمته. غير أن غضبته (الوالد) لم يتوقع أن تفضي نتائجها إلى ما كان قد حدث، إذ لم تمض فترة طويلة على توجه ابنه إلى

أفغانستان حتى أخبر ذات يوم من جانب أحد أبنائه الآخرين، بأن سعداً أصيب، وهو في طريقه إلى جدة محمولاً على الطائرة.

بما أن الخبر الذي تلقاه أبو سعد يفيد بأن الإصابة ليست كبيرة ظل متمسكاً بغضبه، إلا أنه فوجئ عندما حضر مع أبنائه وجميع أفراد الأسرة، بأن إصابة ابنه كانت بالغة، تعرض على إثرها لمقدمات شلل في القدم. فلما رآه أمامه خنقته عبرة الأب الحاني الممزوجة بمرارة الألم، فجعل يستعبر ويستنشق ابنه الممدد على السرير!

تمكن سعد فيما بعد من إرضاء والديه، فلازمهما كما يقول حتى واراهما ثرى «طيبة الطيبة» وهما عليه راضيان[5]. لكنه ظل مدمناً على الجهاد بجوار أسامة ومن دونه... كما سيروي.

نصف أسامة

حين يمضي متتبعُ علاقة الشريف بأسامة بن لادن، لا جرم سيصل إلى عنوان من دون عناء، منتهاه أن الرجلين غدا كلٌ منهما «نصف الآخر». كما يصور الفتى المدني على الأقل، الذي ظل رغم حداثة سنه مقارنة بوارث البلايين الذي بدأ نجمه في الصعود، نداً وليس تابعاً أو طائعاً كما اعتاد الجميع أن يصور علاقة الرجلين.

---

5 - تمكن من التفرغ لهما نسبياً بعد انفصاله عن أسامة، قبل أن تتوفى والدته 1417هـ ووالده عام 1419هـ

وإذا كان المثل يقول «خطوة الألف ميل تبدأ بخطوة»، فإن بن لادن طبق المثل بجدارة، حينما بدأ سيطرته على «الشريفين» الرجل والمرأة عبر خطوة كانت إلى شرق المسجد النبوي الشريف، حيث يدير أعمال الهدم والحفر لإقامة ما عرف من بعد بتوسعة الملك فهد، الذي كان أصحاب شركة بن لادن العقارية الضخمة يحظون بمكانة خاصة لديه ولدى معظم أفراد الأسرة الحاكمة، جراء إتقانهم الفريد لعمارة الحرمين الشريفين، وتفاني شركتهم في صيانتها ونظافتها بكفاءة عالية، جعلتها فيما بعد «شبه محتكِرة» لهذا الصنف من الأعمال في البلدتين المقدستين.

إلا أن تلك العلاقة سيكشف لنا الشريف لماذا انقلبت إلى عداوة، قبل أن تنتهي بإسقاط الجنسية السعودية عن المطلوب الأول في العالم على مدى بضع سنين حتى ساعة كتابة هذه الأسطر[6]. لحظات اللقاء الأولى بين الرجلين يرويها الشاهد اليوم في هذا الحوار معه.

• متى كان أول لقاء لك بأسامة بن لادن؟

كان أول التقاء به في المدينة المنورة هو أنه أتى إلى المدينة حين كان مسؤولاً عن التوسعة في الحرم في عام 1404هـ (1985م)، وفي الوقت نفسه كان له اهتمام بأمر أفغانستان التي

---

6 - أعلن مقتل أسامة بن لادن في عملية عسكرية نفذتها فرقة أميركية خاصة في باكستان فجر 2 أيار (مايو) 2011

كان الجهاد فيها قد بدأ بعد دخول الاتحاد السوفياتي إليها، في حوالى 79م. لكن كانت أول زيارة قام بها أسامة لباكستان في أوائل الثمانينات، زار فيها الجماعة الإسلامية في باكستان، ليبحث كيفية دعم المجاهدين في أفغانستان، فأرشدوه إلى بعض تجمعاتهم في بيشاور الواقعة على الحدود الباكستانية الأفغانية، فاكتفى بتقديم ما معه من التبرعات إليهم ثم رجع. وبعد أن توالت رحلاته تلك تعرّف على الشيخ عبد الله عزام، بحكم أن الأخير كان مدرساً في الجامعة الإسلامية في اسلام آباد، وله اهتمام سيكون في المستقبل بالغاً بالقضايا الجهادية، وهنالك حصل بينهما نقاش حول الطريق الأمثل لدعم المجاهدين مادياً، فتوصلا إلى ما أطلق عليه في حينه «مكتب الخدمات»، الذي تولى مهمة استقبال المجاهدين العرب على وجه الخصوص واستقبال التبرعات وجلبها من الخليج وسائر دول العالم بهدف تقوية شوكة المجاهدين الأفغان أمام المد السوفياتي المتحفز.

إلا أن المساعدة المادية تدريجياً انتقلت إلى مساعدة بالنفس بعد فتاوى من الشيخ عبد الله عزام اعتبر فيها الجهاد الأفغاني فرض عين على كل المسلمين بالنفس والمال، وسانده في ذلك علماء كبار من الأقطار الإسلامية مثل مفتي السعودية الراحل الشيخ عبدالعزيز بن باز وآخرين، ما أجج الاستنفار لنصرة أفغانستان من مختلف البلدان. وهكذا صار أسامة وأمثاله مجاهدون بالصدفة!

• هل كان التقاء أسامة بن لادن بالشيخ عبد الله عزام قبل أن تتعرف أنت عليه؟

- نعم هو بدأ عمله مع عبد الله عزام قبل أن أتعرف عليه، لأن اهتمامات أسامة الجهادية كانت مبكرة من قبل أفغانستان. كان مهتماً بأي شيء يتعلق بالجهاد كاليمن مثلاً، عندما قامت اليمن الوسطى، وأثيرت قضية أهل الجنوب وأنهم شيوعيون ملحدون، وفي ذلك الوقت كان الشيخ اليمني عبد المجيد الزنداني يقاتل ضد الشيوعيين بهدف إقامة ما كان يسمى اليمن الوسطى، وكان أسامة يدعمه في ذلك قبل التوجه إلى أفغانستان.

• على هذا نفهم أنك التقيت به في مرحلة ما بعد التأسيس؟

- نعم التقيت به في تلك المرحلة، ولكن في بدايات نشاطه مع عزام وبعض العرب القادمين، وقبل أن يستقل بنفسه بنشاط.

• وماذا عن مكتب خدمات المجاهدين هل كان قد أسس أم أنك عايشته؟

- لا، لم يؤسس بعد، بل لم تكن هناك فكرة للعمل في القتال في ذلك الوقت، والمشاركون في الجهاد من العرب آحاد قليلون جداً، وما كانوا يستصوبون المشاركة المباشرة في القتال،

وإنما التركيز فقط على الدعم بالمال للتموين وشراء الأسلحة، وكأن العرب يخشون عواقب مشاركتهم للأفغان في القتال، فيما يشبه التنبؤ بما حدث في نهاية المطاف!

س/ هو كان يعين العرب فقط أم أنه كان يعين الأفغانيين كذلك؟

لا كان يعين الأفغان لأنه لم يكن هناك عرب بعد وكان الهدف الأساسي منه هو معونة الجهاد الأفغاني وكيفية تسيير القوافل الإغاثية ولهذا سمي المكتب مكتب الخدمات لخدمات الجهاد الأفغاني.

• إذاً كانت الإغاثة هي المدخل الأول للجهاد؟

- طبعاً هو المدخل الأساسي فكانوا يدعمون ماديا ثم بعد ذلك أصبحوا يجمعون المال وهكذا حتى صاروا يقومون بالعمل ذاتياً، ويشركون معهم الأفغان حتى لا يكون العنصر العربي هو المسيطر.

• سنعود إلى المرحلة الأفغانية، ولكن أردت أن أفهم في أي مرحلة من الجهاد الأفغاني تعرفت على أسامة... والآن لماذا اختار الاتصال بك أنت تحديداً، وليس بغيرك؟

- كان التعرف عليه في وقت كان هو في المدينة يبحث (عن شباب متحمسين) إلى جانب أنه كان يريد الزواج، ويبدو أن بعض الإخوة ذكر له بعض أعمالي، وكان نشاطي في المدينة آنذاك معروفاً، وحدث أن لديّ أخت فأراد التقرب مني ليتزوج منها، هكذا فهمت. وحدثني بعض الإخوة عنه بأنه من الداعمين للمجاهدين الأفغان وأنه كذا وكذا، وكنت أنا وزملائي من المتحمسين للجهاد ودعم المجاهدين كلاماً فقط لا عملاً، فكانت فرصة أن نجد شخصاً شاهداً في هذا المجال، وهذه أهم نقطة دفعتني للحرص على مقابلته بعد أن أرسل إليّ مرات عدة.

• ماذا دار في المقابلة الأولى بينك وبينه؟

- هناك شاب من أهل المدينة يدعى جمال خليفة، يعتبر من خاصة أسامة أيام الجهاد، فكنت أعرفه. كما أنه من جانب آخر صديق لأسامة يسكن معه في شقة واحدة وزميل دراسة، وهذا من الأشخاص الذين استطاع أسامة أن يقنعهم بالذهاب معه فسمعنا بذهابه ومعه بعض الإخوة الذين له تأثير عليهم فعرفنا الخبر فيبدو أن أحد الناس دله عليّ فحرص على الالتقاء بي ثم تم الاتصال والالتقاء بيني وبينه في بداية مشروع هدم المباني المحيطة بالحرم النبوي للتوسعة وكان هو المسؤول عن المشروع، وكان يستعد لسكنى المدينة في ذلك الوقت فعلاً، وكان يملك بيتاً فيها التقينا فيه بعد ذلك.

• ماذا دار بينكما من حديث؟

- كما تلاحظ حتى في بياناته هو قليل الكلام وعملي جداً، دخل معي في موضوع المسلمين وحالهم وحال أفغانستان من باب الحكاية فقط، وأنا الذي بادرته بالسؤال عن الأوضاع وعن الجهاد، وحصل بيننا الالتقاء الروحي وكأننا نعرف بعضنا منذ زمن بعيد ولم يحصل بيننا (التنافر والرسميات) بل العكس حصل التعارف بيننا وكأننا أصدقاء افترقا فترة من الزمن ثم التقيا من جديد.

• ما السر... في التكوين أم في الهمّ المشترك؟

- كانت الاهتمامات مشتركة، وكنت في قمة الحماسة لأن سني كان 18-19 وفلان بن لادن عرفت مشربه وليس ممن يخاف منهم، إنما المشرب حركة إسلامية هي الإخوان المسلمين الذين اقتربت منهم ومن نشاطهم، وعرفت ذلك من السؤال عنه. أضف إلى ذلك اهتمامه بالسنة في سمته في تواضعه وزيه وثوبه، فلو رأيته من دون سابق معرفة لما صدّقت أنه بن فلان الثري بسبب ما يبدو عليه من التواضع، كل ذلك خصال رغبتني فيه منذ اللقاء الأول فكانت سبباً في متانة علاقتنا فيما بعد، حتى أصبحت شخصاً مزعجاً لكثير من المقربين منه بمن فيهم إخوانه وأصدقاء عمره وجهاده!

• متى فاتحك في أمر رغبته في الزواج من أختك ليس من المعقول أن يكون ذلك في أول لقاء؟!

- طبعاً هو كان ذكياً جداً، فقد أرسل إليّ من يخبرني بالموضوع على هيئة تمهيد غير مباشر، ثم بعد التعارف بيننا، دار بيني وبينه نقاش طويل حول التعدد وأهميته من الناحية الفقهية وكثرة نسبة العوانس وإحياء سنة أميتت وهو يريد بذلك فتح مدخل للوصول إلى الزواج فأصبحت قضية من القضايا التي لها أهميتها وحصول العدل، وشخصيته كانت غريبة بالنسبة لي وجذابة، فاستطاع أن يقنعني وأنا من جانبي اجتهدت في إقناع أختي، فوافقت بعد إلحاح مني بتحريض منه بطبيعة الحال. ومما يعتبر من خصاله العجيبة أنه حين يتجه لأمر لا ييأس بسهولة ولا ينصرف عنه، فكلما أغلقت باباً في وجهه فتح ألف باب وقال «حاول».

• علمنا طبعاً أنه أخذك معه إلى أفغانستان، ولكن متى حدث ذلك، هل بعد اللقاء الأول مباشرة؟

- حين التقينا كنت مرتبطاً بالجامعة في السنة الأولى، وأثناء لعطلة الصيفية قمت بأول رحلة معه قبل الزواج، بعد أن ضمنت له الموافقة وتمّ العقد قبل الذهاب بحضور الشيخ عبد الله عزام، وأصبحت علاقتنا وطيدة وأصبحنا نصلي كل الصلوات معاً في الحرم ونجلس غالباً بعد صلاة الفجر والظهر سوياً. وكان بيني وبينه شيء من التفاهم والاتفاق والانسجام في الاهتمامات والهموم وغيرها، فلم يكن هناك مجال للمناقشات والسجال بيني

وبينه، فهمته وفهمني، وكان شخصاً ذكياً فهم ما أريد وفهمت ما يريد فحصل شيء من التفاهم، أصبحت بحوثنا في المسائل العلمية أكثر من أي شيء آخر، ويسألني في المسائل الشرعية ويحثني على مزيد من التخصص فيها، ودائماً يردد أن الأمة تفقد العلماء الشرعيين، ويسترسل في مسائل الجهاد معي باستمرار، ويرى أن تكرار الحديث عنها مهم.

• قل لي بصراحة، هل جاذبيته أظهرتك على أنك مجرد تابع له... أم شريكاً في المشروع؟

- لم يشعرني أبداً بأني تابع، بل أشعرني أنه يريد أن يستفيد مني ومن كل الطاقات، كما أن تحصيله الشرعي متواضع لا يؤهله لمنافستي فضلاً عن توجيهي، لكن جاذبيته في روحه الحماسية ونقاشه لما يسميه الفريضة الغائبة وشحذ همة الحركة الإسلامية.

كانت علاقتي به علاقة الند بالند، وكنا دائماً نتذاكر النواحي العلمية وكان يسأل ويناقش إذا أشكل عليه شيء من الشريعة لأنه درس في كلية الاقتصاد والإدارة في جامعة الملك عبد العزيز ولم يتمّها وكان حريصاً على أن يدرس الشريعة ولم يتمكن من ذلك وانتسب في جامعة الإمام أيام كان يعمل على تعبيد طريق «أبها» كما حكى لي ولم يتيسر له ذلك، لأنه كان يدير مشروع الطريق ثم بعد ذلك التوسعة.

الضيافة على الطريقة «السوفياتية»

لم يجد بن لادن مكافأة أوقع في نفس الشاب سعد الذي زوجه بأخته الشريفة أعظم من صحبته إلى أفغانستان، إذ تدور المعارك المستعرة هنالك، ويعود الشبان العرب بقصص بطولية خارقة، وأوسمة فخر يتصدرون بها المجالس في الرياض ومكة والمدينة وجدة، لذلك اغتنم الفرصة واصطحب الشريف في رحلة هي الأولى للأخير إلى بلاد الأفغان.

وبفضل العلاقات الواسعة للرجلين استطاعا تدبير أمرهما واستخراج جواز سفر بديل للابن الذي احتفظ والده بوثيقة سفره. ولأن علاقة وطيدة كانت ربطت أسامة من قبل بعراب الجهاد الأفغاني الشيخ عبد الله عزام، لم يجد الرجلان أي صعوبة في التوجه سريعاً قبل أي أنباء تتردد إلى غايتهما، وما هي إلا (خمس) ساعات جو، حتى وجدا نفسيهما بين الباكستانيين. هنالك فتح سعد عينيه فرأى حلم الجهاد والأرض التي خلعت عليها كل الألقاب آنذاك بسخاء، ماثلاً أمامه.

الاستعداد النفسي لمشاق الجهاد، والهوس بالتجربة منعا الفتى من أي صدمة بالواقع الباكستاني الذي وإن كان حسناً إذا ما قورن بالأفغاني حينئذ، إلا أنه بكل حال لا يشبه في شيء واقع بلاده التي غادر. وساعده أيضاً على هضم مفاجآت الحياة

واختلاف البيئة أن معه دليلاً من نوع خاص، يتكئ إلى خبرة وجيب مليء بالنقود الخاصة والعامة، التي أكسبته إلى جانب دماثة خلقه احترام كل من يلاقي سواء في باكستان أو أفغانستان أو السعودية.

الشيخ عبد الله عزام الذي بلغت علاقة أسامة به حداً جعل الأخير يتشرف بمباركته عقد قرانه ببنت الأشراف، وجد فرصة قدوم الرجلين فرصة جديدة، لرد الجميل والوفاء للرجل الذي أعطاه الكثير ويترقب منه المزيد، لذلك لم يكن وارداً أن يتعرض الشريف للأسئلة التي كانت الاستخبارات الباكستانية أيام الجهاد تحاصر بها بعض السعوديين والمتطوعين العرب، رغم فتحها الباب مشرعاً لهم أمام التطوع في قتال السوفيات.

وهكذا اجتمعت عوامل كثيرة سيحسد عليها الفتى الشريف فيما بعد، جعلته يصل إلى «رحلة الحلم» «محفوفاً مكفولاً» كما تقول العامة، ففضلاً عن تكفل بن لادن بجميع ترتيبات السفر، حظي بصحبته شخصياً، واستقبال السفير السعودي والملحق العسكري، وعبد الله عزام، وهو شرف من يناله في تلك الأيام؟

استقبل عزام ضيفيه في مقر إقامته في إسلام آباد، إذ كان مدرساً في الجامعة الإسلامية هنالك، ورحب بهما أيما ترحيب وهو في ذلك الوقت يوشك أن ينهي تأسيس «مكتب الخدمات» الذي تخصص فيما بعد في استقبال المجاهدين

وإيصالهم إلى جبهات القتال. أقام الشيخ الجهادي لضيفيه وليمة عشاء باذخة، وكان حفياً بهما، وفرحاً بقدومهما مثل فرحه بأي مجاهد ينضم إلى أفغانستان التي اعتبرها قضيته الأولى. لكن الفتى المدني لم يجد من نفسه أي انسجام مع شيخ المجاهدين، وهو شعور داخلي لم يجد له تعليلاً، عدا أنه لا يألف أهل الشام عموماً، وهي عدوى ربما أصاب بها من بعدُ «نصفه» أسامة الذي مال بشكل ملفت إلى المصريين ووجد نفسه بينهم، وسيفسر الشريف بعض أسباب ذلك.

إلا أن عزام بشهادة سعد نفسه لم يصدر منه أي تصرف غير نبيل نحو الفتى الذي وجد عليه كثيراً من أصدقاء أسامة والمقربين منه، بعد أن احتل في قلبه مرتبة جعلته (الشريف) أقرب إلى نصفه من الكل، بمن في ذلك إخوته، فالشيخ عزام ينظر إلى أسامة على أنه شعلة حماس و«مستودع أو مخزن مالي وحسب»، بينما ثمة أصدقاء آخرون لا بن لادن تهمهم حظوتهم الشخصية عنده.

الحاصل أن النفرة التي يشعر بها الشريف نحو بن عزام يبدو أن الأخير أيضاً أحس بها، لكن كلا الرجلين سيطر على مشاعره فلم تؤد مواقفهما النفسية إلى صدام، فالشريف كما يذكر عن نفسه ليس ميالاً إلى خلق العداوات، فإذا لم يستظرف

شخصاً ينأى عنه ويتعامل معه بشكل رسمي، فيما كان عزام أيضاً صاحب مشروع ليس في صالحه خسارة أي أحد خصوصاً إذا كان مقرباً من مخزنه المالي، ناهيك عن أخلاقه الدمثة التي لم ينكر الشريف تأثيرها على إبقاء العلاقة بينهما محافظة على الحد الأدنى من السلاسة. وزاد من سهم السلاسة تلك إظهار عزام للشريف توقيراً استثنائياً بوصفه واحداً من السلالة النبوية، وربما أبدى إعجاباً بالشاب الصغير الذي لم يمنعه صغر سنه من النقاش العلمي الرصين في مسائل أكبر منه في ظن الجاهل به، حتى أدت النظرة هذه إلى تخوف من طموح الفتى، ستجعل عزام يقف ضد أهم مشروع قام به الشريف في أفغانستان.

وكعادة عزام بعد أن أكرم ضيوفه استفاض في حديثه عن الجهاد وفضله والمجاهدين وثوابهم، في صورة رتيبة ومملّة في نظر المدني الذي ماكان يشك في صدق وإخلاص بن عزام، إلا أن نفوره منه جعل كثيراً مما يقوله غير ذي أهمية في نظره، رغم أنه يشاركه الحديث عن الجهاد وتوعية المجاهدين أحياناً.

بل كان عزام «قوام الليل، صوام النهار، لا يترك صيام الاثنين والخميس حتى في الجبهات، وكثيراً ما يقرأ في صلواته سورتي التوبة والأنفال، لما تتضمناه من آيات حول الجهاد وغزوات الرسول، وكثيراً ما يردد حينما يلام في تركيزه على الجهاد، إن الجهاد لا بواكي له، أما التوجيه والإصلاح الديني فله رواده»، هكذا

يقول الشريف عن عزام «كي لا يهم القارئ أني أقدح فيه لأجل أنني أوضحت موقفي الشخصي منه».

عاش الضيفان ليلة باكستانية خالصة، هي الأولى بالنسبة لسعد، وفي الصباح أفطر الجميع على الطريقة الأفغانية، بخبز «تميس» على الفرن، وشاي لبن، ثم بعد ذلك أوتي بالفطور الذي جمعت فيه أطايب الطعام، واتجه الضيفان باكراً بصحبة عزام إلى «بيشاور» المدينة الباكستانية التي سارت بها ركبان المجاهدين، واعتبرت مركزاً للانطلاق والتموين إلى أفغانستان. ووصلوها يوم «جمعة»، وكان الشيخ عبد الله لتوه بدأ في تجهيز مكتب الخدمات المشار إليه، واستأجر له بيتاً أنزل فيه أسامة ورفيقه، ووجدا فيه نحواً من 20 شخصاً من مصر والسعودية والأردن والجزائر والمغرب وبعض الجنسيات الأخرى، بعضهم أطباء جاؤوا ليقوموا بإغاثة اللاجئين الفارين من مواقع المعارك، وكان ملاحظاً أن أقارب الشيخ عزام هم الذين يديرون المكتب.

عقب صلاة الجمعة التي ألقى خطبتها عزام، ذهب الشريف مع كبار القوم إلى أحد القيادات الجهادية النافذة وهو الشيخ عبد الرسول سياف في بيشاور والتقوا به «ثم تواعدنا ونحن مجموعة يبلغ عددنا حدود 20 نفراً على أن نلتقي في منطقة تسمى «صدى» يوجد بها معسكر لسياف نفسه، تقع على الحدود، وهي

أعطاه إياه الباكستانيون لتكون معسكراً للتدريب ومستودعاً للسلاح والإمدادات، كانت علاقة سياف وعبد الله عزام وكذا أسامة قوية جداً، كما أنه فيما يتردد قريب أكثر من الاستخبارات الباكستانية، فهو في الأصل باكستاني ويحظى بثقتهم».

ومع أن الشريف كانت هذه سفرته الأولى، إلا أنه بدأ يحصد ثمرة العلاقة مع شخصية مرموقة في المنطقة، فشهد نقاشات مهمة لم يكن لأحد من المجاهدين العاديين أن يعلم بها فضلاً عن أن يكون أحد مصادر القرار فيها، ومن هنا يظهر إلى أي مدى كان فضل أسامة على الشريف كبيراً. فبينما يذهب بقية المجاهدين مع من وجدوا هاهو مع القادة الكبار في خيمتهم، بوصفه صديقاً لأسامة، ثم لم تلبث الصفة تتطور حتى كانت لأنه أحد كبار المؤثرين.

كان الجمع الذي انطلق من بيشاور نحو صدى أراد منه القادة، نقاش أمر هام مع حليفهم سياف. وذلك أننا لم نزل في عام 85، ولم يكن للعرب حتى الآن أي مركز تدريب مستقل، مع بدء ازدياد تدفق المجاهدين العرب، الذين يُزج بهم في المعارك أحياناً من دون أي سابق تدريب. فكان النقاش حول إمكانية تأسيس «معسكر تدريب للعرب في صدى»، وقضى المجاهدون ليلتهم في خيام بدائية، بعدما خيم عليها الظلام أصبح كل شيء يرعب الشاب الجديد على المشهد. خصوصاً وأن دوي القذائف

وأزيز الطائرات الحربية ما كاد ينقطع حتى يعود من جديد، والمنطقة لا يفصلها عن الحدود الأفغانية عدا 40 كلم تقريباً، لا يتورع المحاربون السوفيات في تخطيها كما فعلوا مرات عدة، على أن باكستان رغم دعمها المجاهدين إلا أنها ظلت محتفظة بعلاقات هشة مع الاتحاد في عهد «غور باتشوف»، فقضى الفتى المدني أول ليلة في حياته تحت القصف وألسنة النيران الحربية، فكان طبيعياً أن لا يهنأ بنوم رغم حظوته بالمكث في خيمة القادة نفسها، حتى إذا طلع الصبح صلى الجميع الفجر، وأمهم سياف الذي تميز بصوت جميل وفصاحة نادرة في اللغة العربية، التي درسها في الأزهر.

لم تمهل طبيعة الحياة القاسية على الجبهة المجاهد الجديد، فليس هناك في تلك الأيام تأهيل يذكر يسبق خوض غمار المخاطر، كما أن المجاهدين أنفسهم كان شوقهم إلى المعارك المستعرة أشد من شوقهم إلى أهاليهم في السعودية، إلا تضاريس المنطقة الوعرة، والبرد القارس لم تكن أمراً يتصور لدى شاب دون العشرين حتى الآن، ضحك من نفسه وهو لا يجد حتى «دورة مياه» يقضي فيها حاجته، ولا يدري كيف يصنع ولا أين يذهب، وقد وصل المنطقة ليلاً، فلما انكشف الظلام بعد طلوع الشمس وجد المنطقة خلاء وليس بها أي بناء، فذهل لكنه يعلم أن الأسوأ لمّا يأت بعد.

يقول: «بعدما أفطرنا توجهنا إلى منطقة تدعى جاجي التي سميت فيما بعد «مأسدة الأنصار» ثم وزعوا علينا الأسلحة وهي عبارة عن «كلاشنكوف»لنقوم بفكها وتركيبها، في محاولة لتعليمنا بشكل سريع، وكانت تلك أول مرة أقوم فيها بلمس السلاح. فتحوا لنا المخازن وأخذنا نركب ونعبئ الرصاص في الأسلحة. ناس تدخل الجبهات وأخرى تتعلم، كل على طريقته، لم تسر الأمور حتى الآن على شكل منظم ومحترف. نحن كنا أتينا على سيارات جيوب وغيرها، ولكنها يجب أن لا تذهب إلى المناطق الساخنة فأعيدت إلى منطقة آمنة، وركبنا فوق شاحنة فيها بعض السلاح والمؤن، وقلنا لأسامة لتركب أنت في الأمام فرفض وقال بل أكون معكم، وبالخصوص معي أنا وكانت أخلاقه دمثة.وكانت العلاقة جداً قوية حتى أننا ننام سوية وندخل ونخرج سوية، ونسافر سوية، وكنت إذا تأخرت في الجبهة راسلني (عبر اللاسلكي) وطلب مني العودة وسأل عني فكانت علاقتنا علاقة وثيقة، وهذا هو السبب الذي جعل من حوله يجدون وجداً شديداً والبعض حاول إفساد العلاقة بيني وبينه، لكن ماستطاعوا».

يواصل الشريف سرد أول مواجهة يشارك فيها، وهولم يزل مدنياً بطبعه، «بعد ذلك دخلنا جبهة «جاجي»وهي في أوج سخونتها على الحدود، وكنا خرجنا من صدى ثم مضينا قبل الحدود ومررنا بمنطقة تسمى باريشنار، ثم تيرامنجل، التي هي عبارة عن منطقة

قبلية، تعتبر سوقاً لكل شيء، وبعدها منطقة جاجي وهي جبل حينما تصعد تهبط على الأراضي الأفغانية فالجبل هو الحدود الباكستانية الأفغانية، ومن لحظة خروجك من بشاور سوق السلاح منتشرة وجزنا منطقة تدعى درى وهي من مراكز تصنيع السلاح وبيعه وبعد ذلك تطور أهلها وأصبحوا يأخذون الدبابات والشظايا وغيرها ويقومون بإعادة تصنيع وترميم بعضها، وهي منطقة مشهورة إلى اليوم ويوجد بها المخدرات، بما في ذلك الأفيون الذي تلقاه مبسوطاً على الأرض وكذلك الحشيش، في تناقض عجيب، ناس للجهاد وآخرون لبيع المخدرات، وهي على أي حال منطقة تخضع للقبائل، سوى الشارع الذي هو للجيش، لكن جميع الشعب يحمل السلاح كما هو الحال في اليمن وأحياناً فجأة تجد الناس قد اقتتلوا، مثل الأفلام الأمريكية تجد الشعب في القهوة وفجأة تقلب القهوة إلى وجبة قتال».

عندما خرج الشريف من المدينة أقنع نفسه بالخضوع لأي ظرف مهما قسا، خصوصاً إذا كان مع سيد القوم، لكنه بدأ يقتنع بأن المهمة أصعب مما ينقل «الجو كان صعباً، وأسامة لديه انخفاض في الضغط لأن الشمس حارة في الظهيرة، ونحن راكبون وجائعون فكان يأخذ ماء ويضع عليه شيئاً من الملح ويحتسيه ليخفف عليه، ولهذا تجد أن أعصابه هادئة جداً، حتى في خطاباته الثورية. مضينا إلى الجبهة وكانت ساخنة

تحت الجبل، فترى القصف والطائرات ولا يستطع أحد الصعود على الجبل في النهار فجلسنا في تيرامنجل ننتظر المساء حتى نصعد، لأن المعسكر هناك فوق الجبل والمجاهدون يعملون في القذائف، وأكثر ما يتعبهم الطيران والصواريخ التي تطلق، غير أنهم في موقع استراتيجي على جبال شاهقة وغابات من شجر الصنوبر غالبًا، وغيرها من الأشجار الكثيفة.

ومع الشمس تشعر بأنها غيمة مطر من كثافة الأشجار، وكان المخزن من الخشب وكان الطيران يضرب ليحرق الغابات حتى يستطيع رؤية المقاتلين، غير أن المجاهدين استفادوا من الأشجار أيضاً فجعلوا يقطعونها ويبيعونها على التجار.

وتوجد هنالك مناطق جميلة حتى أن السيارات التي تمر من تحت تلك الأشجار لا تستطيع الطائرات رؤيتها».

اقتربت ساعة الصفر وجاء الليل، وصار الشريف أمام امتحان صعب «صعدنا جبلاً وعراً غير ممهد، والشخص يتعثر ويعود ثم يتعثر ويتماسك مرة بعد أخرى، وهكذا حتى بلغنا الجبهة، لكن المنافقين كما يطلق عليهم المجاهدون خبروا الروس بأن هناك عرب دخلوا المنطقة بعد دخولنا بعشر دقائق تقريباً، فبدأ القصف الشديد في المنطقة التي نتواجد فيها فكان استقبالاً رهيباً يردع الشخص عن التفكير في العودة إن كتبت له النجاة.

ترجلنا مشياً على الأقدام فكان كلما قصفنا التصقنا بالأرض ولا نفتأ من ذكر الشهادة دائما، فلما صعدنا فوق الجبل كان هناك بعض الإخوة العرب، واجتمعوا داخل أحد الأنفاق والقصف لايزال مستمراً واتفقوا على أن يرجعوا إلى صدى لأن القصف شديد ولم يكن هناك قتال، وإنما هو قصف طائرات فقط وليس بجبهات، والشباب القادمون ليست لهم خبرة فلا داعي للبقاء هنا وهذا كلام منطقي، وكان فوق الجبل مضاد للطائرات، وفي الأسفل المجاهدون داخل أنفاق لسياف محفورة بالمتفجرات يبلغ عمقها من 25 إلى 30 متراً، ولها بوابة آمنة، وفي مقدمتها مدفعية مضادة لو جاء شيء نحوها، وكان الروس يريدون الاستيلاء على هذه المنطقة التي نحن فيها وهي جاجي لأنها مدخل رئيسي من مداخل أفغانستان تدخل منها المؤن إلى المجاهدين، وقد أقفلوا جميع الطرق لأنها برية يسهل الاستيلاء عليها بخلاف المناطق الجبلية كجاجي، وكانت الجبهة في المقدمة على أساس محاولة الحفاظ على المنطقة وإذا حاول أحد الدخول يجد المقاومة في البداية وهي مناطق وعرة يستطيع المجاهدون فيها قتل أفراد من الجيش ثم يهربوا ويختبؤوا في تلك الجبال ولا يستطيع أحد طلبهم ولم يستطيع الروس الهيمنة عليها أبداً.

المهم أننا انتظرنا الليل حتى نتمكن من الرجوع من دون أن يرانا أحد، وخاصة المنافقين فيخبروا بذلك الروس لأن المنطقة

حدودية قد يكون هناك أي شخص منافق يتواجد معه لاسلكي. نزلنا بعد شدة سواد الليل، فلما تحركنا عائدين إذا بالقصف مرة أخرى يتجدد، وكنت أنا وأسامة سوياً وكل مجموعة مع بعضها، ورأينا الموت بأم أعيننا، وأيقنا بأن أحداً أبلغهم بتحركنا، فكان النزول صعباً للغاية مع قصف الطائرات والمدفعية الثقيلة والهاون، وفي إحدى المواقع أثناء نزولنا انتبهنا لصوت الطائرة قبل أن نراها، فالتفتنا فإذا بها تحلق فوق رؤوسنا، فقفزنا إلى الناحية السفلى حتى اصطدمت رؤوسنا ببعضها، فكان من أعاجيب لطف الله أن سقطت القذيفة في المكان الذي كنا فيه نفسه قبل ثوان. بعد ذلك تم النزول وكان طريقاً طويلاً من الصباح حتى بعد المغرب تقريباً فلما نزلنا افترشنا وأكلنا ولا يوجد بالأسفل قصف غير أننا نسمع صوته من بعيد على قمة الجبل. لما أنهينا الأكل والشرب عدنا إلى منطقة صدى وهناك بدأنا نتدرب بسبب الظروف التي كدنا نروح ضحيتها كما ذكرنا وكان معنا أسامة في التدريب إذ هو رغم أقدميته إلا أنه خبرته القتالية قليلة، وبعد ذلك عدنا إلى بيشاور وعدت أنا وأسامة إلى المملكة، وأظن أن هذه الرحلة لم تكن في الإجازة الصيفية لأن الفترة كانت وجيزة، والظاهر أنها كانت في إجازة الربيع. أتذكر أن الإجازة النصفية كانت شهراً تقريباً، هذه كان السفرة الأولى وتم بعدها زواج أسامة من أختي».

هوس «الجهاد»

رحلة الجهاد الأولى دفع إليها الشريف الإعلام الجهادي آنئذ، إلى جانب مصاهرة أحد الناشطين في التعبئة الجهادية، مع عاطفته الدينية الجياشة وطلبه للعلم، والتحفيز الشعبي والسياسي نحو التجربة حينها. إلا أن العوامل تلك كلها لم تجعل من مغادرة المدينة النبوية أمراً مبهجاً تماماً لسعد، بالقدر الذي تأخذ بألباب سعوديين آخرين، تردد أن بعضهم أتلف جواز سفره على مشارف أفغانستان، بعد أن أخذته سكرة حلم الدولة الإسلامية المنتظرة التي آمن بأنه جاء لإقامتها مع المجاهدين. فالشاب سعد لم يكن ساكناً للمدينة، ولا مرتاداً للحرم الشريف، أو عاكفاً على حلق الدرس في الجوار الطاهر وحسب، ولكنه زيادة على كل ذلك «عاشقاً للحرم»، سيفضل ذات يوم سجناً في المدينة على قصر منيف في أي مكان آخر في الدنيا!

تلك العلاقة بين الشريف والمدينة بكل مفاتنها الروحية والأسرية، جعلت مغادرتها لأول مرة، حتى إلى «الجهاد» تجربة، يمكن وصفها في أحسن الأحوال بـ «غير المريحة». إلا أن صاحبة السحر (أفغانستان) مع الأهوال التي تعصف بها ساعة وصل الشريف لها، ألقته في حبائلها كما فعلت من قبل بنصفه أسامة وآلاف من قومه العرب، الذين دفع أغلبهم حياته وحريته ثمناً للحب الذي كان من النوع الذي يقتل.

وإذا كان أمير الشعراء أحمد شوقي، وصف العلاقات بين الرجل والأنثى بأنها تبدأ «نظرة فابتسامة، فموعد، فلقاء»، فإن المنطق نفسه يمكن استعارته لما وصل إليه سحر التجربة الأفغانية للشبان آنذاك. فالشريف الذي كان أول ذهابه عرضياً، سريعاً ما طاش كل معوق يرجح اكتفاءه بالروحة الأولى، أمام طغيان حماسته للعودة، بعد أن شرب من خمر «الجهاد الأفغاني»، ووقع في غرامه، على نحوٍ مما قال أعرابي في ساعة ضعف أخرى:

محا حبها حبّ من كن قبلها
وحلّت مكاناً لم يكن حل من قبل

ولذلك مرّ الفصل الدراسي الثاني طويلاً والمجاهد يعدّ أيامه ولياليه، يحدث نفسه بساعة تصرمه وانتهائه، وهو يستعجل العودة إلى حبه الأفغاني، بعد أيام وصل قصيرة في إجازة الربيع، على ما شهد فيها من الأهوال لم تزهده في إعادة الكرة.

لواء العرب

عاد سعد إلى أفغانستان مع أول دخول إجازة الصيف، ليشفي غيظه من الروس، ويعوض كل النقص الذي فاته بسبب الدراسة، وصهره أسامة كلما عاد إلى المدينة قافلاً من أفغانستان والتقيا يثرّب عليه في انشغاله بالدراسة، واهتمامه بها أكثر من النفير إلى الجهاد الأفغاني الذي ربما ظنه البعض آنذاك أفضل من أي قربة إلى الله!

وصل أفغانستان مع نصفه مجدداً، وتفكيره ليس في العودة سريعاً، فأمامه أشهر عدة، بل ظل يراوده تفكير في التفرغ للعمل الجهادي والإغاثي في الجبهة وترك الدراسة تأثراً ربما بلوم أسامة أو اقتداء به في المستقبل. ولكن اللافت في هذه المرحلة أن الحديث بدأ يتردد بقوة بعد تأسيس مركز الخدمات، عن أمل في تأسيس مركز تدريب خاص بـ «العرب»، بعد أن كثر أعداد المجاهدين، وازدادت حاجتهم إلى التدريب مع ضراوة المعارك.

«وبعد أن رجعت أنا وأسامة ذهبنا من جديد إلى صدى، فوجدت الشيخ عبد الله عزام وأسامة أسسا فيها أول معسكر للعرب، ضمن الأرض التي أعطيت لسياف، وتبرع من جانبه للعرب بقسط منها، وحتى الآن بقي دور أسامة ممولاً وداعماً بالرأي والمال، فيما كان عزام هو المسؤول الميداني عن المعسكر

وأسامه شريكه بطبيعة الحال. بما أن التدريب كما يظهر مشرعاً على أبوابه، التحقت به مباشرة، وكان الوقت فترة إجازة يأتي فيها الناس أفواجاً لأغراض شتى، فاشتركت مع المتدربين حوالى أسبوع لتحسين لياقتي البدنية، وتعزيز مهاراتي القتالية. وكنت لا أجلس في الخيام العامة المخصصة للمتدربين، بل أجلس مع القادة أسامة وعبد الله عزام، ونقوم بتمارين اللياقة سوياً، وكانوا حريصين على أن أبقى معهم ولكنني مصر على التدريب في الساعات التي ينشغلون فيها بقضاياهم السياسية، التي أحاول أن أبقى بعيداً عنها، حتى وإن حاولوا إقحامي فيها أحياناً. بعد عشرة أيام اقترحوا أن نتقدم نحو الجبهة، وكنا مجموعة منسقة، فوجدنا الروس قد انسحبوا من المنطقة التي قصدناها، وكنا نستخدم معهم أسلوب الكر والفر، فعدنا إلى المعسكر ثانية».

أيام الجهاد الأفغاني رغم أن الكل خرج من بلاده ليلتقي عند غاية مقاومة المحتل إلى جنب المجاهدين الأفغان، إلا أن الخلافات بين القياديين، والتدافع رغبة في حظوظ النفس أحياناً، بقي واضحاً بين مستويات مختلفة كما يقول صاحب السيرة. فجمال خليفة أحد خيرة شباب المدينة ومن المقربين من بن لادن كان أول من اقترح على أسامة تأسيس مركز للتدريب، فوافقه وبدأ ينهض بالمهمة، إلا أن خليفة وبن لادن سريعا ما اختلفا على آلية العمل، فتخلى الأول عن المهمة وبحث الثاني عن خيار آخر، وهو الاستمرار في دعم عزام.

إلا أن عزام كان على خلاف أسامة الذي كان جهده مرتكزاً في هذه المرحلة على «تموين جميع المعسكرات وشحذ همتها لأن المال هو العنصر الأساسي»؛ كان لا يعامل الناس معاملة واحدة، فأبناء حركته الإخوان لهم مقام أجل وأقرب ممن سواهم، ولا يخفى ميله الشديد إلى الشوام، وإن كان لا يبعد الآخرين. حسب تقييم سعد الذي تذكر أن «بعض القيادات العالمية للإخوان أتت إلى صدى من باب الإطلاع على أحوال المجاهدين ومساعدتهم ومناقشة عبد الله عزام في طلبه وتحريضه شباب المسلمين في أن يأتوا، ورأوا أنه لا داعي لذلك، ولو اقتصر دورهم على الجهد المالي والإغاثي لكان أفضل، وكنت أنا في القيادة وكنت أتناقش معه ويقول هؤلاء (الإخوانيون) يريدون أن يربوا الدجاج ويأتي هذا الطاغية ويقتلهم. والحقيقة أن معظم المجاهدين لم تكن لديهم الأفكار نفسها التي ينطلق منها عزام، فتفكيرنا منصب على الجهاد الأفغاني، أما هو فلديه مشروع أبعد، ويعتبر من المنتجين في قيادة حركة الإخوان، واشترك في الحرب في فلسطين وخرج لاحقاً. وحين فتح مراكز التدريب لم يكن يستهدف أفغانستان وحسب، بل قال صراحة إنه قصد فتح باب «الإعداد» للشباب المسلم والعربي ليتعلم فنون القتال العسكري، فيكون جاهزاً للجهاد وقت ما تحتاج الأمة إلى ذلك، وهذا أمر لم نفكر وقتها في مدلوله الخطير. من جانبنا نحن المجاهدين الشباب كل ما

أردناه مساعدة المجاهدين وحرب الإتحاد السوفياتي وإيقاف الدب الشيوعي الروسي، الذي قيل لنا إذا وصل إلى المياه الدافئة سيجتاحها. هكذا التصور الذي صوره المروجون في ذلك الحين من القوميين أو المعسكر الغربي العربي».

الحافز القومي للجهاد الأفغاني، لا ينكر سعد ما أضيف إليه من نسج الأحلام بإنشاء الدولة الإسلامية الفاضلة لدى البعض ممن يرددون أن الهدف كان «أن تعود الأمة إلى مجدها ومجد الأمة بني حسب السيرة والتاريخ على الجهاد، وبه وحده يمكن أن تحرر أفغانستان، ويقام عليها نموذجاً لدولة الإسلام المنتظرة. كذا كانت الأحلام، حتى إن البعض بدأ يستدل ببعض أحاديث الملاحم على فضل ما كان إلمجاهدون يقومون به. كل تلك الحوافز أضيفت للجو العام في العالم الإسلامي بما فيه السعودية المشجع على الجهاد. فصار الذهاب لأفغانستان نوعاً من البطولة التي تستهوي كل الشباب».

لكن هذه الحالة التي بدأ الشريف يتعامل معها واقعاً يومياً في أفغانستان، لم تمنع من تسلل الخلافات التي بدأت تظهر بين العرب من جانب، والمجاهدين الأفغان من ناحية أخرى، ما أثار مخاوفه قبل أن تتجه الأمور نحو الأسوأ. مع ذلك استمر الفتى في مغامراته الجهادية، مركزاً على المشاركة في القتال، والقيام بدور

المحرض على الجهاد، بكل ما أوتي من بلاغة وحصيلة شرعية وعلمية.

الخلافات التي نشأت من قبل بين أصحاب الأرض الأفغان، توشك مثلها أن تبدأ خطواتها الأولى بين «الأنصار» العرب، الذين وطأ كل منهم الأرض ماضياً إلى غاية، ظاهرها الإغاثة والجهاد، وباطنها مآرب أخرى للكبار، دفع الأفراد ثمنها في الميدان وبعده.

أحد تلك المواقف التي أرّخت لما بعدها، توجه جديد تزعّمه أسامة، يدعو إلى إقامة «لواء» خاص بالعرب يقاتلون تحته، وهي فكرة قديمة لجمال خليفة، جاءت وليدة ملاحظته ضياع المقاتلين العرب وسط أعداد الأفغان أهل الأرض، الذي ثبت أن بينهم منافقين لا يرحبون بالمقاتلين العرب، بل ينقلون أي تحرك لهم منفرد عبر أجهزة اللاسلكي إلى الروس القريبين جداً، ليحولوا طريق المجاهدين العرب إلى جحيم بالقذائف والقنابل، حاصرت المجاهدين مرات عدة، وراح ضحيتها من حضر أجله على تلك البقاع. مبررات كثيرة تدفع إلى هذا التوجه، ليس أقلها أن العرب أنفسهم بدأوا يتدفقون بأعداد هائلة، وصار هناك فريق للشوام يتزعمه عبد الله عزام، وآخر للخليجيين واليمنيين، بدأ أسامة يستفزه تهميشهم من جانب شيخه وصديقه عزام.

ولهذا لاحظ الشريف -بعد عودته الجديدة، ومروره بصدى التي بات بها مركز تدريب لعزام، في طريقه إلى «جاجي»-، أن

«تيار جاجي غير الذي في صدى، فهذه المجموعة كانت تتدرب تدريبات عالية، وتشارك في المعارك المباشرة مع المجاهدين في الداخل، وربما ذهبت المجموعات المكونة من عدة مقاتلين إلى محافظات أفغانية أخرى، لمساندة الأفغانيين، ولكن على الطريقة الجديدة، التي بدأ العرب يشاركون بها في القتال، إذ ينسقون مع قادة المعارك الأفغانيين، ولكن في الميدان يقاتلون كوحدة عربية تتولى قيادة نفسها، تمتاز بالجرأة والتفاهم، والإثخان في العدو».

وللأثر الذي بدا واضحاً للنهج العربي الجديد أثناء المعارك، أنشأ أسامة أول نواة للمعسكر العربي في جاجي، بتأييد معنوي من صديقه عزام في بداية الأمر، إلا أن الأخير أصبح أسلوبه مثار جدل، نجم عنه خلاف في وجهات النظر بينه وبين أسامة، دفع كلاً منهما إلى الاستقلال بعمله، وإن بقي التنسيق بينهما في شؤون الجهاد الأخرى. وربما كان أحد العوامل التي ستصبح نقطة تسجل ضد الشريف وله، أنه كلما وجد الآراء والمناقشات اتجهت إلى التوسع، هرب إلى الجبهة «فما كان يهمني شخصياً ما يدور بين الزعامات الجهادية في تلك الفترة، لأن أي مسائل فيها خلاف أفضل الابتعاد عنها بالكلية وإن كان أسامة يقحمني فيها كرهاً أحياناً. فأنا كان عندي هدف وحيد، وهو تشجع الأفغان ورفع معنوياتهم ومساعدتهم وتعليمهم، والمشاركة معهم مباشرة في القتال. قلت معونتهم لأنه حينما يقاتل إلى جانبهم عربي أو اثنان

ترتفع روحهم المعنوية، فمسلسلات الخلاف لم أشترك فيها».

إلا أن الجيش الأحمر الروسي، الذي كان مضرب المثل في الشراسة القتالية، يبدو أنه لا يشاء إمهال العرب كثيراً لحسم خلافاتهم، أو أنه قرر توفير مسافة الطريقة إلى الجبهة، وقرر إطلاق شرارة المعركة التي جاء العرب للإعداد لها باكراً، فبعد أن جاء الشريف وصحبه للمعسكر، استمتعوا بليلتهم الأولى، إذ جاؤوا متخفين، ولكن الجواسيس الأفغان، أو هكذا يتردد، أبرقوا إلى الروس بوصول دفعة جديدة من العرب، فلما احتلك الظلام واستقر الكل في الخيام، حلّقت المقاتلات الروسية فوق المنطقة المغطاة بالأشجار، وأشعلت القنابل المضيئة، ثم ألقت ألغاماً فردية، سمع النائمون أصواتها فظنوها ورق الشجر تتساقط فوق الخيام، فإذا هي ألغام فتاكة محرمة دولياً على هيئة فراشات لونها أخضر، لا يشك أحد أنها جزء من طبيعة المنطقة، لكنها ما إن تلمس قدماً حتى تهوي به مبتوراً!

كانت تلك أول ليلة من رمضان، وهم كما يقول سعد «يعرفون بأن في رمضان يستيقظ الناس قبل الفجر ليتسحروا فتكون هناك حركة، وبسبب الظلام لا تستطيع أن تميز الألغام عن غيرها. ومع أننا شعرنا بهذا الذي سقط على الخيام، إلا أن أحد الأصدقاء اليمنيين خرج ليقضي حاجته، فوطئت رجله طرف

أحد الألغام فبترت قدمه، وبعد ذلك أمرنا بأن نبقى في الخيام ولا نخرج لصلاة الفجر حتى يظهر النور ليتم تنظيف المكان من الألغام، فعمّ الرعب المكان، لأن الألغام أشد الأسلحة فتكاً، فلما طلع الفجر تيممنا مع أن الماء قريب إلا أنه لا يمكن الوصول إليه وصلينا الفجر، وجاء النهار وبدأنا نرى فأصبحنا نصوب الألغام بالكلاشنكوف، ونفجرها بالحجارة، ولم يصب من مجموعتنا إلا شخصين، ثم تم التنظيف، وبعد ذلك بيومين نزلنا الجبل إلى الجبهات المباشرة للقتال، وحدث نقاش آخر بعدما رأينا الجبهات، واشتراكنا فيها جعل أسامة يصر على وجوب استقلالية العرب، بعد أن كنا تحت قيادة المجاهدين الأفغان».

أحد المبررات التي وجدها أسامة محفزة له على المضي في فصل المقاتلين العرب، كانت ملاحظته أن الأفغان حتى الصالحين منهم بلغوا من البساطة حداً جعلهم يتداولون ما يعتبر أسراراً حربية في مجالسهم، فيحدث ذلك صدى يلتقطه بعض الجواسيس، ويؤدي إلى ثغرة أمنية. هذا الأمر كما يقول نصفه سعد، أكد لأسامة «بضرورة الاستقلال فوراً، ففكر بأن يبني في منطقة جاجي جبهة محصّنة، فغادرنا المخيم سوياً، لنشاهد مابين جاجي إلى صدى، ومدى إمكانية فتح الطرق للسيارات عبر الجبال الوعرة، لتسهيل بناء مركز مرموق، خلف الجبهة الساخنة في جاجي، وشجع على ذلك أكثر أن أسامة كانت له خبرة في تعبيد

الطرق في السعودية، فكان يقود الدركترات بنفسه، وتعلمت أنا منه كذلك، وكان بارعا في قيادتها، كمااستقدم أفراداً من اليمن لقيادتها والعمل عليها. وكانت الدركترات تدخل في الأنفاق فلا يستطيع أحد رؤيتها، فتم حفر كثير من الأنفاق التي بنيت فيها غرف ومخازن للأسلحة والإمدادات والمؤن، انتقل إليها الناس بعد أن كان في الخيام».

ورغم التحول الذي أحدثه هذا الإجراء وما سيترتب عليه بعد ذلك، كان الأفغان معترضون على شق الطرق للسيارات إلى مناطقهم، بزعم أنها تسهل مهمة العدو إذا أراد اقتحام أرضهم. بينما كان سياف مالك الأرض أسعد بالطرق الجديدة، ثم تبعته القبائل بعد ذلك، لما لاحظوا بأنفسهم حجم الفرق بين الماضي والحاضر، فصاروا يستخدمون طرق أسامة، وغدت المؤونات والمساعدات الإغاثية توصلها السيارات إلى المجاهدين أسرع من ذي قبل، فتقدم المجاهدون وزاد صمودهم أمام العدو.

المجاهدون الآخرون من القوميات المختلفة أيضاً استفادوا من الطرق الجديدة، فالعرب هم العنصر الجديد في المنطقة، بينما سبقهم إليها مقاتلون آخرين، فهناك معسكر سياف في الخلف، وحكمتيار له معسكر، وكذلك غيلاني له معسكر، وشخص آخر يدعى أيوب أوكرا، كما أن هناك معسكر نشط جداً

لأحد المجاهدين الشيعة. لكن أسامة تفرد بإمكاناته المذهلة التي جعلته يبني «شبه مدينة أنفاق» للسلاح والأفراد، تصلها طرق معبدة بمناطق الإمداد نحو «صدى»، ونحو الجبهة أيضاً. وهنالك قسم جنده إلى مجموعات، عبر تنظيم حديث أقرب ما يكون إلى الجيوش النظامية، فصار من يرابط في الجبهة فترة محددة، يعود إلى المركز المحصن الذي أطلق عليه «العرين» للاستراحة، ثم يذهب غيره، فيما يقوم كل بواجباته في التدريب أو الحراسة. كما قسم المقاتلين إلى وحدات حسب مهاراتهم، بمعاونة وخبرة بعض الطاقات المصرية مثل أبي عبيدة البشيري وأبي حفص المصري وأبي خالد المصري وغيرهم، وهنا بدأ تطور العلاقة المصرية بأسامة وبالأخص أبي عبيدة وأبي حفص على ما سيذكر. وبفضل المناطق التي أعدها بن لادن، والتخطيط الذي أسس له علا شأن العرب ميدانياً في الجهاد الأفغاني، وأصبحوا جزءاً من المعادلة، رغم تضخيم أسطوري لا ينكر لدورهم الهامشي نسبياً، إذا ما قورن بتضحيات أهل الأرض.

خبرة أسامة الطويلة بتلك المناطق، ومعرفته الوثيقة بأهلها فضلاً عن تضاريسها الوعرة، هو ما أعاد إليه الشريف تمكن صهره من كسر الحصار الأميركي له في معركة تورا بورا الشهيرة بعد أسابيع من 11 سبتمبر.

وجاء دور القتال

كعادته، غادر سعد أفغانستان إلى المدينة بعد أن قضى في الأولى أشهراً مليئة بالعمل المضني، تكشفت أمامه فيها كل «ألغاز» الجهاد وخلافات رجالاته، وصعوبات طرائقه، ورأى كيف تمنع بعض أحزاب المجاهدين الأفغان بعضها من المرور في مناطقها، وهم جميعاً يستهدفون عدواً واحداً، فيما لم يزل العرب حتى الآن، رغم تحالفهم مع بعض الأحزاب، أناساً يحظون باحترام كل أهل الأرض ظاهرياً، عدا جواسيس من هناك وهناك ولاؤهم لمن يدفع أكثر، وإن كان جنرالات الروس. لكن الفتى المدني رغم حنينه إلى وطنه كلما غاب عنه، ظل مشتاقاً للمواجهات المباشرة مع الروس، ما يجعل الجهاد حاضراً معه وشاغلاً ذهنه حيثما كان، فما إن يجد فرصة فراغ من جامعته التي أصر على إتمامها، حتى يغتنمها سريعاً إلى أفغانستان، باحثاً عن النصر أو الشهادة، في صحبة نصفه الذي لازمه معظم الأحيان.

لازمت الرغبة في مواصلة الجهاد سعداً حتى وهو في المدينة، ولذلك استمر في مذاكرة همومه مع أسامة الذي أصبح ارتباطه بأرض المعارك أكبر من ذي قبل، بسبب شروعه في تأسيس مركز جاجي، والتفكير جدياً في التفرغ للهم الجهادي كلية، ما أحوجه إلى إنهاء إشرافه على بناء مسجد «القبلتين»

التاريخي غربي الحرم المدني، فقد كان قبل أن تكثر سفرياته إلى أفغانستان، يذكر الفتى المدنى أنهما كانا يصليان الفجر سوية في الجوار النبوي، ثم يذهبون إلى البيت لتناول طعام الإفطار «ثم نخرج إلى المسجد. وكان بن لادن لشدة تواضعه يشتغل مع العمال، ويناولهم الطوب، ويفرحون بقدومه إليهم، فكنت أجلس معه من بعد الفجر حتى السابعة فجراً، ثم أخرج إلى الجامعة».

اغتنم سعد أول فرصة وجدها واتجه مع صديقه إلى أفغانستان، ولأنه عازم هذه المرة على القتال الميداني، ألحّ على أسامة أن يسمح له في القتال مع جبهة أخرى، في أول محاولة أراد منها الشريف أن يستقل عن بن لادن المشغول بهمّ لا يعني فتى أراد فقط أن يفرغ طاقته الإسلامية والشبابية في نصرة الأفغان على المحتل الغاشم ومساعدتهم ميدانياً ومعنوياً وتعليمهم والتعلم منهم، على حد وصفه.

وكان أسامة حريصاً بشدة على بقاء الشريف معه، لكنه لم يجد بداً من السماح له على مضض بعد أن وجده مصراً على رأيه.

فتح موسكو الصغرى!

استطاع سعد أن يجتمع بمجموعة من شباب المدينة الذين قصدوا أفغانستان أيضاً، فذهبوا إلى إحدى الجبهات التابعة ليونس خالص، تقودها إحدى أبرز الشخصيات في ذلك العهد

تدعى أستاذ نور، وهو كما يفيد الشريف أمي لا يقرأ ولا يكتب، وإلى جانبه قائد آخر يدعى خالداً. هذا الأخير أُعجب به الفتى المدني فربطتهما صداقة، جعلته يرتاح للإنضواء تحت إمارته للقيام بعملية من أخطر عمليات المجاهدين الأفغان قاطبة في تلك المنطقة.

وعنها يقول: «القائد خالد الذي قد يتعجب البعض من عزيمته الوقادة، عندما يعلم أنه مبتور القدم، ومع ذلك يتابع نشاطه الجهادي والدعوي بهمة عالية، رآني ملتحياً وظاهر التدين، فطلب مني أن ألقي على المجاهدين الدروس الدينية الكفيلة باستنهاض هممهم، وقال لي أنت مسؤول عن الشرعية في المعركة، فكنا نجلس سوياً ونتناقش ونتحاور بصورة أخوية وودية، طيلة الفترة التي بدأت بانطلاقنا من بيشاور ثم طرخم عبر معبر خيبر الشهير الذي انهزم عنده البريطانيون في آخر معركة لهم في أفغانستان، حتى ساعة المعركة، وهي فترة تجاوزت 20 يوماً، إذ كان علينا السير متخفين على مراحل عدة، ثم التعسكر في منطقة متقدمة، قبل الإجهاز على الهدف المنتظر».

انطلق المجاهدون من بيشاور عبر السيارات، حتى إذا اقتربوا مسافة يوم تقريباً على معسكرهم القريب من منطقة «جلال آباد» المستهدفة من المعركة المقبلة، تعود السيارات،

ويعتمد الأفراد على أنفسهم ويسيرون على أقدامهم، فيما تنهض البغال والخيول بحمل الذخيرة والسلاح على الجبال الوعرة.

إلا أن صعوبات الطريق والتخفي عن الأنظار هذه المرة أضيفت إليها معضلة أخرى كما يقول سعد، «فنحن معنا مراسل سوداني لمجلة «البنيان المرصوص»، أعاق مسيرة حركتنا، فكلما مررنا بنقطة تفتيش باكستانية أوقفونا، لأنه من غير المسموح رسمياً مشاركة الأجانب في القتال، أما نحن العرب فكنا نتشبه بالأفغان في زيهم فلا يكشف أمرنا بصورة فاضحة، أما السوداني فإنه غدا غنيمة باردة للجنود الذين يحاولون في كل مرة أن يقبضوا ما كتب لهم في مقابل إطلاق سراحه والسماح له بمرافقة المقاتلين، فكنا نمر وينزلوننا ثم يقوموا بتفتيشنا واحداً واحداً ثم يجيئون عند السوداني وهم يقولون «عربيانو عربيانو» وهو يجادلهم بلهجته السودانية «طلعتوا ليا شجره في راسي أنا أفغاني».

الحاصل أننا بعد أن رجعت السيارة مشينا على أقدامنا من الفجر حتى العاشرة مساء نصعد جبلاً وننزل حتى وصلنا إلى منطقة الجبهة، ونحن قد بلغ منا الإعياء والتعب كل مبلغ، فضيفنا المجاهدون المرابطون على الجبهة، وتعرفنا عليهم في الصباح الباكر. بعد أيام أصبحت أتنقل بين معسكرات فصائل المجاهدين وأتحدث معهم عن الجهاد والوحدة وأقوم بدور

المرشد الديني، وفي بعض الفترات نمشي سوياً ونضحك ونلهو، والجو جميل، والأرض خضراء، والأنهار تجري من حولنا، فالجبال الجليدية تصبح في الصيف أنهار جارية، وما كان ينقصنا من اللذات إلا الزوجات فقط، فكنا ننزل في الأودية ونضرب، وكنت أستفيد من الشباب الذين لديهم الخبرة في كيفية استخدام الأسلحة والتكتيك القتالي، وتدربنا على مضاد الدبابات، فجلسنا ما يقارب 17 يوماً استثمرناها في مجال الدعوة، فأكسبنا ذلك احترامهم، فكانوا يكرموننا بما يستطيعون ويرفضون أخذ أي مقابل مالي على ذلك»، فهم يعتقدون أن العرب وخصوصاً من السعودية أبناء صحابة النبي.

حدد القائد ساعة الصفر، عندما استيقن أن الأجواء مهيأة لمباغتة العدو، فتحرك لواء من المجاهدين في قرابة ألفي مقاتل من منطقة تدعى «سروبي» إلى تخوم جلال آباد، وهي منطقة صغيرة كان يسكنها أناس من الشيوعيين بعوائلهم، وفيها مدارس ماركسية، ويجري في وسطها نهر كبير، تتفرع منها جداول عذبة مبنية عليها البيوت، فكان أحد السكان إذا أراد أن يستخدم المياه فتح غطاء في إحدى جوانب المنزل على نهر عذب، يذكر بما حكاه الله عن الجنة التي «تجري من تحتها الأنهار».

سار المجاهدون باكراً من معسكرهم بعد صلاة الفجر سيراً على الأقدام، فما وصلوا حتى الثانية عشرة ليلاً، في رحلة

شاقة عانوا فيها صنوف المتاعب، خاصة عندما نفد الماء الذي حملوه معهم فاضطروا إلى الشرب من «بركة مياه» وجدوها في طريقهم، مليئة بروث البغال والخيول في يوم شديد الحر.

قبل أن يكملوا راحتهم استنهض القائد المجموعة بهدف الاستعداد للاقتحام المقرر مع صلاة الفجر، لمراكز الحماية المطلة على المدينة التي لا بد فيها من الاشتباك. غير أن المفاجأة التي حدثت أن الشريف لشدة إعيائه استغرق نائماً على الأحجار، فيما استغل الجميع الظلام في أخذ مواقعهم تمهيداً للاقتحام المفاجئ، أما هو فلم يستيقظ إلا مع بدء الاقتحام وانكشاف الظلام، ولم يجد حوله في المعسكر أحد سوى الطباخون والمجاهدون المكلفون بالسلاح الثقيل الذي يضرب عن بعد! وهي عبارة عن 12 صاروخاً تضرب يقال لها «ي ام دوازده»، حتى تقوم بتمشيط أرض العدوّ قبل الالتحام.

جنرال فاشل!

التفت الشريف إلى المسؤول عن السلاح الثقيل فكلفه بالقذائف. غير أن الاقتحام كله مُني بالفشل، بسبب ما اعتبره الأفغان خطة غير مسؤولة من شخص كان جنرالاً سابقاً في الجيش الأفغاني، خطط لهم الاقتحام على طريقة الجيوش النظامية، فلم تغن خطته عنهم شيئاً، بل أغارت الطائرات بمواقع المجاهدين فدكّتها قبل أن يتحرك المقاتلون على الأرض.

ماذا جرى؟ يقول سعد «سمعت المجاهدين الأفغان يتحدثون بالبوشتوا عن الجنرال النظامي بانتقاد شديد، يقولون إنه لا يفرق بين الجهاد المبني على التوكل على الله، وبين قتال الجيوش النظامية التقليدية. وكانت خطة الجنرال هو الإثخان في العدو بصواريخ الهاون في اليوم الأول بكثافة، ثم الاقتحام بعد ذلك، فلم يضرب حساباً للطائرات، التي كانت مضادات المجاهدين ضعيفة أمامها. لكن المجاهدين رغم فشل خطتهم، بسبب خبرتهم الطويلة عرفوا كيف يتعاملون مع المأزق. صرنا نضرب بكمية من القذائف فوق الجبل، ثم نفكها، وننتقل إلى مكان آخر قبل أن تأتي الطائرات لقذف المكان السابق، وهكذا دواليك حتى دوّخنا العدوّ وخيم الظلام. ومن المضحك أن الجنرال الذي خطط للمعركة عاد المغرب فصب عليه القائد نور جام غضبه، ولما سألنا لماذ؟ قيل لنا إن سعادته كان مع «الهاون»، فلما رأى الطائرات، وأيقن بالهلاك فرّ إلى منطقته، ما دفع القائد إلى حرمانه من المشاركة في المعركة مجدداً».

التعبئة الدينية

صلى المجاهدون المغرب بعد يوم هزيمة مريرة، فخطب فيهم سعد خطبة عصماء، أراد بها تحريض رفاقه على القتال والصبر على المكاره، فبات الجميع ليلة انتظروا صبيحتها بفارغ

الصبر. قبل طلوع الفجر كان أستاذ نور وزع جنده على الطريقة التي علمتهم إياها تجارب القتال غير المتكافئ مع الروس، فبعد أن أخذ رجال المضادات والهاون مواقعهم فوق الجبل، تقدم المقاتلون نحو مراكز حماية المدينة التي يجب استهدافها أولاً قبل اقتحام المدينة، فلما اقترب المجاهدون منها، طلب القائد عبر اللاسلكي من مسؤول «الهاون» قذفها بكثافة، وكالعادة اختبأ حراس مراكز الحماية في ملاجئهم، وقبل أن يتمكنوا من الاستنجاد بالطائرات أو المدفعية الثقيلة، أجهز عليهم مشاة المجاهدين، فانكشفت المدينة أمام رجال نور واقتحموها بسرعة خاطفة وقتلوا من قتلوا وهرب من هرب. وحين يكون الالتحام لم يعد ممكناً أن يضرب العدو المواقع بالدبابات ولا بالطائرات، خشية أن يصيب جنده.

يروي سعد تفاصيل أكثر عن المعركة قائلا: «أخذنا المراكز الحامية لـ «سروبي»، فبدأت الدبابات تضرب نفس المراكز التي في الأصل تابعة لها، فنزل بعض الأفراد الذين معهم مضاد للدبابات وقاموا بمقاومتها حتى انسحبت إلى منطقة تسمى «غنى خيل»، وهي أكبر قاعدة عسكرية للروس، كما فر الناس إلى المنطقة نفسها، فدخلناها شبه فارغة، والبعض ترك النساء والأطفال لأنهم يعلمون أن المجاهدين لا يهتكون حرمات النساء ولا يقتلون الأطفال. أثناء القصف كان هناك إخلاء للمنطقة حتى يزول الخطر، وساعدهم على ذلك قرب مدن أخرى منها. دخلنا المدينة ونحن فرحون

جداً بلذة النصر والفتح، وهتافنا التكبير، ووجدنا البيوت فيها الجبن والحليب والدجاج، وكان ذلك قبيل المغرب، وكان فريق من المجاهدين يجمع الغنائم من الذخيرة والآلات العسكرية، وآخر مستمر في مطاردة دبابات العدوّ لتأمين ساحة تواجد المقاتلين. جاء المغرب وصليت بهم إماماً فحلق الطيران فوقنا، وألقى قذيفة اقتربت منا كثيراً، فلما رأيتها نزلتُ أرضاً، بينما الأفغان لم يتحرك أحد منهم، بل تقدم أحدهم مكاني وأكمل الصلاة فخجلت من نفسي. الإمام الذي تقدم مكاني لما أنهى صلاة المغرب قام وصلى العشاء أيضاً والطائرات تقصف ولم يتحركوا ولم يصبهم أذى مع أن دخان القذائف يعلو رؤوسهم. أنهوا الصلاة وسبحوا وتسننوا وعاتبوني قائلين: أنت تقف أمام الله فكيف يرهبك شيء بيد البشر؟ وهذه مناسبة ذكرتني بقول بعض العرب إنهم ذهبوا إلى الأفغان ليعلموهم الدين، بل نحن الذين تعلمنا منهم. وكنت أتناقش معهم في المذهب الحنفي وهم لا يتحركون في الصلاة أي حركة مهما كانت بسيطة، فكنت أخشى أن تصدر مني حركة في الصلاة يأخذونها عليّ وأسقط من أعينهم».

قضى المجاهدون صلاتهم، واختاروا بيتاً كبيراً من بيوت المدينة وتعشوا فيه وتسامروا، ومن ثم تناوبوا على الحراسة والقتال، لأن المعركة لم تزل مستمرة. «استيقظنا باكراً وصليت بهم الفجر، فسألت عن الوضع، فقالوا هناك نحو 20 دبابة متقدمة،

وهم يعملون على إيقافها. أما أنا فذهبت مع اثنين من المقاتلين نتمشى في المدينة، نتأمل في طبيعتها الخلابة، وكيف يعيش أهلها، وبينما نحن كذلك إذا بطائرة «هلكوبتر» تحلق فوق رؤوسنا فجأة على بعد 80م ورأيت طيارها بوضوح، ولا أزال أتذكر ملامح وجهه، فاختبأنا خلف أحد المباني، وكأنها رأتنا فبدأت تطلق من رشاشها الكبير من عيار 21ملم. ومن أعاجيب صنع الله أن أحد الشخصين اللذين كانا معي تنحى جانباً يقضي حاجته، رأته الطيارة فصوبت نحوه القذيفة، فأخذ الأرض ولم تصبه إلا شظايا قليلة، فبدأ يحبي نحو المباني القريبة جداً منه والطائرة تتبعه، وفي تلك اللحظة انتبهت لنا الطائرة فتركته واتجهت إلينا حتى تمكن من التخفي، فسبحان الله شغلها عنا ثم لما انكشف شغلناها عنه، ونحن نسرع بأقوى ما لدينا وأنا أصيح بالمجاهدين آربيجي آربيجي، لأنه لو أطلق عليها لأسقطها لأنها قريبة جداً، لكن الله أنقذنا بأشجار كثيفة في مجرى النهر اختبأنا فيها، فلم تعد الطائرة تدري عن مكاننا. كما أن المجاهدين أشغلوها بنيران كثيفة أجبرتها على العودة. لكن الأدهى من ذلك أننا بعد انتهاء أزمة الطائرة، صرنا نسمع بوضوح أزيز الدبابات قريبة منا جداً، والسلاح المضاد لها ليس بحوزتنا، إذ غادر به المجاهدون المكان ضمن تحضيراتهم للإنسحاب، الذي كان مخططاً وفق ما اعتاد عليه المجاهدون أن يحتلوا المنطقة ثم يأخذون ما فيها من الغنائم، ويعودون إلى

مواقعهم من جديد، على نهج حرب العصابات المعروف. إلا أننا لم نكن نتصور أن الانسحاب سيتم على هذا النحو المعوج، وكانت النتيجة أن الذين قتلوا منا في صد الهجوم أكثر من الذين قتلوا في الاقتحام. فكنا نصعد الجبل وظهورنا مكشوفة للدبابات التي تقدمت في اتجاهنا والطائرات التي تضرب بكثافة، ولولا ستر الله ثم تضاريس الأرض وتضحية بعض المجاهدين لما بقي منا أحد. صعدنا الجبل وسلك بنا القائد طريقاً آخر أكثر أماناً، ولم نصل المعسكر إلا بعد العشاء، ووجدنا كثيراً من زملائنا قد سبقنا إليه، إذا انسحبوا مبكراً. واستشهد منا نحو 20 شخصاً».

فطور على رقصة «الميج»

إلا أن الذي ما كان منتظراً من جانب الشريف وزملائه هو الفطور المبكر الذي باغتهم به الروس على طريقتهم الخاصة في اليوم التالي، فلم يهنأ المقاتلون بكثير من الراحة، فهم وصلوا متعبين مجهدين في آخر الليل، وتحصنوا في الخنادق، وتفرقوا بين المواقع الحصينة والمكشوفة، غير أنهم ليسوا في كل الأحوال مستعدين للمواجهة، ظناً منهم أن المعركة انتهت، الظن الذي دفع قائد المعركة إلى تفكيك كل أسلحة الدفاع الجوية البدائية، ونظيرتها المضادة للدبابات، وتحميلها إلى نقاط آمنة في معسكرات المجاهدين القريبة من الحدود الباكستانية.

قبل أذان الفجر تصرف معظم الناس على طريقته الخاصة، وانسحب كل حسب المجموعة التي يختبئ معها وينتمي إليها، إلا الخباز الأفغاني الذي لم يبلغ 20 عاماً بعد، فآثر البقاء واستغلال الوقت في خبز كميات هائلة من العجين، كان أهم بالنسبة للمجاهدين من الذخيرة الحية، فهي قوامهم الوحيد في الإغارة على عدو الجوع، وهم لما يزالوا في حرب ضروس ضد عدو أشرس، فجعل الشاب المتفاني يخبز ويخبز ويعجن ويمارس طقوسه المفضلة بإحساس فريد، فهو يظن موقعه الذي اختاره لخدمة المجاهدين أهم وأكبر من كثيرين يكتفون بإطلاق الذخيرة على الروس أو في الهواء أحياناً، فبينما يبحثون عن ثغرات في العدو البعيد مجتمعين، بقي هو شامخاً وحده مقاتلاً شرساً لا يكل ولا يمل، يجاهد العدو الأشرس على مر التاريخ «الجوع»، فجعل يرسل مخبوزه على هيئة طلقات باذخة ونسائم عافية إلى أفواه مجاهدين قد يظنه بعضهم أقل شأناً، فيما هو في الحقيقة المجاهد الأكبر، كما سيكتشف الكل بعد قليل عندما تكف يداه النحيلتان عن الخبز، ويكشر الجوع بأنيابه على المجاهدين الأشداء، فيغدون من عمالقة مستبسلين إلى أشخاص خاملين، لا يتورعون عن أكل أي شيء، وإن كان ورق الشجر!؟

فيما أمضى الخباز ساعة السحر والفجر الأولى في إنجاز مهمته، كان الشريف يحاول إحياء اللحظات في مهمته المفضلة

على الجبهة، «النوم». فهذا الأخير تنتابك الحيرة وأنت تنصت لصاحب السيرة يتحدث عنه وعن مواقفه معه، فهو بالأمس أخره عن مقدمة الجبهة، واليوم سيبقيه فريسة للروس، فهل ذهب الشريف إلى أفغانستان لينام؟ أم أراد أن يطبق في سمو نفس وشجاعة أقرب إلى الحمق ما ردده المتنبي عن سيف الدولة[7]، ظناً منه أن خيال المتنبي الواسع يمكن تحويله إلى واقع ملموس، أو ترجمته حرفياً، مع عدو كالروس متفوقين في الشجاعة والعدة القتالية، ليس على العرب المفتقرين لأقل لوازم التدريب والتجهيز فحسب، وإنما على معظم أمم الأرض في ذلك الوقت؟

رغم كل ذلك يبدو أن الرجل نسي نفسه، وقرر أن ينام قرير العين على أنغام القذائف، وهدير الطائرات، وجهه وضاح وثغره باسم، وأحياناً عينه نائمة. هل كانت السكينة التي تنزلت على الشريف، وهو الذي يؤمن بكرامات الأولياء، ويأمل أن يأخذ من إرث جده النبي حظاً ولو يسيرا؟ أليس الله قد أنزل على رفاق جده في غزواته «نعاساً»[8] كبشرى أمان، وعربون مودة من الله للمؤمنين الأوائل، كما يتلو المسلمون في القرآن حتى اليوم؟

---

7 – المتنبي امتدح سيف الدولة بقوله: تمر بك الأبطال كلمى هزيمة... ووجهك وضاح وثغرك باسم.

8 – إشارة إلى قول الله تعالى في سورة الأنفال، عن غزوة بدر: إذا يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به... إلخ

كان المجاهدون الأفغان والعرب منهم تحديداً في تلك الأيام يحاولون جاهدين إعادة التاريخ إلى الوراء، بل وإنزال القرآن مجدداً ليس على ثرى المدينة المنورة ولا مكة المكرمة ولكن على شعاب وأودية أفغانستان، فينتظرون مدد الملائكة، وكرامات الصحابة، وروائح الشهداء، وتضحية المهاجرين وبأس الأنصار، حتى خلعوا على أنفسهم ألقاب تلك المرحلة. فهل كان كل ذلك أو بعضه أم الغرور ما دفع الشريف إلى النوم بكامل قواه على جبهة ساخنة؟

الأمر أبسط من ذلك بالنسبة لحفيد الحسن، فقد غلبه النعاس ونام بعد يوم مضن ومتعب، غير أن الروس كانوا له وللخباز وآخرين بالمرصاد، فما كاد نور الفجر يتمدد في الأفق حتى بدأت طائرات «الميج» الروسية في استعراضها ورقصتها البهلوانية على أول الجبهة وأوسطها وآخرها، في مهمة للتحرش بدفاعات المجاهدين كما اعتادت أن تفعل، واستطلاع الأهداف على الأرض قبل الكر عليها، فقد كان الروس أبطالاً، مهرة، شجعاناً، بشهادة المجاهدين أنفسهم. وعلى غير العادة انتهت مهمة الطائرات السريعة من دون أن تطلق عليها قذيفة واحدة، فوصلتها رسالة أمان واضحة، جعلت الطيارين الروس يوقنون بأن مهمتهم هذا الصباح ستكون أيسر من أي يوم آخر. فقرروا القرب من الأهداف في علو منخفض جداً، وربما هموا بالإنزال والقبض على المجاهدين بالأيدي، لولا أنهم يعرفون أن أسر المجاهدين عصياً، وقتالهم

أيضاً بالأسلحة الرشاشة ليس سهل المنال، فالواحد منهم لا يقتل في المواجهة المباشرة إلا وقد قدم لنفسه فداء من العدو.

حين انتهت مهمة الاستطلاع الأولى أدرك الشريف أن الساعة ستكون عصيبة، فقد سأل عن المدافع المضادة للطائرات وحتى «الآربجي» فقيل إنها جميعاً تم نقلها والمجاهدون انسحبوا البارحة قبل الفجر إلى نقاط أكثر أماناً، وهنا أيقن أنه إما مأسوراً، أو مقتولاً فاختار الأخير، وخرج من خندقه ونام على ظهره في منطقة جرداء حيث كان متحصنا في الخندق، الذي يخشى أن يتهشم من جراء القصف، وصوب رشاشه إلى السماء منتظراً من يقترب ليطلقه عليه قبل أن يؤسر. في دقائق هذه الساعة المتسارعة والروس يمشطون المنطقة بطائراتهم لم يكونوا يرون بدقة المجاهدين بأعيانهم، حتى أحسوا بمجموعة من البغال ترعى في الوادي، تفر إلى المقاتلين، بعد أن أرهبها صوت الطائرات الروسية، فعلم رجال الكرملين وهم الأخبر بالحرب، أن البغال ما كانت لتتجه ساعة الخطر إلا لأصحابها، فتتبعوها حتى وقفت على المجاهدين، فأطلقت إحدى الطائرات على ذمة الشريف مجموعة من القذائف، ظنت أنها قضت على من كان بالموقع، إلا أن قدرة الله أنجت الشريف منها، إذ تفرقت من حوله الشظايا يميناً ويساراً وأمامه وخلفه، وبقي ينظر إلى الطيار الذي اقترب كثيراً حتى رآه الشريف كما يقول، وتمنى أن يصفق له!

أما الشاب الخباز الذي لم تدفعه المعركة الدائرة للتوقف عن عمله كما لو كان يقاوم الروس بالعجين، فأُطلقت على القرب منه إحدى القذائف فسقط شهيداً وفي يده عجينة خبز، واختلط دمه بالدقيق، وأسلم روحه على بعد سبعة إلى ثمانية أمتار من الشريف. مات الخباز، فحل بالمجاهدين الموت جميعاً.

الخباز الشهيد!

انتهت المعركة في هذا المكان تحديداً بالنسبة للروس، فجعلوا يتتبعون الطريق الذي توقعوا أن يسلكه المقاتلون، لكن المجاهدين كانوا أخبر بالتضاريس فسلكوا طريقاً آخر احتموا به وانسحبوا إلى معسكراتهم على الحدود الباكستانية، فحملوا الخباز - الذي عزّ عليهم أن يتركوه وحيداً- على بغالهم وأكتافهم، يتذكرون مآثره وقد اكتشفوا أنه كبير المجاهدين وليس غيره، فقد ذاق الجميع مرارة الخوف والجوع بعد أن كان الشاب النحيل يكفيهم شر العدو الثاني فيما كانوا جميعاً عاجزين عن دفع شر العدو الأول عنه.

سلموه للموت وفروا بأجسادهم، فيما كان هو يقاتل حتى آخر لحظة لإنقاذهم. معادلة لم تكن منصفة، لكن المجاهدين الذين اعتادوا على التضحية في سبيل الله كما يقولون، اعتبروا المسألة طبيعية ولم يقفوا طويلاً عندها، فالأموات بينهم كثيرون

كل يوم وساعة والقافلة تسير، لكنهم فجأة اكتشفوا أن الميت هذا اليوم ليس كبقية الأموات، فقد أصابهم موته بالجوع الشديد حتى وصف الشريف اليومين التاليين بعد الخباز بأنهما الأصعب عليه في أيام أفغانستان لاجتماع الخوف والجوع على المقاتلين الذين يمشون على أقدامهم مسافات طويلة، لا قبل لهم بها وهم جوعى ولا يستطيعون الانتظار والطائرات الروسية والمنافقون لهم من كل جانب بالمرصاد، كما يقولون.

بل إن الشريف قال في خجل من نفسه وحديثاً عن اكتشافه وزملائه مكانة ذلك الشاب «في يوم وفاته بحثت عما آكل فلم أجد إلا بصلة فالتهمتها مع كسرة خبز ناشفة، كأنها قطعة حلوى، لكن للأسف حتى البصل لم يكن متوافراً»!

المفاجأة الأخرى التي كانت بمثابة رد اعتبار قوي من الله لهذا الشاب الذي سلمه رفاقه للمنية، أن المجاهدين اكتشفوا كما روى الشريف أن الرجل تفوح منها رائحة طيبة، وكل من مسه شيء من دمه وجد تلك الرائحة وكذلك من اقترب منه مسافة مترين أو ثلاثة، كما أنه ظل محمولاً لثلاثة أيام لا يتغير شيئاً من جسمه، وهو ما ظن المجاهدون وغيرهم أنه لا يحصل إلا للقلة جداً من الرجال المخلصين، أصحاب المقامات الكبيرة في التضحية والجهاد. فكان هذا الخباز الوحيد الذي ظفر بهذه «الكرامة» بين كل المقاتلين الذين رآهم الشريف بعينه.

ياله من خبازا! لذلك تفانوا في حمله حتى وصل إلى عشيرته ليروا بأم أعينهم ويفاخروا به القبائل والعشائر الأخرى، فدفنوه في قبر مميز ببيرق، في إشارة رمزية على أنه «شهيد» في سبيل الله.

مكانة الخباز جعلت صاحب السيرة يستذكر أقوالاً نبوية تشير إلى أن العبرة بالإخلاص في العمل لا بالدور الذي يقوم به المجاهد، بل قد يكون الرجل مجاهداً بنيته وهو في بيته ومع أهله.

ربما تكون حادثة «المجاهد الخباز» رسالة إلهية إلى كل المسلحين في الأرض، يؤكدها الواقع، هي أن العدو الأخطر للإنسانية جمعاء ليس الجنود الروس ولا الأميركيين ولا الصينيين ولا الأتراك أو العرب. إنه الجوع، الذي أخبر قائد المجاهدين الأوائل أنه قرين الكفر، أو كاد أن يكون نفسه الكفر.

غير أن الباحثين عما يعزز معنويات مقاتليهم لا يعنيهم أي معانٍ «فلسفية» لا يؤمنون بها أو لا يشاؤون الالتفات إليها حتى وإن فرضت عليهم نفسها. إلا أن الحقيقة الماثلة عالمياً، تقول إن قتلى الجوع ومعاناة الانسان منه أشد بأضعاف من قتلى وضحايا الحروب والكوارث الطبيعية مجتمعة، والواقع الملموس أثبت للمجاهدين أن موت عشرين من أشداء المقاتلين في المعركة، غدا أهون بكثير من موت «خباز» يُطعم الكل. وألف درس ودرس لقنها «المجاهد الخباز» رفاقه ومن وراءهم من الأمم لو كانوا يفكرون؟!

هل استوعب درس «الخباز» عالم آمن بالترسانات العسكرية عوضاً عن وسائل سلمية وقوات ناعمة، هي عملياً أشد تأثيراً وأقوى عملياً؟ وهل أدركه رفاقه بالأمس الذين تركهم خلفه متقلدين السيوف والخناجر والرشاشات والأحزمة الناسفة يقتلون ويفجرون، في حين لو تلقوا درس رفيقهم بإيمان راسخ، لرفعوا لواء «الخبز، والحكمة» كما فعل أجدادهم الأوائل الذين دانت الدنيا، لما أدخلت السكينة في قلوبهم، والخبز إلى ديارهم، قبل «الرعب والدم»؟

أميركا وحلف شمال الأطلسي والدول العظمى، التي تنفق ساعة كتابة هذه السطور على الجنود المدججين مليارات الدولارات، كان بوسعهم أن يلتقطوا حكمة «الخباز» حتى وإن كان في تصنيفهم عدواً، فالحكمة ضالة كل إنسان، يأخذها من أي كان. فهل لو خصصت تلك الدول عُشر موازناتها على الجنود المدججين في مساعدة الشعوب التي تحاربها، وتنمية البلدان المتهالكة بشراً وأرضاً سيتغير الواقع، ويعودوا منتصرين؟

وهل الدول العربية والنامية المتسابقة في تبديد ثرواتها في «مخلفات أسلحة خردة» أو في بناء مفاعلات نووية، لو خصصت تلك الأموال في تحويل بلدانها إلى جنات وأنهار ونماء ورخاء، ستحقق لبلدانها واقعاً أفضل؟

أم أن الشعوب الرافعة لواء السخط والتي تعبر عن غضبها بالنار والعجلات المحترقة والأحزمة الناسفة لو رفعت ألوية «الخبز» لحققت نتيجة أكبر[9]؟

المؤكد أن أياً من تلك الوسائل في الماضي والحاضر لم تخلف عماراً ولا سعداً ولا رخاءً. فألمانيا رملت أمماً من النساء في عهدها النازي، وأزهقت أرواح أعذب الأرواح، وأجمل الحسان، وألقت ملايين رجالها الأبطال الذين كانوا مثالاً بارعاً يثير الإعجاب والفخر في معارك أحرقت الأرض والنسل. اتبع الاستعمار بعدها النتيجة نفسها، ومن بعدهم الروس، ومن ثم بعض الدول العربية التي ضعفت عن محاربة أعدائها والخارج فوجهت بنادقها لشعوبها. وهاهم الأميركيون والإسرائيليون ساعة كتابة هذه السطور، يسيرون خلف خطى سابقيهم، في إيمان راسخ وشديد بـ«البطش والقوة»، وكفر صارخ صراح بـ «الحكمة والخبز»، وغدت البشرية من وراء هؤلاء وأولئك يأكل بعضها بعضاً، أو على الأقل لا يرحم بعضهم بعضاً.

أما التاريخ الذي يدرس في القوات العسكرية في كل العالم، لكنه لا يطبق إلا نادراً على أرض الواقع، فإنه يكشف أن

9 - من المفارقات العجيبة جداً أنني كتبت هذه الأسطر في فندق «أفريقيا» المطل على شارع «الحبيب بورقيبة» في تونس، عام 2009 وهي أول دولة ألهمت الثورة العرب في عام ثوراتهم 2011، فهل تسلل البوعزيزي إلى جهازي في الفندق وسرق حكمة الخباز؟ ربما!

«القوة ضرورية لردع المعتدين» في أضيق الحدود، أما الأصل فهو «السلام والتراحم»، وهما قوتان صنعتا العجائب في الماضي، لما اعتنقها رجال أقنعوا الناس بأفعالهم قبل أقوالهم بصواب مبادئهم.

في القرآن الذي يتلوه المسلمون حتى اليوم عشرات القصص الثابتة عن أمم الأرض من عهد آدم حتى نزول القرآن، تدافعت وتحاربت وتقاتلت، لكن النصر في كل حالة كان ليس من نصيب السيف والقتل، بل من نصيب «الضعفاء، الأقوياء بالحكمة». سيدنا آدم الضعيف، انتصر على إبليس الذي أغواه، بالحكمة والرجوع إلى الله وترك القوة جانباً، فانتصر بأن غفر الله له، وانقلب السحر على الشيطان فكان في الدرك الأسفل من الجحيم مع ذريته أبداً. النبي نوح تآمر عليه قومه أجمعين رغم إخلاصه الشديد لهم، فلم يؤمن معه رغم تكراره المحاولات بعد ألف عام «إلا قليل». كانوا أمماً، وهو بنص التنزيل لم يكن إلى جنبه إلا قليل. ومع ذلك انتصروا في النهاية.

سيدنا وأبو الأنبياء إبراهيم الخليل، الذي تحدث عنه الله بإطراء لو وزع على جميع أهل الأرض لوسعهم، قال عنه «أواه حليم»، وهما كلمتان تجمعان الخير كله، ولذلك كافأه الله بأن جعل الخليقة تهتف باسمه، وتفتخر به أباً ونبياً، مع أنهم إلا

القلة انحرفوا عن طريقه! هذا النبي لم ينتصر بجيش عسكري، فحين خلص قومه إلى أن الحل في التخلص منه كما يحاول بعض الأقوياء اليوم، وجه وجهه لفاطر السموات والأرض، فانتهت المعركة لصالحه. مثل ذلك كان مع بنيه الأنبياء من بعده: موسى وبني إسرائيل، فانتصروا على فرعون القوي. يوسف انتصر على إخوته الأقوياء وامرأة العزيز التي دبرت له المؤامرة بالحكمة والاقتصاد. كلمة الله وروحه عيسى ابن مريم، نصره الله على قومه حين أرادوا به السوء فرفعه الله إلى السماء، وترك قومه في الأرض آسفين ضالين. ابن إبراهيم خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم كان وحيداً بين عشيرته فنصره الله عليهم، بقوم يحبهم ويحبونه، دخلوا في دينه بالكلمة والحكمة لا بالسيف والخوف، كما هو موثق. ومن ثم نصره الله على كل أعدائه من قومه وأعوانهم الآخرين، في مقابل أعداد قليلة، كما لو أن دولة (البحرين) اليوم انتصرت على كل دول أميركا والاتحاد الأوروبي والجامعة العربية ودول الاتحاد الافريقي.

هذا التاريخ الموثق الذي تتفق عليه معظم الأمم الموحدة، وللوثنية تاريخ مشابه، ومثل متقاربة، لكن أكثر الأتباع ومن جاء من بعد النماذج الأولى، لم يكونوا مخلصين في تطبيق ما آمنوا به. ربما هذا ما أراد «الخباز» قوله على طريقته المميزة. سلام على روحك!

عودة الأبطال

عند كل الأمم في الماضي والحاضر، يجاهد القادة والنبلاء في مكافأة رجالهم المظفرين، والعائدين من مهمة قتالية صعبة، أو الأفراد المحققين لبطولات خاصة وخارقة، مثل الطيار السعودي الذي تمكن ببراعة نادرة، في إسقاط طائرتين عراقيتين في أقل من دقيقة، في مهمة أثارت إعجاب المشاركين مسلمين وعرباً وغربيين. وذلك أن الطيار كما يذكر الأمير خالد بن سلطان لبى النداء بعد أن تقاعس عنه طيارون من قوات التحالف في حرب تحرير الكويت عام 91 المكلفة بمهمة مراقبة الأجواء، لكنه عندما تلقى النبأ وأن طائرتين عراقيتين اخترقتا أجواء وطنه، وتوشكان على دك مقومات بلاده النفطية في المنطقة الشرقية، لم يجد تضييع ثانية واحدة في التفكير، فبسرعة شديدة رصد الطائرة الأولى ودمرها بضربة قاضية، لكنه تفاجأ بالثانية تتخلص من حمولتها، لتبدأ في المناورة، محاولة الثأر لأختها التي سقطت، غير أن الطيار السعودي لم يمهل الطائرة الثانية أيضاً، إذ صعقها في غمضة عين بصاروخ هشمها تماماً، ولما أبلغ قائد القوات المشتركة الأمير خالد بن سلطان الذي يروي بطولة الشمري بإعجاب سارع إلى تقليده وساماً رفيعاً في أثناء الحرب!

هنالك العشرات من الأمثلة والنماذج القديمة والحديثة على مكافأة الرجال المخلصين، لكن المجاهدين الأفغان لم

يكونوا في أغلب الأحيان ينتظرون مكافأة من أحد خصوصاً العرب منهم الذين يجيء أغلبهم بنفسه وأمواله، يتبرع بالأولى مقاتلاً، وبالثانية على نفقات إخوانه المجاهدين، أما الغنائم التي اعتاد المسلمون الأوائل على توزيعها على المشاركين في القتال، فإن معظم المجاهدين العرب يتنازلون عنها لصالح إعداد القوة لمواجهة الروس، وهذا ما فعله الشريف أيضاً عندما أبلغ بأن معركة «جلال آباد» ظفر منها المجاهدون بغنائم كبيرة، كان قيمة نصيبه منها آلاف الروبيات، وهو مبلغ كبير في باكستان وأفغانستان.

المكافأة الأكثر وقعاً في نفس الشريف وربما رفاقه أيضاً كانت في انتصارهم على الأقل ولو جزئياً في معركة غير متكافئة، وطردهم الروس من مدينة مهمة، كان لاحتلال المجاهدين لها يومين صدى إعلامياً كبيراً ومعنوياً هاماً في نفوس العرب والأفغان المقاتلين، وتمثلت المكافأة الأخرى في رؤيتهم بأنفسهم للكرامات التي قد تحدث للمؤمنين والمجاهدين، والتي كانوا يقرأون عنها في الكتب التراثية وما كانوا يتوقعون حدوثها على أرض الواقع في هذا الزمان المليء بالتناقضات حتى في أثناء الجهاد.

وإذا كان الجميع تلقى المجاهدين كافة بالأحضان، مهنيئن لهم بالانتصار ومشجعين، كانت الأحضان الأكثر دفئاً من نصيب الشريف وحده، الذي استقبله أسامة بن لادن بحرارة بالغة، جعلته يعانقه ويعانقه ويحتضنه بقلبه ويعاتبه «أين كنت؟ غبت طويلاً.

لماذا شاركت في القتال ولست معك. أريدك هنا في مركز القيادة والتوجيه»؟ ولشدة محبته إياه وحرصه على سلامته، لا يريد أن يقتل في سبيل الله كما كان يرجو لنفسه ولبقية المجاهدين، فكأن بن لادن لم يشأ أن يفجع عروسه الشريفة، في فقد أخيها الذي ستحمل هي ومن وراءها من أب وأم ذنب مقتله لأسامة بحكم أنه من ألقى به في حبائل أفغانستان وأغواه بجهادها وتضاريسها.

أما الشريف فإنه أراد أن يمارس على بن لادن الدور الذي مارسه عليه مرات عدة، فحين يشهد أي منهما معركة غاب عنها الآخر، يقوم الذي قاتل بتأنيب القاعد، في محاولة للحفز المتبادل، والتحريض المباشر على الاستمرار في الجهاد. فبعد أن انتهت المعركة وشعر الشريف بشيء من الفخر والرضى لأنه أصبح في عداد المجاهدين بأنفسهم، عاد إلى السعودية برفقة أسامة أيضاً، وجعل يقول له «فاتك نصف عمرك، إذ لم تشهد معركة سروبي في جلال آباد. كانت معركة حامية الوطيس، وظهرت فيها بطولات وكرامات... إلخ». لكن بن لادن سيرد عليه باللهجة نفسها حينما يشاء صهره أن يبقى في المدينة المنورة عاماً كاملاً لإتمام دراسته الجامعية متخلفاً عن الجهاد، وعن أسامة الذي سيقود أشرس معركة في تاريخ الجهاد الأفغاني، التي دعيت «مأسدة الأنصار».

نجم أسامة

أثناء ما كان الشريف في مهمة «معركة جلال آباد» مع الأفغان وترك بن لادن في بيشاور، لم يكن الأخير في نزهة، وإنما هو في ما يشبه مهمة سياسية معقدة وصعبة جداً، فبن لادن في هذا الوقت أيقن بأن أستاذه أو صديقه عبد الله عزام ما عاد يصلح الاعتماد عليه كلية في تنظيم شأن العرب القادمين إلى أفغانستان بحثاً عن الجهاد، ولم يعد يجوز أن يكتفي بن لادن بالقتال ببندقيته والتبرع بأمواله وأموال المحسنين السعوديين للشيخ عزام فقط، إذ لا حظ أسامة أن صديقه الذي تدفقت عليه الأموال بمبالغ طائلة، بدأ في إدارة الجهاد بطريقة لا تخلو من تمييز بين الناس، فهناك الشاميون قومه وعشيرته، وثمة السعوديون الداعمون، وهنالك بقية العرب والمسلمين. هذا التمييز وهذا التفريق بين أناس يفترض أن يكونوا جسداً واحداً وتذوب بينهم كل مؤثرات الاقليم والقبيلة والانتماء، لم يعجب أسامة الذي لم يزل فيما بدا على فطرته الأولى في السماحة والصدق في تحقيق هدف واحد هو «تمكين المجاهدين العرب خاصة من المشاركة في الجهاد الأفغاني بكفاءة وفعالية كبيرة»، وهو هدف يشاركه فيه عزام، غير أنه بدأ يتغير ويتأثر ببعض قومه القادمين لأغراض شتى.

زاد من تعميق الفجوة بين الرجلين، كما يروي الشريف أن بن لادن بعد تجارب عدة في القتال والمشاركة في المعارك، وخبرته الميدانية، أشياء لا يرضاها، فهو لاحظ أن الشباب القادمين من الخارج يلقى بهم في المعركة بلا أي تدريب يذكر، وهم بين الأفغان أشبه ما يكونوا بالمعزولين بلا تأثير وقد يكون بعضهم مهضوم الحق، ومهما فعل العرب في نظره على هذا النحو لن يكون لدورهم أي صدى أو أثر، يضاف إلى ذلك أن الرجل بدأ يشعر بالرغبة في التفرغ للعمل في أفغانستان، ولم يعد راضياً عن الاكتفاء بدور الممول كما يختصره عزام، فبدأ بن لادن يحاول أن ينتزع لنفسه دوراً يتناسب مع إمكاناته الضخمة، فيما عزام يجاهد في البقاء وحيداً رأس الجهاد والبقية تحت إمرته وتوجيهه، يضع كلاً في الموقع الذي يراه مناسباً بمن في ذلك بن لادن. وهنا وصل الرجلان إلى مرحلة فاصلة، وبدأت الحرب الخفية والنفسية بينهما.

سافر الشريف مع بن لادن وأثناء الرحلة من باكستان إلى السعودية كانا يتحاوران في هذا الموضوع، ويشكو بن لادن للشريف همه، ويسأله عن رأيه، تارة يختلفان وتارة يتفقان، لكن اتفاقهما فيما بدا هذه المرة كان أكبر، فالشريف منذ البداية لم يشعر بالرضى نحو أسلوب عمل عزام (نفسياً على الأقل)، فيما أسامة أصبح قد اتخذ قرار الانفصال عن صديقه، ومعالجة كل النقاط التي رآها مهمة بنفسه وليس عبر عبد الله عزام.

انقضى الوقت سريعاً بين إسلام آباد والرياض مع ثراء النقاش مع الأخوين أسامة وسعد، إذ يحاول الأول ما استطاع الاستئناس برأي الثاني فيما يدور بخلده من أفكار وهموم كلها أفغانية وجهادية، وإن كان الشريف يرى التركيز بخلاف أسامة على التربية والتعليم والتوجيه والإرشاد، بعكس أسامة المسكون بهاجس القتال والتدريب وتأسيس ما تبين فيما بعد أنه المجد الذي ينشده!

وصل الصديقان إلى المدينة واستمر الشريف في دراسته في الجامعة الإسلامية، وتجهز أسامة للعودة، لكنه لم يزل بعد ذاهباً وآيباً ولم ينقل أسرته حتى اللحظة إلى أفغانستان، التي يوشك أن يعتبرها أرضاً مقدسة جديدة، رغم المجد الذي تركه له والده في خدمة الحرمين الشريفين، الذين شرفت أسرته عبر مؤسستها العريقة «بن لادن» في عمارتها وخدمتها وأن في مقابل المليارات من جانب الحكومة السعودية، التي حفظت المؤسسة من الانهيار حين اختلف أبناء الأب من بعده، ومنعت عواصف الطمع من القضاء عليها. أما أسامة الذي كان في ذلك العام مشرفاً على مشروع إعادة بناء «مسجد القبلتين» غرب الحرم النبوي الشريف، فضحى بمجد عشيرته الديني والمادي في هذا المجال الذي ينظر إليه كل المسلمين بتقديس وتعلق، وسلّم مهماته في الإشراف على ترميم المسجد الذي يعد من أهم المعالم الأثرية

التي تسجل مرحلة مهمة من تاريخ الإسلام ومراحل التشريع في العهد النبوي، إلى أحد الأشخاص ورجع إلى أفغانستان هذه المرة بعزيمة وإصرار شديدين، ليبدأ في بناء أسطورته التي غدت فيما بعد مصدر إلهام للمجاهدين ومن ثم كابوس قلق للعالم أجمع، لم يسلم من لعنته حتى المسلمين والشيوخ والصبيان.

العرب الجدد

حتى هذه اللحظة عرف الأفغان العرب مجاهدين يستعينون بأموالهم، وترفع مشاركتهم الذاتية معنوياتهم في تحرير أرضيهم في أحسن الحالات، فحتى هذه المرحلة التي لا يذكر الشريف تاريخها بحكم اعتماده على ذاكرته، ظل عراب الجهاد العربي في أفغانستان عبد الله عزام يكتفي بالتحريض على الجهاد وجمع التبرعات المالية واستقبال العرب المنضوين تحت إمرته للمساهمة في القتال إلى جانب رجال الجهاد الأفغانيين بأحزابهم وأفكارهم وأهوائهم، إلا أن الأفغان سيكتشفون عما قريب وجهاً آخر للعرب، أو نجماً جديداً وإن بدت طموحه مقلقة لهم، إلا أنهم ربما باتوا قادرين على استيعاب أهميته بالنسبة إليهم، بكل صفاته الرمزية والمادية.

عاد أسامة إلى أفغانستان هذه المرة بطموح جديد ورؤية مستقلة بعد أن تمكن بدماثته النادرة ورومانسيته الفتانة من تحييد

شيخه وصديقه عزام ومحاولة تجنب الصدام معه على الأقل، بعد أن أوصل إليه رسالته الجديدة بأنه يريد إنشاء عمل خاص من نوع مختلف، يجب أن لا ينظر إليه عزام على أنه منافس أو خارج عن نطاقه ولكن إضافة إلى ما كان يقوم به وما يؤديه من دور، على أن يكون لعراب الجهاد العربي إلى جانب ذلك دور استشاري في ما بدأ به تلميذه الذي شب عن الطوق فجأة.

بنى أسامة استراتيجيته على محاور يختصرها معالجة ما كان يعتقده أخطاء شيخه عزام، أو إتمام ما فاته على طريقة المؤلفين والمحدثين الأوائل. فبدأ يحشد الإمكانات ويأتي بالآلات والعربات الثقيلة وأدوات شق الأنفاق والطرق، مستفيداً من خبرته حيث كان عاملاً ومؤثراً في شركة عائلته العملاقة في مجال المقاولات، والمتخصصة إلى جانب عمارة الحرمين، في شق الطرق والأنفاق وبناء المطارات والمدن العسكرية والمناطق الوعرة، ثم أسس قاعدتين الأولى سماها (العرين) على حافة الحدود الباكستانية في منطقة أكثر أماناً، وعلى بعد مسافة خمسة أميال أو أكثر بقليل، بنى ما يشبه القاعدة العسكرية له في منطقة (جاجي)، التي تعتبر النقطة الفاصلة بين حدود باكستان وأفغانستان، فهي على ظهر جبل ينظر إليه على أنه الحد الفاصل بين الدولتين، والشعبين المتجاورين. ففي المنطقة الأولى ركز على تهيئة أجواء مناسبة للإقامة والتموين وإعداد القوة، والتدريب

الأولي، والخنادق الحصينة، فأقام ما يشبه مملكة خيالية بالنسبة للأفغان الذين اعترضوا بادئ الأمر على كثير من خطواته مثل تمهيد الشوارع، إذ رأوا أن تعبيد الشوارع يسهل على العدو اجتياح مناطقهم في حال تمكن من هجمة برية واسعة على أرضيهم. وفي الثانية سخرها في التدريب الميداني القاسي والاحترافي على القتال وحرب العصابات والكر والفر، مستعيناً بخبرات أفضل الخبراء العسكريين العرب والأفغان الذين حاربوا سابقاً أو درسوا في كليات عسكرية.

كانت تلك خطوة كلفت بن لادن الكثير من الوقت والمال والجهد، إلا أنه فيما بدا كان يدرك سحرها الفعال في نفوس العرب، وعلى مستقبله الشخصي ومن ثم الجهاد الأفغاني، فسريعاً ما أذيع سر تأسيس العرب قاعدة أو معسكراً خاصاً بهم في أفغانستان، فبدأت بذلك أسطورة أفغانستان الفاضلة، فجعل العرب والمسلمون من كل جنس ولون يتدفقون على أفغانستان ويتوجهون إلى معسكر أسامة، حتى صنع منهم لواءً محترفاً أصبح يقود المعارك بمفرده أو بالتنسيق مع الأفغان ولكن في كل الحالات تحت إمارة عربية وتوجيه أسامة أو قواده الذين يطيعون أوامره وينفذون تعليماته.

أمر آخر عزز فاعلية معسكر أسامة وهو الاتصالات اللاسلكية التي بنى لها شبكة خاصة، فتمكن عبرها من تحقيق

توازن فريد في أفغانستان وتكامل بين عناصر قواته الاحتياطية والمرابطة. وهو عنصر لشدة أهميته كان أول عمل تقوم به أي قوة غازية هو الفتك بأجهزة الاتصال العسكرية اللاسلكية بضرب مراكزها لعزل أفراد القوات عن بعضهم، هذا الجانب كان شبه مفقود بين الأفغان قبل أسامة ربما لضعف إمكاناتهم أو لاعتمادهم آنذاك على المقاومة البدائية. هنا بدأ نجم أسامة يشرق حتى أصبح من بعد شخصية فاتنة، قبل أن تلوث سمعته فيما بعد الجهاد، بالإرهاب وسفك دماء الأبرياء.

عندما يأتي مثل الشريف أو آخرين يجادلون أسامة في خطوته الاستقلال عن الأفغان، يمارس مع من يشاء لعبته المفضلة في الإنصات والسكوت، ومع من يشاء يبرر خطوته بالهروب إلى التراث بما ورد في السيرة النبوية بأن خاتم الأنبياء كان يقيم لكل قبيلة لواء وراية تقاتل تحتها، ليكون ذلك أكثر تحريضاً لها على القتال والبأس، فعلى أرض المعركة يحاول كل طرف أن لا يكون الانكسار من جانبه. هذا التبرير كان من السهل أن يقنع رجالاً أتوا أساساً مناصرين للأفغان اقتداء بالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار في المراحل الأولى من تأسيس الدولة الإسلامية، لكنه فيما بعد انكشفت آثاره الفتاكة ليس في أفغانستان وحسب ولكن في العالم كله.

لكن أسامة أثبت في اختيار التوقيت والتجهيزات العسكرية للعرب وللأفغان وللروس أيضاً بأنه قائد عسكري مؤثر. فلم تمض أشهر على تأسيسه عالمه الجهادي الذي أطلق على كل جزء منه اسم تراثي حساس مثل بدر وأحد والطائف وقباء، ليشعل به الحماسة في نفوس رجاله، حتى نشبت معركة عدت فيما بعد «مجد العرب الأهم» في كل أفغانستان، والذي رد لهم الاعتبار، وأشعر الحلفاء والأعداء معاً بأن دور العرب مؤثر وفعال.

فبينما كان الشريف منهمكاً في دراسته جاء بن لادن بعد غياب طويل يحمل إليه بشائر النصر في معركة «مأسدة الأنصار» التي قادها أسامة بنفسه، ويزهده في الدراسة قائلاً «ايش الدراسة، ايش الهراء؟ لست في شيء، أتشغلك الدراسة عن الجهاد، فاتك نصف عمرك». وربما ذكره بتلك الأبيات التي أحياها المجاهدون مجدداً في حرب أفغانستان حول الفارق الكبير بين الجهاد وسائر العبادات، في رسالة عبد الله بن المبارك في القرن الثاني الهجري إلى عابد الحرمين الفضيل بن عياض، إذ خاطبه معاتباً إياه في التفرغ للعبادة والقعود عن الجهاد قائلا:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمت أنك بالعبادة تلعب

روح العبير لكم ونحن عبيرنا رهج السنابك والغبار الأطيب

وعلى عادة بن لادن صاحب الرومانسية التي لا تقاوم، أغرى الشريف مجدداً على قطع دراسته والتوجه إلى أفغانستان معه، وهناك شرح له على أرض الواقع، كيف كانت المعركة، وكيف قادها وانتصر، ومن خذله ومن وقف إلى جنبه.

وكانت الحادثة كما روى الشريف أن قائد العمليات الروسية في أفغانستان أعلن صرخته عبر وسائل الإعلام وكشر عن أنيابه وتعهد بإجهاز لا رحمة فيه على المجاهدين الأفغان والعرب خصوصاً الذي لا بد أنه تعرف عبر استخباراته على تنامي قوتهم على القرب من الحدود، ووصلته تقارير عناصره الذين يسمون المنافقين من جانب الأفغان على التطورات الجارية على الأرض فيما خص أسامة ورفاقه، وكان ذلك في مراحل الجهاد الوسطى، قبل أن تستنزف قوة الاتحاد السوفياتي وفي حين من الشعور بأن النصر إليها أقرب من الهروب المذل والهزيمة التي سطرها العرب بأحرف من الفخر.

أعلن القائد حملته واختلف المجاهدون الأفغان على مذاهب ورؤى، فكان الأفغان ومن معهم من العرب يرون تحاشي استفزاز الروس بقوتهم المتفوقة ورجالهم المدربين جيداً، والرجوع إلى الخلف، حتى يختبرون النوايا الروسية، فإن اقتصرت الحملة على الضربات العسكرية قاموا بعد انتهائها بهجمات

نوعية، وإن زحفوا برياً ووصلوا قريباً من الحدود الباكستانية قاومهم المجاهدون بوسائلهم البدائية، كما لو كان الأفغان لا يريدون الدخول في مواجهة مباشرة مع الروس قبل استدراجهم في المعارك البرية التي دائماً تحسم لصالح المجاهدين بحكم خبرتهم بالأرض، وقدرتهم على التحصين بالجبال التي كانت خير مساند لهم في مقاومتهم غير المتكافئة.

غير أن أسامة الذي لتوه أنجز مملكته الجهادية، لا يرى تجنب الدخول في معركة كهذه إلا نوعاً من الجبن وتراجعاً عن الهدف الذي جاء والعرب من أجله وهو قتال الروس، كما أن انسحابه من منطقته وتركها للروس وهي بعد لم تزل عذراء، سيلحق به عاراً لا يقوى على تحمله، وربما فكر في العاقبة والنتيجة التي سيقتطفها إن انتصر ولو إعلامياً في المعركة المرتقبة بعد أن يقودها وتسجل باسم العرب تحت قيادته. المهم فيما جرى أن بن لادن رفض الانصياع لنصائح الأفغان وبعض العرب كعبد الله عزام وغيره، بعد فترة من بدء الوعد الروسي القاسي الذي أحرق الأرض والغابات بالنيران والقذائف فلم يبق شيئاً يستر المجاهدين عدا الحصون والجبال التي تعرف الروس جيداً على مواقعها وبدأوا يقصفونها واستيقنوا أن العرب باتوا هدفاً سهلاً، فبدأ زحفهم البري وإنزالهم الجوي، لتمشيط ما تبقى، وهنالك كان لهم العرب بالمرصاد بقيادة أسامة، فأبلوا بلاءً شديداً.

ضربة قاضية نحو أسامة

مرت على أسامة ومن معه لحظات حالكة من الحصار والهلاك، إلا أن إيمانهم بما يقومون به جعل الصبر إليهم أحب من التراجع والإنسحاب، حتى إن أسامة نفسه كاد يقتل، فهو في خيمة القيادة أحس وزملاءه في ضحى أحد الأيام بحركة تبين فيما بعد أنها لأفراد من المارينز الروس فأرسل ثلاثة من المقاتلين يترصدون الحركة لكنهم تأخروا عليه فخرج هو ببندقيته ليرى أين زملاءه فهو لا يشك في أنهم أحياء بدليل أنه لا يسمع أي إطلاق للنار، فخروجه كان فقط للإطمئنان ولم يكن للمشاركة في القتال أو الخوض في معركة في هذه اللحظة، ففوجئ بثلاثة من الجنود الروس وجدهم أمامه بغتة ما جعله يوقن بالموت أو الأسر، فلم يتمكن حتى من إشهار بندقيته فأطلق عليه أحدهم قذيفة من سلاح «ركيت آربيجي»، إذ طمعوا في قتله ومفاجأة من معه بدون معاناة تذكر.

لكن بن لادن الخبير في الحرب، تصرف سريعاً ونحى كتفه عن الطلقة فلم تصبه، وكل ذلك وزملاؤه ينظرون، فهم بعد أن أرسلهم رصدوا موقع الروس وكمنوا لهم في موقع محدد ليتمكنوا من أسرهم، لولا أن خروج أسامة المفاجئ أربك خطتهم فهم إما أن يقتلوهم أو يقتلوا هم أسامة. في هذه الثواني التي تنحى فيها

بن لادن عن الطلقة أفرغ المجاهدون رصاصاتهم في قلوب الروس وأردوهم قتلى، فنجا أميرهم بأعجوبة.

وحدثت في المعارك مواقف شتى وأخطار كثيرة جعلتها نقطة تحول في الجهاد العربي الأفغاني، ففيها بزغ نجم أسامة عربياً وعالمياً، وفي المعركة نفسها انكشف الأفغان والعرب جميعاً عن أسامة ولم يثبت معه إلا مجموعة قليلة من العرب وأغلبية من السعوديين والمصريين.

هنالك توطدت علاقته بالمصريين فبدأ يقربهم ويعتبرهم خاصته، فالشوام ومن معهم من العرب أحبوا عزام وبقوا معه وضد أكثر توجهات أسامة، فيما السعوديون لا يطيعون أسامة في كل شيء، إذ يعتبرونه شخصاً عادياً لا يفضلهم في شيء، ليجد ضالته في أناس يزعّمونه ويفخمونه ويبجلونه، هم المصريون، وهو ما كان يفتقر إليه وينقصه آنذاك، بل حتى الشريف الذي زوجه من أخته وسيصبح هو الآخر صهراً له، لم يشأ أن يستسلم لطموحاته في الزعامة والقيادة فدائماً في نقاش وسجال واستقلال عن أسامة، جعل الأخير يقتنع أخيراً يقترب كثيراً من المصريين الذين اشتهروا بإمكاناتهم الجيدة في التعظيم والاهتمام بمن يرون مصلحتهم مرتبطة به، بل يحاولون احتكاره والسيطرة عليه.

إلا أن بن لادن كما يشهد الشريف ظل في أيامه الأولى فاتحاً مشروعه وقلبه لكل العرب والمسلمين، ولم يكن عنصرياً أو

اقليمياً، إلا أن انتهاء الجهاد وتفرغ المصريين لمجادلته وإقناعه سيجعل زعيم تنظيم القاعدة ضحية أخيرة لما سخر نفسه في الماضي لمحاربته وهو التكفير والكره والعنصرية، إذ كان بن لادن في عهد الجهاد الأفغاني بين أكثر المقاتلين نزاهة في المعتقد وعفة في اللسان واليد، وما كان يسمح بشتم الحكام أو سب أحد، فقد كان متسامحاً غير أيديولوجي، يختصر همه في «الجهاد» الذي اعتبره قضيته، ويراه شعيرة إسلامية لا بواكي لها.

وفي هذا الجانب كان واضحاً أنه منذ الأيام الأولى أنه ليس مقاوماً للسوفيات وحسب، فهمه حمل ما يعتبره رسالة «الجهاد»، إذ حسب فهمه وهو غير المتخصص في الشريعة أن الجهاد معركة لا تتوقف أبداً، ولا بد أن تكون قتالاً وسفك دماء. وهي نقاط ستدفعه في نهاية المطاف إلى الانحراف بعيداً عما خطه ابتداء لنفسه، كما ستجعل نصفه الآخر وصهره وأحب الناس إليه الشريف، يتخلى عنه، ليواجه قدره المحتوم!

بعد معركة «مأسدة الأنصار» بدأ الرجل الخجول والرومانسي الصموت يتطلع للأضواء ويبحث عن الجماهير، ويطرب للحديث عن الجهاد وصدارة المجالس والمنابر، بعد أن ذاق طعم الشهرة التي تختصر سر افتتانه وإغواء أفغانستان له كما يجمع العارفون به. أما الشريف فإنه لاحظ أن أسامة جديداً بعد في التشكل من شخص أسامة القديم الذي أحبه «كنت أحذره

من الظهور لاعتبارات شرعية وسياسية وجهادية كلما همّ بالإقدام على خطوة لا أراها مناسبة، أو كلما طلب مساعدتي في ترتيب أفكار أو اقتراح محاور لمحاضرة يلقيها في مسجد أو في محفل، وكان يجادلني بأنه لا يجد من يقوم بالنيابة عنه بما يتحدث عنه عن فضل الجهاد وفتوحات الله على المجاهدين، لكنني رغم ذلك لم أكن أشد في سعيه للأضواء رغم ذلك، وكنت أقلل من جدوى الظهور بحكم أنه يقلل من إخلاصه ويعرضه للفتنة، وهو حينما بدأ نشاطه لم يكن يسعى لتحقيق مجد أو مكسب شخصي، فلم يكن يرضيني ما كان يقوم به، فهناك الكثيرون جاهدوا مثله ورجعوا لأوطانهم ولم يعد أحد يذكر حتى أسماءهم ولم تلتقط صورة واحدة لهم، فأنا مثلاً رغم محاولاته المستميتة في أن أظهر في الصورة أو أتولى القيادة أو أحاضر إلا أني رفضت كل ذلك قطعياً لأن المناصب والنجومية فتانة والحي لا تؤمن عليه الفتنة ومداخل الشيطان كثيرة»[10].

تلاحظ المرارة بادية على كل ملامح الشريف وهو يضطر بعد إلحاح شديد من الكاتب على إبداء ما كان يدور بخلده حول نصفه الذي يستدعي ذكره باستمرار لحظات ومواقف وأيام

---

10 – هذا مدخل أراد الشريف بذكائه أن يستغله لرفض نشر المذكرات، فقال ربما أقع فيما رفضته من قبل. وأنا أرد عليه بخبثي الصحافي: ومن سواك يقول الحقيقة؟ وهنا فرصة للشهادة بأن الشريف رغم اختلافه الشديد ورفضه لمسلك بن لادن كان من أشد من رأيت وفاء لصديقه، فكان متعباً في هذا الجانب، فكل نقد يفسره بأنه خيانة للصداقة القديمة، واستغلالا لكرب الرجل، هذا في حياة أسامة، أما بعد ذلك فمهمتي في إقناعه كانت أكبر. والله أعلم أينا على الصواب.

وليالي، لا يملك سعد ساعة تذكرها إلا إرسال الدمع هتاناً، وسؤال الله العافية. فالرجلان اللذان ما كان يفصل بينهما على طول عقد من الزمان وأكثر إلا النوم أو السفر الذي كثيراً ما يترافقان فيه، ها هما اليوم كل منهما في طريق مضاد للآخر، وربما لو يسع أحدهما إلحاق الأذى بالآخر لفعل!

إلا أن النصف سعد لم يكن كما يقول مثل النصف أسامة فالأول فعل ما بوسعه نصحاً لنصفه الذي أحبه وأخلص له كثيراً، ولكنه عندما أصبح مقتنعاً بأن نصفه الآخر أسامة تقمص شخصية أخرى وأصبح قلبه بيد أخرى، وما عاد يملك من أمره شيئاً، لا أجد مبرراً لإهلاك نفسي معه حين فشلت في إنقاذه. أما النصف الثاني فشعوره قد يكون مماثلاً وربما كان شيئاً آخر.

ولكن حين أسأل الشريف بعد أن فتحت معركة النجومية أسئلة كثيرة حول نفسه عما إن كان يشعر بالذنب وهو يرى أسامة يسير في طريق المهلكة ولولا فراقه إياه في القصة التي سيرويها لأمكنه إنقاذه ربما وإنقاذ العالم معه من حماقاته، يقول سعد: «قمت بما أنا مطمئن بأنه يبرئ ساحتي ويرضي ضميري نحوه، فلم أبخل عليه بنصح ولا إخلاص منذ اليوم الأول، حتى ساعة أدركت فيها أن القواسم المشتركة بيننا جميعها غدت قواسم اختلاف فنجوت بنفسي وربنا يهديه، وأنا لم يفاجئني ما انتهى إليه، فسبحان الله قد حذرته مما حصل، لكن الهوى يعمي، مع أن أسامة والحق يقال

كان في بداية أمره رجاعاً للحق إذا تبين له واقتنع، وهو في الوقت نفسه عنيد وجد عنيد». ما تحسه من الشريف ولا يقوى على قوله أنه متألم على فقد أسامة وبطبيعة الحال أخته، لكن ألمه الأكبر كان على تحوّل شخص كان مثالاً للاستقامة والاعتدال والنزاهة، عن الطريق الذي تقاسما عليه.

وبالعودة إلى أجواء ما بعد «مأسدة الأنصار» يروي الشريف: بعد الصدى الكبير الذي تحقق للعملية والهالة الاعلامية التي أحيطت بها عمداً أو بدعوى إسناد الجهاد بشكل عام، بدأ أسامة جديداً في الظهور إلى السطح، فصار يدعى للمحاضرات والمنتديات والمساجد ويلقي المحاضرات ويتكلم فيها عن الجهاد والوقائع والخروقات التي حدثت له ولمن معه في المعركة، وبات الطلب عليه كثيراً فهو إلى جانب كونه «ابن فلان» الذي عرف بفضله، أضاف إلى ذلك أنه أصبح خطيباً وشيخاً يعلو المنابر ويحظى بالتقدير والاهتمام خصوصاً عندما يعرج على تجربته الشخصية في الجهاد. وبين أول المحاضرات التي ألقاها كانت في مدينة جدة بين يدي الشيخ عبد المجيد الزنداني وسجلت حضوراً ملفتاً كما سمعت لكنني لم أحضرها لأنني كنت ضد ظهوره وصارحته قائلا: أخشى أن يقصم هذا ظهرك، ويقول من يتصدى لهذه الأمور والناس في حالة تخاذل وهذا تبريره.

وفي المحاضرات أتعاون معه في ترتيب الأفكار من الناحية الشرعية، وكان يلقي محاضرات في مناطق أخرى، في توجه واضح منه إلى محاولة توسيع نشاطه الخطابي، ما دفع الجهات الرسمية إلى ملاحظة بداية تحوله فشرعت في التضييق على هذا المجال، ربما لأنها لا تريده أكثر من مجاهد في ذلك الوقت، أو لأنها لا ترى له كفاءة شرعية تؤهله لنشر المفاهيم الشرعية حسب رؤية المؤسسة السياسية الرسمية.

وفي إحدى المرات قررنا السفر إلى باكستان فدعي إلى محاضرة في الظهران (شرق السعودية) على أمل أن ينتهي منها ثم نتوجه مباشرة إلى إسلام آباد من هناك، وكانت عنده أخت هناك نزلنا عندها، فلما حان موعد إلقاء المحاضرة ذهبنا إلى المسجد فإذا هو ضخم جداً مليء بالناس، ومواقفه مهيبة لكثرة السيارات التي اكتظت به. دخلنا المسجد وصلينا فيه المغرب، وقبل أن يذهب لإلقاء المحاضرة فوجئنا بإمام المسجد يعتذر إلى الجموع الحاضرة، وهو يبلغها أن المحاضرة ألغيت لأسباب لم يعلن عنها لكنها مفهومة، ولم ينس خلال اعتذاره شكر أسامة الذي كان واضحاً أنه ليس السبب وراء إلغاء المناسبة التي تهمه قبل أي أحد. عدنا إلى منزل أخته ثم سافرنا في الغد، لكن قبل سفرنا حدث أمر مهم وهو تنافس حميم استمر حتى بعد ذلك بين شباب الشرقية وجدة والرياض والذين أتوا من كل أرجاء المملكة

في تقديم المساعدات المالية لدعم المجاهدين، والتي كان أسامة يومئذ أكثر المؤتمنين عليها وإن لم يكن القناة الرسمية.

الحاصل أننا سفرنا وعدنا إلى أحاديثنا الشخصية التي لا تخرج عن الجهاد وبعض الهموم المشتركة بيننا وما أكثرها، فبعد زواجه بأختي وتوطد علاقتنا في أفغانستان، صار هو مشغول بالكيفية التي يستطيع عبرها رد الجميل لي فصار يعرض عليّ أن يزوجني إحدى أخواته أو قريباته فرفضت، لكنه ظل مصراً على أن يكون بيننا نسب، لتكون صحبتنا أوثق ومحبتنا أكبر. واستغل هذه السفرة ليعيد العرض مجدداً خصوصاً وأنه بدأ يلحظ هدوءاً بدأ يتسرب إلى علاقتنا بعد ما صارحته بأني لست مرتاحاً لحكاية الظهور والتصدر، فليست تلك مهمتنا. لم نصل إلى باكستان حتى قدم لي خياراً آخر للزواج من إحدى قريباته وهي «ابنة أخته»، وجعل يعدد لي ما تتميز به من أشياء يرى أنها ترغبني فيها. وكان له ما أراد، فما زال بي حتى أقنعني بالموافقة على المبدأ، وانتهى المطاف بي إلى الزواج بالفتاة، وهي أم محمد التي أحدثك الآن من منزلها، ورزقني الله منها ابنة وأربعة أولاد والحمد لله.

فهمت إصراره على إتمام هذا المشروع، لأنه يريد أن يجعلني أقرب مخلوق إليه، فحاول أن يعزز ذلك بكل ما أمكنه من وسائل. هل كان حرصه من باب رد الجميل، أو المحبة الخالصة أو

يريد أن يتمسك بي كأخ لم تلده أمه؟ في تقديري كل تلك الأسباب اجتمعت. كان رجلاً وفياً، ويعرف كيف يقرب المرء إلى نفسه حين يقتنع بذلك.

مغامرات شبابية مع بن لادن

ومن العجيب الذي أعادتني إليه هذه القصة، أن أسامة كان لا يحب السرعة بجنون مثلي، فهو وأنا كنا جميعاً من سكان المدينة ونسافر إلى جدة حيث أمه وبعض أفراد عائلته وكذلك خطيبتي أنا فيما بعد، فكنت أبالغ في السرعة على خلافه، لكن العقبات جميعها كانت في تلك الأيام لا تزيدنا إلاّ تلاحماً وتواصلاً. كانت علاقتنا جدا قوية وكان لا يفرقنا إلا النوم. كنا نخرج من المدينة أحيانا اشتياقا للخيل في أوقات مختلفة وهذا من وقت معرفتي به حتى سافرنا إلى أفغانستان. وكانت له مزرعة في منطقة قريبة من جدة يقال لها «البرود»، مساحتها كبيرة جداً، أقدرها باثني عشر كيلو متر مربع، وفيها خيل وحياته الخاصة التي كانت مما يستهويني رغم خلوها من البذخ وحياة أبناء الذوات والأثرياء الذين كان أبوه أحدهم.

وفي منتصف الشهور القمرية كانت فتنة الموقع لا تقاوم، فكنا نقضي لياليها بين النوم على الرمل وركوب الخيل، إذ كانت تلك بين أهم الهوايات لدى أسامة. فهو طويل القامة، يعشق الخيل

العربية الأصيلة، ويحب أي شي عربي وخصوصاً شعر الحماسة والفروسية، كشعر أبي تمام والمتنبي وأبي فراس الحمداني، ولشدة حبه للتراث العربي كان يحمل أبناءه منذ فترة مبكرة على قسوة الحياة، ويردد معهم أمثال العرب وأشعارها وقيمها. كان رجلاً يتنفس أصالة وعروبة.

وفضلاً عن ركوب الخيل، نقضي معظم الوقت في المسامرة والمحاورة والمذاكرة والطبخ، وعمل «البروفات» لأي عمل يحضر للقيام به، خصوصاً إذا كان عملاً فيه شيء من المغامرة والتحدي والمتعة.

وأذكر أنه كانت لأخيه مزرعة أخرى في «بحرة» (مدينة بين جدة ومكة)، وله فيها خيل شامخ أصيل لم أر في حياتي أجمل منه، واسمه (بدر) من سلالة قحطانية يبدو أنه هُجر طويلاً ولم يتعرض لأي نوع من التدريب، فقال لي: انظر إلى هذا الخيل أتحداك أن تركبه! فقلت له بعد أن تركبه أنت أنا أيضاً أتحداك وسأركبه. عندها سأل أسامة السائس (القائم بأمور الخيل) قائلاً: كم لهذا الخيل لم يركب؟ فرد عليه السائس: هذا لايستطيع أحد ركوبه، لأنه من أصل عربي شرس، ودخل عليه السائس ومعه عصا وإذا بالخيل يكسر العصا برجله. حاول أن يلبسه اللجام بكل الحيل ولكن السائس لم يستطع، فخضنا جميعاً

معه (بدر) معركة استمرت لنصف ساعة، تمكنا بعدها من تلبيسه اللجام. ولأن المعركة تمت رغم كل ذلك في حلبة مقفلة أخرجه أسامة من الحلبة، ثم قال لي اركب، فقلت له اركب أنت، وبالفعل استغفل الخيل ثم وثب عليه، وجعل يصول به ويجول حتى طاف به الاستراحة نحو ست مرات حتى تعب الخيل واستسلم تماماً، ثم نزل وقال لي اركب مجدداً فركبته أخيراً، فإذا هو كالحرير في استواء مشيته.

كانت الأيام التي نقضيها في تلك الاستراحة من أجمل أيام الحياة مع أسامة، فسوى الخيل كان مولع بالنوم على الرمل، وكثير الميل للتقشف ليس عن بخل وإنما لفلسفة آمن بها وطبقها على نفسه وأبنائه. كان رغم ذلك في كل تصرفاته عنيداً، وفي الوقت نفسه رجاع للحق إذا تبين له وتأكد منه. وأنا في أن العناد هي مشكلة العرب الأزلية كما يبدو في شاعرهم القديم: ألا لا يجهلن أحد علينا // فنجهل فوق جهل الجاهلينا. وحتى في المدينة لنا الكثير من الرحلات في الجبال والواحات، لكنها كانت حياة طبيعية لا أذكر شيئاً منها يستوقفني.

أجمل هذه الأوقات نقضيها في السعودية، أيام كان الجهاد يتوقف في أفغانستان بسبب وعورة الجبال التي تصبح كلها ثلوجاً، إلا أن معظم هذا النوع من الحياة الطبيعية، تغير بعد معركة «مأسدة

الأنصار» في حدود 87م من القرن الماضي، فبعدها انتقل أسامة من المدينة إلى جدة، وأصبح كثير البقاء في أفغانستان، وكنت أنا أذهب إليه في جدة على شكل زيارات متفرقة، إذ كنت مرتبطاً بالدراسة في الجامعة حتى عام 1407هـ الموافق لـ 88 من الميلاد.

وفي تلك المرحلة كانت لنا الكثير من المغامرات التي أعود إليها أحياناً فأتذكرها بشيء من الحنين، فكنا أحياناً نذهب من المدينة سوية إلى جدة ونعود في اليوم نفسه والعكس صحيح. ولما بدأ موضوع الزواج بابنة أخته يتبلور في تلك المرحلة نصب لي فخاً ذات مرة وكلم أخته بلا سابق تنسيق معي، وقال لها: سأصطحب معي رجلا يريد رؤية ابنتك، وكانت في صف أول ثانوي وهي صغيرة فقلت له إنني لم أكلم أحداً ولم استعد وجئت من المدينة بثوب واحد، وركبنا الخيل بالثوب نفسه! وصلنا العصر والموعد بعد المغرب عند أخته. قلت له هذا ثوبي متسخ كيف لي أن أذهب عند الناس؟

رد عليّ ببرود: اخلع ثوبك الآن ثم ذهبنا إلى أمه فأخذ الثوب وأدخله في البيت فغسلوه وكووه، ومع المغرب كان جاهزاً، إلا أن لوني صار أحمر من الشمس والإعياء بسبب ركوب الخيل، وعيني حمراء من الإرهاق فمنذ الصبح ونحن هكذا في طبخ وعمل وغير ذلك. الشاهد ذهبنا وقابلونا وكان يوجد أبوها وعمها، إلا أنه

لم يخبر البنت بالموضوع، فقالوا تراها في وقت آخر، فكان ذلك مخرجاً لي من الورطة التي أوقعني فيها. وبعد حين عدنا بطبيعة الحال، فتم المراد.

ثمن النصر

من الناحية الواقعية بعيداً عن الرومانسية والأهداف الإستراتيجية لأسامة في الزعامة وطموحات صناعة إمبراطورية جهادية تتلوها أحلام وردية بمدينة الاسلام وليس أفلاطون الفاضلة، بعيداً عن هذه النوازع كان ثمن «الانتصار» على الروس أو ما سمي «مأسدة الأنصار» التي ضخمت أضعاف حقيقتها في الأوساط العربية والإسلامية وفي السعودية على وجه الخصوص، سوى نظرة هذه الشريحة من الناس كان ما اعتبر انتصاراً على الروس «فتنة» للشباب في العالم العربي دفعته إلى السقوط كما يرى الشريف في أحضان الحلم الأفغاني، على نحو ما كان خافياً على الشريف في حينه آثاره وأوزاره.

لكنه كان يعلل نفسه بأن الجهاد يمحص، فما إن هاجت المنابر وخطب الجمعة ووسائل الإعلام من نشرات وأشرطة رافعة من شأن العرب والمعركة التي كسبوها حتى تدفق الشباب الصغير والبعيد عن التدريب والاستعداد النفسي والشرعي لباكستان وأفغانستان، بالرغم من أن الجهاد عملياً شبه انتهى أو كاد، وأصبح

الروس في حال تراجع واضح وربما إعلان غير مباشر للرغبة في الانسحاب، لكنهم أرادوا التمهيد له بتأديب العرب والأفغان المقاتلين، ومن ورائهم الغرب جميعاً.

إلا أن الشبان المتحمسين الذين ملأت المثاليات التي لا تعكس كثيراً من الواقع فيما سمعوه عن معارك أعادت إلى أذهانهم عهد الصحابة والتابعين في التضحية والكرامات والجهاد، جعلوا يتركون كل شيء ويضحون بأهم الأشياء، ويستعجلون الفناء والشهادة ولقاء الله على أرض أفغانستان، فجاء من كل أقطار العالم فئات من الأعمار كافة، على حين كانت الإمكانات من الناحية المادية على الأرض أقل بكثير وأضعف من استيعاب هذه الموجة من الهجرة الجهادية، رغم ما أقر به الشريف من أن الإمكانات في هذه المرحلة بعد استلام بن لادن أو انتزاعه للزعامة كانت في ذلك الوقت أفضل بكثير من وقت سبق بفضل قدراته الشخصية ومصداقيته العالية في ذلك، إلا أنها تبقى محدودة وفي بداية التشكل، ما أفرز حالة من التخبط على الأرض.

وذلك أن بن لادن الذي يعبر البلاد ذاهباً وآيباً مبشراً بانتصاراته إلى جانب عزام وآخرين فيما يشبه جولات السياسيين في الأسبوع الخير من الحملات الانتخابية، وإن فجروا في النفوس ثورة الرغبة في القتال أفغانياً إلا أن النتيجة كانت كارثية بكل

المقاييس، حسب ما يفهم سامع الشريف، وهو يسرد المصاعب والشتات وفقدان الرؤية الاستراتيجية أمام المشهد الذي أغفل تاريخه الرومانسي كثيرين عن قراءته ونقده حتى تكرر بالوتيرة نفسها في مراحل تالية.

المولعون بالتجربة الأفغانية والمعجبون بها حتى بعد أن غدوا ضد عناصر فيها مثل التحول الفكري نحو التطرف لبعض المشاركين فيها، يغيب كثيراً بين الكتاب منهم والراصدين وكذلك النقاد، الفطنة إلى أن الناحية الفكرية لم تكن الخطيئة الوحيدة التي عادت بها المرحلة على الشبان في العالم العربي والاسلامي، ولم تعكس حماسة وتخبط هذه الشريحة وحدها، ولكن إلى جانب كل ذلك فضحت مبكراً استغلال الشعارات والدين وبراءة الناس، للعبور إلى نهر الزعامة وإحراز النجومية والبطولة وإن على خشبة مسرح مبني بأشلاء وأعضاء الصادقين المخلصين.

والأخطر في هذه الجزئية في نظر سعد أن الدرس لم يستوعب بعد والخطأ تكرر، وما حدث من بعد المد الأفغاني لم يكن محتاجاً لجهود خارقة أو ألمعية ذكاء مذهلة حتى يُدرك، فهو واضح لأبسط المستقلين، حتى من بعض من مسهم طائف من سكرة السحر الأفغاني ساعة من نهار، فالكثير من الشبان في العقد الثاني من أعمارهم بين 18 و 25 عاماً وأقل وأكثر. الأميون كان هنالك. المتعلمون على مذاهب ضيقة حتى بأقرب الناس لهم

فكرياً. المطلوبون للعدالة. السجناء السابقون. المنخرطون في سلك التدين فجأة. المرفهون. الأغنياء. الفقراء. البسطاء نفسياً. وغيرهم كثير. الكل رأى في الجهاد الأفغاني وجبال الهندوكوش وتورا بورا حصوناً ومهرباً من واقعه وربما مفزعاً إلى الله وبحثاً عن تكفير خطايا الأعمار السابقة واللاحقة في ساعة إطلاق رصاص ولو على شخوص الشجر والحجر.

وعلى رغم وضوح كل تلك العقد أمام صناع القرار الكبار في العواصم ومندوبيهم الصغار في أفغانستان من أجهزة مخابرات ورجال دين، فإن أرض المعركة أو ساحة أفغانستان في نظر الشريف لم تشهد مواكبة من أي نوع يرتقي ولو بنسبة 10٪ لمستوى التحدي، سواء في المجال العسكري عبر التدريب والانضباط، وكذلك في الجانب التربوي والتوجيهي عن طريق التصحيح والبناء الفكري والتحصين العلمي، ولا بالتنظيمي بوضع شروط وضوابط للمسافر والمجاهد، بل وصل الإهمال مستوى دفع بعض آباء إلى الشفاعة لأبنائهم الصغار ليذهبوا للجهاد، بعد أن تم وضع علامة استفهام من جانب السلطات على سفرهم في عمر الزهور، وسُمح لشباب غض في المرحلة الثانوية بالسفر علانية إلى الجهاد في أشهر الاجازة الصيفية، وربما غض المسؤولون عن المدارس الطرف عنهم إن تأخروا فصلاً أو أكثر مثل الشريف في الجامعة الإسلامية.

الكتيبة الخضراء

أمام هذا الوضع الكارثي والموج المتلاطم من أهواء وفتنٍ وخذلان رجال الجهاد الأكابر للجماهير التي أحسنت بها الظن، وما يشبه الخيانة الرسالة التي منحهم العالمّ الثقة لأدائها، وتبرعت الأمة بأبنائها وأقواتها في سبيلها وباسمها، كان الشريف أحد الذين حاولوا الثورة على ذلك التقصير، فبدأ في ممارسة جهد ظنه بسيطاً وخجولاً، لكنه تأمّل أن يؤثر في القليل من المتهافتين على الجهاد، ويمنح الأكابر نموذجاً متواضعاً يسعهم دعمه وتطويره أو في أسوأ الحالات يلفت أنظارهم إلى خللٍ لعلهم يعيقون استمراره، ويحاولون تضييق دائرته، فاستثمر إحدى فترات الركود في الجبهة، وقرر أن يوظف إقامته في أفغانستان في صناعة النموذج الذي آمن به وتمناه بعد أن شاهد رأي العين مرارة التخبط الإداري والعسكري على أرض المعركة وفي كل المراحل.

واستناداً إلى الصورة التي أوضح الشريف بوجه عام، حاول استغلال فترة إسناد الإشراف إليه في جاجي المتقدمة في المواجهة مع الروس، لبناء النموذج الذي كان يشغله عنه في السابق سخونة الجبهة وحماسة المقاتلين للمشاركة الميدانية، إلا أننا في أجواء ما بعد 87م تراجعت حدة القتال، بسبب تحضير الروس للانسحاب في 89م وتهاوي عزمهم الذي كان أشد أيامه الأولى قد

ذهب، ولن يعودوا إلى الشراسة مجدداً إلا قبيل انسحابهم بأشهر في معارك سنتحدث عن بعضها لاحقاً.

تزامن هذا الواقع مع تدفق الشباب الذين بدأوا لتوهم يسمعون بالجهاد ويتسابقون إليه، فبدأت أفكر بأنه لابد من تأسيس المجاهد المؤمن التقي العالم لأنه مع التدريب العسكري يتعلم أمور دينه وبالذات العقيدة لأن العقيدة في تلك الأيام هي نقطة الجدل الأكثر حضوراً بين العرب، فقمت ببناء نفقين صغيرين في منطقة «العرين» (وهي إحدى المناطق التي أعدها بن لادن بين الجبهة والحدود الباكستانية، للإمداد) ووضعنا بها مسجد وأعلنا عما يسمى بـ «الكتيبة الخضراء»، وأعلنت أن من أراد أن يلتحق بها فعليه أن يتم الدورة الشرعية والعسكرية التي تؤهل للانتساب إلى الكتيبة.

قيام الليل شرط للقتال!

وبحكم أنني كنت مستقلاً ومحسوباً على أسامة لم أكن محتاجاً إلى أخذ إذن منه خصوصاً وأنني ناقشته في فكرة كهذه من قبل على وجه العموم فاستحسنها، فبدأت بتنفيذ الفكرة اعتقاداً مني بأنه لا بد من التربية والعمل العسكري معاً. بدأنا بمجموعةٍ أفرادها بين 15 وعشرين فرداً، ووضعنا لهم جدولاً يبدأ بالاستيقاظ قبل الفجر بساعة وقيام ليل، ثم صلاة الفجر، يتلوها قراءة شيء من القرآن، ثم تدريب ولياقة بدنية تستمر بعض

الوقت، وبعد ذلك عودة إلى الإفطار تعقبه الدروس الشرعية، وهي عبارة عن مقررات في العقيدة وفقه الجهاد والتفسير، كنت الوحيد الذي يدرسها المجاهدون، لأنه لم يكن في الجبهة يومئذ شخص مؤهل يعاونني في المهمة، وأذكر الآن بين الكتب المقررة عليهم «منار السبيل، والعمدة، وأصول الدين، وشيء من الورقات في أصول الفقه»، تُربي عند المقاتل سعة في الإدراك والفهم، وكنا نركز على الإيمانيات والسيرة النبوية بالذات لاحتوائها على الجهاد وكيفيته ودروسه وعبره، إلى جانب دروس في «اللغة العربية» واللياقة العسكرية.

تدفق علينا الشباب الذين جاؤوا بعد «مأسدة الأنصار» بالآلاف، ولم تعد بيوت الضيافة تستوعبهم، فالتحقت بنا أعداد غفيرة من الشباب. وكنا نخرج في الصباح الباكر للتدريب يترقبنا الأفغان بفضول واستغراب ونحن نمشي مسافات بعيدة ونصعد الجبال يومياً، وكان أسامة حينئذ غائب في جدة ثم في بيشاور يتشاور مع مجموعة عبد الله عزام في أمور الجهاد ومخلّفات مكتب الخدمات.

حلف مع «المجنون»!

شيئاً فشيئاً بدأنا العمل، ثم بعد فترة بسيطة ذاع صيت «الكتيبة الخضراء»، وأصبح الناس الذين في بيشاور يسألون: ماهذه الكتيبة الخضراء؟ شيء جديد لا يعرفون عنه شيئاً. حتى

أسامة صار يسمع عنها ولا يدري ماهي. وكنت لمّا رأيت حماسة الشباب للفكرة وإقبالهم على الدورات العسكرية والشرعية، جعلت مكافأة الدفعة التي تتخرج أن أقودها لعملية ميدانية ذات طابع قتالي، في وقت كانت الهدنة فيه شبه سائدة.

أما طريقتي في تنفيذ العمليات التي كنت أحفز بها الشباب فكان مثيراً بعض الشيء، لأنه لم يكن بالتنسيق مع (جاجي) التي كانت تحت يدي، ولا مع أحد من المجاهدين العرب، وإنما كان تنفيذها بالتعاون قائد أفغاني يسمونه «ديوانة» أي «المجنون» وهو اسم على مسمى لأنه كان شخصاً لا يهاب الموت ولا العدو فيمارس أعمالاً لا يفصلها عن الجنون كثير.

وفي تلك الأيام اعتدنا على تسمية جبهات العدو بأسماء عربية حتى نعرفها، وبين تلك الجبهات «أم الخنادق» التي قررنا في إحدى المرات اتخاذها هدفاً لعمليتنا، فنسقنا مع «المجنون» ونحن بكامل جاهزيتنا بسياراتنا ذات الدفع الرباعي والتموين اللازم، وكان العدو أكثر كفاءة فهو يمتلك الدبابات التي كلما ترآى لهم غبار أي حركة أطلقوا قذائفها لتبيد الغبار وما حوله، ولذلك عندما ننفذ العملية لا نذهب إليها في الصباح وإنما في الضحى حين تشتد الشمس، حتى تغطي قوة أشعة الشمس أعينهم عنا، في حين نحن الذين نأتيهم شرقاً نراهم بشكل جيد حتى الظهر، وأما بعد ذلك فإن أي تحرك من جانبنا سيكون استهدافه سهل.

تحركنا من موقع «المجنون» بثلاث سيارات بعضها خلف بعض، ولما قطعنا نحو كيلو متر واحد، شعر الروس بغبار سياراتنا وهم لا يبعدون عنا أكثر من أربع كيلوات فبدؤوا بقصف جهتنا، فمضينا بسرعة خاطفة حتى لا تصيبنا القذائف، فكلما كنتَ أسرع في المشي كانت إصابتك بالقذائف أصعب. وعلى بعد 120 متراً من مركز العدو كمنّا لهم وبتنا الليل، فلما أوشك الفجر على الطلوع، فاجأناهم بالصواريخ والقنابل والهاون، ففروا من المنطقة إلى الخلف وزرعنا شيئاً من الألغام.

هذه العملية التي كررناها مرات عدة، أدت مفعولاً غير طبيعي بين العرب في كل المعسكرات الموجودة في جنوب أفغانستان، وبات الشباب الذين جاؤوا أصلاً للقتال يتهافتون على الإنضمام إلى الكتيبة الخضراء ليس رغبة في دورتها الشرعية وإنما شغفاً بمناوشاتها على الأرض للعدو. ونحن لا ندري بما أحدثنا من ضجة لأننا مشغولين، وكان يأتينا بعض الناس ولا نستقبلهم، وآخرين نختبرهم فإذا لم يكونوا أكفاء نعتذر منهم، وهدفنا الجمع بين العلم والعمل.

بعد العملية التي نفذناها أخيراً مع «المجنون» بأسبوعين أو ثلاثة، صرت أرسل الناس إلى جاجي لأن الأمكنة ضاقت بالناس في منطقة (العرين) التي كنت فيها، ولم أشعر إلا بأسامة يأتي وهو يركض: ماذا هناك؟ ماذا جرى؟ ماذا فعلت؟ فأخبرته وكان

هناك ترتيب في كل شيء من ناحية التموين وغيره، يعني ضبط عسكري بمعنى الكلمة.

وكان التدريب في السابق عشوائي فقط، وكل مجموعة تريد أن تجتمع تستأثر بعنصر محدد. المصريون للمصريين والفلسطينيون للفلسطينيين وهكذا، أما نحن فأردنا صناعة المجاهد العالم، فحين لا أُستشهد، خير لي أن أكون عالماً وفقيها وديّنا، وهذا هو الشعار الأساسي للجهاد، ولم يكن لنا هدف أخر غيره، وطبعاً في عقولنا فلسطين وكانت الأحلام كلها كذلك. أما أنا فكانت الرؤية بالنسبة لي مساعدة المجاهدين ومعونة المسلمين، لكن النتيجة كأنني أراها ولم أتفاجأ بما صار بعد ذلك.

نيتنا تتخلص في نصرة المسلمين على عدوهم، وإخراج الروس والحيلولة دون وصولهم إلى المياه الدافئة، ونحن من خلال أفغانستان قمنا بواجب النصرة وفي نفس الوقت إيقاف الزحف الشيوعي، وهذا ما سينتهي إلى إقامة دولة إسلامية حصينة في أفغانستان.

تلك المعاني التي يتداولها بعض الدعاة والمجاهدين، أما أنا فعندما أتأمل قيام دولة إسلامية في أفغانستان، وأرى تضارب أهداف المجاهدين واختلافهم العميق في أمور الدنيا، أدرك أن حلم الدولة الإسلامية في أفغانستان بعيد المنال.

المسكين أسامة جاءني وقال لي أنا أريدك في عمل، وكان يتذاكى عليّ وعرفت أنا ما يريد وجاءتني أخباره، وتأليب عبد الله عزام إياه عليّ، كأنهم يخشون أن أنازعهم دولتهم وزعامتهم، ولو كنت أردت شيئاً من ذلك لكان جد يسير، فالتبرعات التي كانت أساس كل تلك الزعامة، أنا الذي أرفض استلامها، وفي الميدان يعرفون كم كان لي من حضور، هم أكثر العارفين بي.

لما رأيت هذا التآمر انسحبت تدريجياً، وكلمت الشباب الموجودين بعد أن ذهبت إلى جاجي وقلت لهم هذه بضاعتكم ردت إليكم، ومضيت إلى بيشاور أنا وأسامة، وفيما بعد حاول هو أن يطيب خاطري. ولكن عندما حاولت أن أكاشفه في الموضوع، لم أجد منه جواباً شافياً، لكني توصلت إلى أنهم يريدون أن تبقى الأمور تدور في الفلك الذي ألفوه، ساعدهم في ذلك أنني لم أكن متشبثاً بشيء، ولو كنت أحب الاستمرار، لسعيت له ولكن ليس عندي هدف خاص، حتى أتمسك برأيي، ومن طبيعتي أن أي أمر يثير الاختلاف أمقته ولا يجذبني[11].

---

11 - بعد عودة أسامة بن لادن من السودان إلى أفغانستان، أحيا فكرة الشريف، وطبقها هو ومن معه بحذافيرها في ما عرف مركز «خلدن»، الذي كان أشبه بمعهد عسكري، يتم التدريب فيه على فنون القتال والأسلحة، وحرب المدن، والشوارع، والعصابات، والقنابل، والمتفجرات، إلى جانب العلوم الدينية على طريقة التيارات الجهادية، وليس على نهج الشريف الذي كان يدرس متوناً فقهية وشرعية عامة. المتخرجون من هذا المعهد، شكلوا أخطر أعضاء تنظيم القاعدة فيما بعد، ومنه أعدت القاعدة عدتها لمواجهة الغرب وحلفاءه قبل أحداث 11 سبتمبر. إلا أن الاستخبارات العربية والغربية التي اخترقت المعهد ودرس فيه بعض عملائها، ظلت شديدة الاستخفاف بما يمكن أن يؤول إليه نشاط الدارسين فيه، حتى جاءت حادثة أيلول، فأعادت بعث أوارق كل أفغانستان من جديد. انظر تجربة أحد أولئك العملاء واسمه المستعار عمر الناصري في كتابه «في قلب الجهاد» العبيكان ط 2008 الرياض. السعودية.

الموت الأول

بعد سوء التفاهم الذي دار بشأن الكتيبة الخضراء، لم أكن راغباً في التوقف عندما حدث، فاستمر البرنامج على ما كان عليه، نذهب أنا وأسامة سوياً إلى أفغانستان وإلى السعودية، وإن كنت أحياناً أشارك في معارك تقودها أطراف أخرى لا تنضوي تحت إمرته، فيما كان هو منغمساً في إدارة مملكته الجديدة، إلى جانب التواصل الذي تفرضه طبيعة الأحزاب الجهادية مع مختلف الأطراف العربية والأفغانية، فأسامة في ذلك الحين لم يكن «أيدلوجياً» بعد، ويحاول الحفاظ على شيء من العلاقة مع الجميع، وساعده ذلك على أن يكون الأقرب إلى «الحياد» مقارنة بكل أصحاب الرايات في أفغانستان.

الحاصل أنه بعد أن تقدمنا بمعسكرنا فيما إلى ما بعد (جاجي)، وفيما كان هو منشغل بشؤون الإدارة وترتيب بعض أوراقه في بيشاور، أسند إليّ القيام بالإشراف على جبهة العمل، وكانت مهمتنا في ذلك الوقت هي مشاغلة الروس في مراكزهم، فكانت أكبر مناطقهم منطقة مرتفعة نسميها نحن «أم الخنادق»، فكنا لما ننظر إليها من الناضور نرى خنادق حولها فأطلقنا عليها ذلك الاسم، وكنا نخلع على كل مركز من مراكز العدوّ اسماً نميزه به عن غيره.

بعد جهد من الدراسة والتحري قررت أن نخطط لعملية «اقتحام» سريع للمركز، نلحق فيه خسائر بالروس عبر مباغتتهم، ثم ننسحب بشكل عاجل، لأن الهدف ليس احتلال موقعهم بقدر ما هو تحطيم معنوياتهم، وإشعارهم بأنهم ليسوا في أمان، وكنا في الأوقات العادية نشاغلهم باستهداف مواقعهم بين الحين والآخر بسلاح المدفعية 121ملم، وصواريخ «بي م 12»، كما نضربهم بالهاون أحياناً. وكما أطلقنا على «بوسطات» الروس أسماء، أطلقنا على مراكزنا كذلك أسماء خاصة بها أيضاً، وكل ذلك من تأليف أسامة الذي كان مولعاً بتعريب الجهاد في أفغانستان بكل تفاصيله. فمثلاً مركز إطلاق الصواريخ يدعى «الصواري»، فيما نطلق على مركز الهاون والمدفعية «بدر»، وهناك الخندق والطائف ونحوها جرت تسميتها على غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم، كما يوجد جبل مرتفع مطل على المنطقة، نصيبه من الألقاب كان «قباء». وهكذا ترى جانباً من تعلق أسامة بالنموذج الإسلامي الأول، ولكن أين أفغانستان منه؟!

قبل عملية الاقتحام التي عزمت على تنفيذها، رأيت أن أشكل «سرية» أقودها، تقوم باستطلاع حول الموقع، وتطهر الطريق من الألغام، لإزالة كل العوائق أمام عملية الاقتحام التي ينبغي أن تكون سريعة وخاطفة.

ومع أن أسامة في هذه الفترة كان موجوداً إلا أنه رفض في بداية الأمر الإذن بالعملية لاعتباراته الخاصة، لكني نظراً للفترة الطويلة التي مرت على المجاهدين بدون خوض عملية قتالية رأيت أن أكسر مللهم بالقيام بمهمة عسكرية ولو كان فيها بعض المخاطرة، فأخذت الموافقة منه بعد تحاور، فخرجت أنا وأربعة أشخاص معهم قائد من الأفغان، فكنا مجموعة أذكر منها شخص يدعى مصعب الهاجري من المنطقة الشرقية، وقائد أفغاني يدعى حاجي نعيم، بصفته من أهل المنطقة ويعرف طرقها جيداً، وكان جزء من قدمه مقطوع إلا أنه كان قائداً جيداً.

مضينا جميعاً بعد العصر، ومعنا خيول وأسلحة وكاشفة ألغام وتموين يكفينا، وخطتنا أن نبيت في منطقة قريبة من المركز ثم قبيل الفجر نتحرك، لنفرغ من مهمتنا قبيل الزوال، وفي طريقنا لاحظنا آثار الاقتحامات الروسية السابقة و«مأسدة الأنصار» وبقايا إنزال، و«برشوتات»، فكان الطريق جميعه حياً بمعارك ضارية سبقت، فكان السير فيه محفوف بالمخاطر، وموحياً بأنك في معركة حقيقية.

تفوق الأفغان في التوكل!

وبما أني قائد السرية فكنت أتقدم الفريق، ومعي كاشفة الألغام، فيخطو من ورائي خطواتي حتى لا يصاب أحد منهم

بمكروه، لكنها كاشفة غير عملية لأنها تُحدث رنينها بالقرب من أي جسم حديدي لغماً كان أو غيره، فأعاقتنا عن المسير بعض الوقت، ثم جاء هذا الأفغاني وقال نتوكل على الله، وسار أمامنا حتى وصلنا المكان المراد من غير أن يصاب أحد منا بأذى والحمد لله.

وعند طلوع الفجر صليت بهم، وقلت لهم لا تنسوا دعاء كنا نسميه الواقي من الألغام، وهو القول المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم «اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي ومن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي «فكنا نرى جملة «أن أغتال من تحتي» هذه كاسحة ألغام. وصلنا الموقع ساعة الظهر تقريباً، وكنا بدأنا مسيرنا منذ الفجر، إذ كنا حريصين على أن تكون الشمس معنا فهم جهة المغرب ونحن جهة المشرق، فأردنا أن ننجز مهمتنا قبل أن تبدأ الشمس في الغروب فعندها يروننا ولا نراهم، وأما الآن في ساعات الزوال فإن الشمس في وجوههم، وهذا له أثره البالغ. أخيراً بلغنا أم الخنادق وأصبحت منطقة مكشوفة حتى إننا نسمع أصوات تكلم الجنود مع بعضهم وأصوات الدبابات وقعقعة الموائد حين اجتمعوا لأكل الغداء. وكان أغلب الجنود المرابطين في المراكز أفغان شيوعيون وليسوا روساً، وفي تلك الأثناء سمعت أحدهم يقول «خداي توبة»، فسألت زميلي الأفغاني عن المعنى فقال: الله يتوب عليّ! ما جعلني أتوقف قليلا، إذ كيف نقتل أناساً يؤمنون بالله، وهم في واقع أمرهم عوام، وليسوا أقطاب الفكر الشيوعي الذين بيننا وبينهم خلاف عقدي.

الشاهد أنني وصلت إلى المنطقة وقلت للإخوة ليذهب كل إلى مكانه ولا أحد يتحرك، لأن المنقطة بها ألغام منتشرة، وبالذات خلف السواتر، بمعنى أنه لا أحد يأتي خلف ساتر من الأستار ولا أحد يختبئ خلف شجرة، لأنه سيكون ثمة لغم، والمنطقة مكشوفة أمام أعيننا ولا يحجبنا عنهم إلا الشمس، فأي صوت يحدثه انفجار لغم لا سمح الله ستوجه نحوه القذائف مباشرة، فتصبح بعدها في خبر كان، لذلك أصدرت تعليماتي بأن يلزم كل أحد موقعه الذي حددته له حتى لو اعتقد أن العدو ينظر إليه.

بعد توزيع المواقع ذهبت إلى مكان اخترته ونمت على بطني وجعلت أخطط مواقع المركز، وكيف سيتم الاقتحام، ونقاط توزيعهم لقوتهم من الدبابات ومراكز القيادة ونحوها، لكن الأخ أبو مصعب أصيب بـ «وهم» فرأى من موقعه جنديا في البرج الذي في المركز، ولشدة قرب الجندي ظنه أبو مصعب ينظر إليه، بينما هو في الحقيقة ينظر إلى الأشجار المحيطة، والمنطقة مكشوفة لكنها منخفضة ولا يراه أحد، كما أن لباسنا أخضر وعلى رؤوسنا قطع من الشجر أيضاً. أثناء تحركي للقيام بالمهمة التي أنا بصددها التفت فجأة، فإذا أبو مصعب يتحرك نحو الشجرة التي بجانبه وكنت على يقين أن تحتها لغم، فلما رأيته غيّر مكانه وقفت أنا لا إرادياً أشير إليه بأن يبقى مكانه وأن لا يتحرك. وفي خلال ثوان وأنا أتقدم نحوه بالجهاز الكاشف لأخرجه من المكان الذي وقف

فيه مجدداً خشية أن يصاب بأذى، كانت إرادة الله أسبق فقبل أن أصل إليه بثانية خطا فيما يبدو خطوة غير مقصودة فداس اللغم مباشرة، فأصابني اللغم لأنني كنت وصلت إليه، لكنني ظننت أنني من وطئ عليه لكثرة ما أصابني من الذهول خوفاً على زميلي، فأنا عندما وجدته في الخطر نسيت نفسي. بحثت عن قدمي فوجدتها لم تقطع، فعلمت أن صاحبي هو الذي وطئت رجله على اللغم. وهذا من ضعف التدريب فالتزام التعليمات أمر ضروري في هذه المسائل، مع أن الأخ جيد وكان خاض معارك في الشمال مع أحمد شاه مسعود.

عمت الإصابة جنبي الأيمن كاملا، وكان الذي أصابني هو شظايا من الانفجار إلى الآن موجودة عشرات منها في جسدي لكن بفضل من الله تعالى على رغم ما أصابني من الشظايا إلا أنني لم أصب بكسر في عظم ولا قطع لي وتد، فقط دخلت الشظايا في اللحم والعضلات، فكنت أتمالك نفسي وأنسحب شيئًا فشيئًا في هذه الأثناء لأن العدو إذا رأى انفجاراً حوله، يدرك أن هناك هجوم يستهدفه، فيرش المنطقة بأكملها. في هذه الأثناء سبحان الله العظيم في خلال ثوانٍ تأتي غيمة ومطر خفيف حتى فُقدت الرؤية تماماً، مع أن السماء صحو والشمس ساطعة قبل ذلك. ثم تأتي قذيفة من جماعتنا في المعسكر وتضرب أم الخنادق من مركزنا وهو بعيد وذلك من غير تنسيق بيننا وبينهم، وظهر لنا

لاحقا أن شخصاً في المركز لا يعلم بوجودنا هناك ضرب «هاون» ليتسلى، فلما ضربتهم القذيفة مع اللغم الذي انفجر حسبوا أنها قذيفة طائشة أخرى فدخلوا خنادقهم، وكان جميع ذلك في خلال ثواني. وكان معي جهاز لا سلكي فصرت أنادي قيادتنا بأن يضربوا أم الخنادق، فلما سمعوني أنادي دخل أسامة على الخط لأنه كان يملك جهازاً، وسأل ماذا حدث؟ هل حصل لكم مكروه؟

فعرف أن هناك مشكلة فركب خيله وجاء مسرعاً، وظن أنني قتلت لأن الأخ الذي معي رجوت منه أن يطلب إسعافاً، وأعطيت شخصا آخر الجهاز، وقلت له: وجه الإخوة لأنني مصاب. ومضيت أنا مع القائد الأفغاني يساندني.

حين سجد بن لادن شكراً لله!

أما زميلي أبو مصعب فقذفه اللغم على بعد ثلاثة أمتار، فخشينا أن نذهب إليه فيصاب شخص آخر بلغم، فلما هدأ الغيم استطعنا بطريقة أو بأخرى أن نصل إليه ونأخذه معنا، وقام أخوان بمساعدته على التحرك من مكانه.

أما أنا فكنت أستطيع أن أسير على قدمي فقلت لهم حين رأيت نفسي أستطيع المشي دعوني أسير أكبر قدر ممكن، وطلبت منهم أن يسحبوا الأخ حتى يأتيهم المدد. سرنا حتى وصلنا منطقة تبعد نحو 900 متر، وكنا تركنا فيها النقالات، فما بلغناها بعد

نصف ساعة من انسحابنا حتى سقطتُ أرضاً والنزيف يسيل مني، وبدأت أشعر بالغثيان لكن لم يحصل لي إغماء والحمد لله. وكانت لنا شفرة مع الأفغان، هي طلقة ثم ثلاث طلقات، فلما أطلقناها جاؤونا جزاهم الله خيراً، وكانوا كثيري الشهامة لا يتأخرون عمن يستنصر بهم، فطلبت منهم أن يأخذوني إلى مركزنا. ولما اقتربنا من البيت الذي بتنا فيه البارحة، بدأت السماء تصحو، وتوقف القصف من جانب مركزنا على أم الخنادق، فخرج فيما يبدو الجنود واستطلعوا الموقع الذي كنا فيه، فرأوا آثار الدم والإنفجار، فبدأوا يضربون المنطقة التي كنا فيها، إلا أننا قد تجاوزناها ولم يبق سوى هذا الأخ الذي يسحبونه ومعه ثلاثة أشخاص، فبقوا في المنطقة يسيرون بهدوء حتى يأتيهم المدد فانكشفوا فأصبحوا يُضربون ثم كمنوا في موقع منخفض حتى أظلمت الدنيا ثم تحركوا بعد ذلك، وكنت أنا قد تجاوزت إلى مركزنا وإذا أسامة يأتي على فرس فقال من هذا الذي تحملونه؟ فقالوا هذا فلان وقلت له إنني بخير فسجد لله شكراً وحمد الله.

علمت فيما بعد أن زميلي أبا مصعب قطعت قدمه، وفقد إحدى عينيه، كما تعرض لإصابات عدة. وكان من الطريف أن هذا الأخ الذي كانت إصابته بالغة لم يكن معنا حين ذكّرنا بعضنا بالدعاء المضاد للألغام، فهو خرج لبعض حاجته ولم يعد إلا بعد أن تحركنا من الموقع الذي صلينا فيه الفجر، فسبحان الله.

لم تكن إصابتي بادئ الأمر بليغة، فبتنا في منطقة قريبة من الحدود الباكستانية، وفي الصباح الباكر اتجهنا إلى بيشاور، وفي طريقنا مررنا بمركز طبي على الحدود، فأعطوني بعض المضادات وعقموا جراحي، لكنهم لم يهتموا بي كثيراً على اعتبار أن إصابتي خفيفة مقارنة بأخرى أكثر خطورة تمر بهم يوماً بعد آخر. وبعد ذلك تم تنظيف مناطق الجرح وسحبت الشظايا التي يمكن سحبها، إلا أن الإهتمام ظل ناقصاً للسبب السابق نفسه، ما تسبب في مضاعفات خطرة، فانسد أحد الشرايين عندي جراء تخثر الدم، وأصبحنا على مسافة واحدة من جلطة في القدم، وما كانوا يعطوني ابر السيولة التي تساعد الدم على الجريان.

بعد محاولات يائسة، توصلت إلى قناعة بأنه لا بد من الانتقال إلى السعودية حتى أتدارك ما تبقى، قبل أن أصاب بعاهة دائمة جراء هذا التخبط الطبي، خصوصاً بعد أن انتفخت رجلي وأصبح منظرها مرعباً ومخيفاً، إلا أن الأطباء في ما يعرف بمستشفى بدر، رفضوا انتقالي إلى جدة التي كنت أريد الذهاب إليها حتى يزول الخطر، فظلوا يعطونني إبراً تحت الجلد وفي الوريد زعموا أنها ستقلل من الإصابة بالجلطة إلا أنني بعد ثمانية أيام كانت صعبة انتقلت إلى المملكة، بعد أن تطورت إصابتي إلى شبه شلل نصفي.

عندها اقترح الاخوة أن يستدعوا لي بالتنسيق مع السفارة السعودية طائرة إخلاء طبي إلا أنني أصررت على الذهاب ولو على جناح طائرة عسكرية، المهم أن يتم ذلك في أسرع وقت ممكن، وكان الأسرع طائرة مدنية حجزت فيها مقعدي درجة أولى، ومعي مرافقين يقومان بما يلزم من العناية بي جزاهما الله خيراً، وفي الطائرة نفسها كان معنا الشيخ صالح السحيباني وكانت الطائرة تهبط في الرياض ثم تتجه من بعد ذلك إلى جدة، فاقترح عليّ السحيباني أن أنزل في الرياض على أن ينهي ترتيبات علاجي في المستشفى العسكري بالرياض، وألح عليّ كثيراً في سبيل ذلك عطفاً منه وكرماً إلا أنني بقيت مصراً على الذهاب إلى جدة، إذ كانت الأقرب إلى أسرتي، ولي فيها من قبل صلات وعلاقات، فكانت الأنسب لي. وكان السحيباني في ذلك الوقت ممثلاً للجنة تابعة للأمير سلطان تقوم على مساعدة المجاهدين، ومعه عبد الإله المؤيد من الرابطة، يقومون بمهام إنسانية وإغاثية.

بالفعل انتقلت إلى جدة، وكان الأهل والإخوة في انتظاري وأخذوني إلى مستشفى سليمان فقيه، حيث قضيت جميع فترة العلاج، وكان الجهاد الأفغاني في ذلك الوقت في أوجه، والحماسة والتعاطف مع المجاهدين بلغت أشدها، فكان الزوار لا ينقطعون وأفواجهم تترى عليّ من كبار القوم وسواد الناس، حتى كدت أصاب بالملل.

وفي حينه لم أكن متزوجاً بعد، إلا أن والدي كان حريصاً على تزويجي من أهل المدينة ليمسكني ويبقيني إلى جانبه ويضمن توديعي لما يمثل بالنسبة إليه الكابوس الأفغاني، لكن تلك المحاولات لم تكلل بالنجاح، فكان مشروع زواجي بابنة أخت بن لادن نهاية تلك الأحلام.

على أي حال جاءني إخوتي ووالدتي واستقبلوني وكان الوالد في حالة غضب لأنني كنت سافرت بغير موافقته لكن لما رآني في هذه الحالة اختلف الوضع لأنهم حسبوا أنني أحتضر ولم يتوقعوا أنني في صحة معقولة، فلما رآني حياً اطمأن. وفي أول يوم كان يتظاهر بالغضب وفي الثاني أتاني في مستشفى سليمان فقيه. وبعد أربعة أيام سبحان الله أصبحت أشعر بالعافية وأصبحت متمردا على الأطباء وقلت لهم أخرجوني فلم يعد بي بأس، وكان الذي أرهقني هو أصوات الأجهزة وطنطنتها فكنت لا أكاد أنام. ثم بعد ذلك أخرجوني من العناية المركزة ووضعوني في غرفة عادية صرت أستقبل فيها الناس وأنام وأرتاح قليلا.

ومن المفارقات أن أسامة رغم خوفه الشديد عليّ ومحبته لاصطحابي، إلا أنه شاء أن يبقى في أفغانستان، لأنه عفريت يعلم أن والدي سيوبخه على اعتباره المسؤول في ظنه عن إصابتي فهو الذي أغراني بالذهاب إلى أفغانستان. ولكن الحق أن إخوته

جميعاً زاروني وأثلجوا صدري بحبهم وعنايتهم، وكانوا متأثرين يبكون. وفي تلك الأيام كان الذي يصاب في الجهاد، يحمل على الأكتاف في السعودية ويلقى حفاوة غير تقليدية.

ومن القصص العجيبة في الجرح الذي بقي غائراً بعد هروبي من المستشفى أنني رفضت مراجعة الأطباء رغم الصديد والالتهابات التي لم تزل توجد في مواطن عدة من الجرح، فقلت لبعض الإخوة ائتوني بعسل (الفقرة)، وهي منطقة قريبة من المدينة المنورة فأتوني به فكنت لا أذهب إلى المستشفى، و صار الإخوة ينظفون الجرح ويضعون مكان المضادات عسلاً، ثم نضع عليه الشاش وندعه لست أو ثمان ساعات، حتى أصبح مكان الالتهابات أحمر اللون نظيفاً.

وبعد أن عدت للمستشفى الذي أتابع فيه العلاج في المدينة ظن أن التحسن الذي طرأ عليّ كان بسبب العلاج الذي أعطوني إياه، فسعد كثيراً بذلك وقال ما شاء الله تحسنت كثيراً هل كنت ملتزماً بالعلاج؟ فلما أخبرته قال العسل فيه سكريات وهي مضرة بالجروح، فقلت له إن الله يقول عن العسل «فيه شفاء للناس»، فقلت له إنني سآتيك بعد أسبوع ولم أعد في حاجة إلى مراجعة شبه يومية. وبعد حين صارحني بأنه تعجب، وقال: التحسن الذي كنت ستحرزه في أشهر حققته أنت في ثلاثة أسابيع. والحمد لله رب العالمين.

وفي مستشفى فقيه حدثت لي قصة أغرب، إذ كانت عندي شظية في ركبتي جاءت في المفصل، فكانوا يريدون إجراء عملية حتى يخرجوها، وبدأوا يطلبون مني الصيام ويمنعونني من الأكل وأنا من جانبي أماطلهم، لأنني لا أرغب في إجراء العملية ثقة بأنها ستخرج بإرادة الله.

وذات يوم بعد إصرارهم، قلت لهم غداً بإذن الله، فجعلت أقرأ عليها القرآن طيلة الليل، وبعد الفجر تحاملت على نفسي فضغطت عليها ضغطاً شديداً فخرجت بإذن الله، وفي الصباح جاءتني الدكتورة فقلت لها هاهي «الشظية» فاكتبوا لي الخروج، وكنت يومها لا أرغب في شيء كرغبتي في الخروج والذهاب إلى المدينة التي كنت مشتاقاً إليها.

معركة الزواج والتدريس

في فترة النقاهة بعد إصابتي رجع أسامة من أفغانستان وأتممنا خطبتي بابنة أخته، وفي تلك السنة تخرجت من الجامعة، وقدمت معيداً في الجامعة.

وأتذكر أن زواجي كان في الثالث من محرم، ولمحاولة تغيير العادة الموجودة أصريت عليهم بأن يعملوا الزواج ظهراً، ثم يكون احتفال النساء بعد العصر، حتى لا تحين الثامنة مساءً إلا وأنا في الفندق، فأخذت زوجتي والناس فرحوا كثيراً بهذا

التغيير، وكان هذا في جدة أما في المدينة فكان زواجا اعتيادياً، وكان الزواج بعد موت سالم بن لادن عميد أسرة بن لادن الذي كان دمث الخلق خفيف الظل، لذلك كان الزواج مختصراً في جدة، إذ سقطت به طائرة في ذي الحجة في عيد الأضحى، وكنت عقدت على زوجتي في رجب بحضور سالم نفسه رحمه الله، وكان شاهدا على العقد، فيما تمت الملكة في بيت صالح بن لادن وجلس معي سالم يومها قرابة ساعة أو ساعتين نتحدث ويشتكي لي من أسامة ووضعه وتشدده ويطلب مني نصحه.

بعدما تم الزواج قدمت معيداً في الجامعة وأثثت شقة في المدينة واطمأن الوالد والوالدة بربطهم إياي، وهذا الكلام في 89م لأن زواجي كان في 1409هـ، ولم أكن حتى أنا متوقعاً أن الشغف بأفغانستان سيستمر بعد إصابتي ولكن سحر الجهاد وأسامة الذي كان في تواصل دائم معي، ظل لهما وقعهما.

تقدمت إلى الجامعة بطلب تعييني معيداً فيها، وحصلت بيني وبينهم صولات وجولات، فأنا دخلت أريد قسم أصول الفقه لكنهم أخبروني بأن المتاح فقط كلية الحديث، فرفضت الإعادة فيها. سافرت وبعد أن عدت قدّمت في الدراسات العليا حتى أكون معيداً في كلية الشريعة قسم أصول الفقه، بصحبة مجموعة تمت لنا جميعاً مقابلة شخصية، حصلت فيها على أعلى نسبة، وأخبرني بذلك الأساتذة لمعرفتي الخاصة ببعضهم.

كانت المقاعد المتوفرة ثمانية فقط، بينما المتقدمون كانوا أكثر من ذلك إلا أنني كنت في طليعتهم، وبعد المداولة والمتابعة فهمت أن مؤامرة تحاك ضدي خصوصاً وأن إدارة الجامعة أصبحت بيد إخوة من خارج المدينة، وزاد شكنا أن الزملاء الذين تقدموا معي للدراسات العليا من القصيم تم قبولهم، فساءني هذا الأمر واعتبرت الأمر تحدياً، إذ كنت أرى أنني أحق ممن قُبل بحكم درجاتي ولأنني أيضاً تخرجت من الجامعة نفسها.

ذهبت بعد ذلك إلى الشيخ ربيع المدخلي الذي كان يومها في أوج ظهوره وكانت لي به علاقة مثل علاقتي مع الجميع إلا أنه كان قبل ذلك طلب لقائي لمعرفة أخبار الأفغان وجهادهم، فلما أخبرته بما حصل وعدني بأنه سيبذل قصارى جهده، وذهب معي إلى عميد الكلية ثم جلسا في المختصر ساعة من الزمن ثم خرجوا، وفهمت من كلامهم أنني ربما أكون شيعياً وكلاماً من هذا القبيل بوصفي من الأشراف. كان هذا كل مبررهم، فأجابهم بأن هذا الكلام غير صحيح، وأن الرجل ذهب إلى أفغانستان وجاهد، وكان قد درس هنا وطلب العلم، وفي نهاية المطاف وعدوه بأنهم سيقبلوني، لكن لما بدأت السنة الدراسية أفادوني بأن ملفك ليس له مكان في الجامعة، فنحن كل ما نحتاجه ثمانية مقاعد وجميعها أشغلها أساتذة آخرون، وأنت جئت متأخراً!

نفيت زعمهم هذا وأكدت لهم أنني لم أتأخر، فأنا أول شخص تقدم هنا، وكنت قد صورت جميع الأوراق ورفعت شكوى إلى رئيس الجامعة وأخبرته بما فعلوا بي وقلت له إذا لم تنصفني منه فأنا أشتكي إلى من هو أعلى منك فأنصفني فإني لا أريد أن أتجاوزك، ولم يكن تهديدا وإنما لأنني علمت أن له هو أيضاً دور في الموضوع.

ومن باب إحقاق الحق قدمت له خطاباً وفيه أنني أنا أحق بما أني من أهل المدينة ودرست في الجامعة وإن كانت ثمة مفاضلة فإن درجاتي عالية لأنني أنا وثلاثة من المدينة كانت درجاتنا جيد جداً مرتفع، أما البقية فجيد وقبلوا، وأنا لم أقبل بالإضافة إلى أنني حصلت على 98 في المائة، في المقابلة الشخصية، وهي أعلى درجة في المجموعة كلها، فقال لي سيكون خيراً وإن كنت تريد أن نوظفك في المعهد الثانوي مدرساً فعلنا. فقلت له ياشيخ أنا لم أجيء إليك حتى توظفني أنا أريد أن أواصل رحلتي العلمية وإن كان على الراتب فأنا أكتب لك تعهداً الآن بتنازلي عنه.

ثم أضفت: هدفي هو أن أواصل العلم في المدينة المنورة في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ولا أريد أن أذهب إلى أي مكان أخر، وكان الوالد يصر علي بأن أذهب إلى الأزهر وأنا أرفض ذلك. فقال لي لا داعي إلى هذه الشكوى وقام بتمزيقها أمام

وجهي، وفي تلك الأيام حتى تواصل الدراسات العليا لا بد أن تكون معيدا، فقلت له هناك جهات أعلى منك، ستأخذ لي حقي!

أمير المدينة ينتصر لنا

قمت بإعداد شكوى أوضحت فيها جميع المعطيات السابقة إلى أمير المدينة عبد المجيد بن عبد العزيز رحمه الله وشفع لي إليه المهندس بكر بن لادن الذي كان يومئذ مسؤولاً عن أعمال مشروع توسعة الحرمين، فذهبنا إلى الأمير في مجلس ونظر في الشكوى وكنت أرفقت معها جميع المستندات ومستويات جميع المتقدمين بمن فيهم الإخوة الذين لم يقبلوا، وطالبت بأن يتم قبولنا جميعاً للأهلية والأولوية. وكان عبد المجيد قوي العزيمة، فبعث إلى الجامعة في شأننا، ثم لم يمض يومان حتى اتصلوا بي وقالوا لي بأنك قبلت في الجامعة فقلت لمن اتصل بي إمعاناً في إذلاله، أنا اليوم مشغول وأريد منك أن تأتي وتأخذ الأوراق وتنهي الأمر بنفسك، فلم أنس بعد ما فعلوا بي من الهوائل، والتعامل العنصري المقيت. الشاهد أنه تم قبولي وذهبت للجامعة وقد مضى على بدء الدراسة شهران، والتحقت بالسنة التحضيرية وسجلت معيداً رسمياً، ومن السنة القادمة بدأت أدرّس. وكنت في السنة التحضيرية أراقب وفي الإجازة أخطف نفسي إلى أفغانستان وأصطحب معي زوجتي.

وفي تلك الفترة من 89م بدأت حلول الصلح، وبدأ الاتحاد السوفياتي ينسحب وبدأ الخلاف بين المجاهدين، أيهم سيكون الأقوى ومن سوف يستلم القيادة، كما تطور التدخل الدولي والأمم المتحدة. وتم استعراض الخيارات السياسية التي كانت مطروحة في ذلك الوقت ومنها أن الملك ظاهر شاه يعود كما كان من قبل الاتحاد السوفياتي قبل أن ينقلب عليه ابن عمه داود فيما عرف بالانقلاب الشيوعي، وبدأت الجبهات تضعف بسبب غلبة المجاهدين، وكان الحل السياسي تم تبنيه من جانب الأمم المتحدة وأمريكا وبعدها سقط الاتحاد السوفياتي كلية.

هزيمة جلال آباد

بعد الزواج ذهبت وقت الإجازة في الفترة التي انسحب فيها الاتحاد السوفياتي، وتقدم المجاهدون تقدما سريعاً فوصلوا أبواب المدن ولم يدخلوها إذ كان الخلاف على من يستلمها، فوصلوا حدود جلال آباد ووقفوا على حدود كابل هذا قبل الانسحاب بشهر أو شهرين وبعيد إعلانه، لكن وعد الجنرال الروسي هو أن ينظف أفغانستان من المجاهدين الأفغان والعرب قبل انسحاب بلاده الكلية، خصوصاً المجموعة المرابطة في (طرخوم) من جلال آباد، وهذه الأخيرة تعتبر ثاني مدينة بعد كابل.

ولأن انسحاب الاتحاد السوفياتي يحتاج إلى وقت، استغل المجاهدون تلك الفترة فلم يكونوا يوقفون القتال، فبينما كان

الانسحاب على أشده، كانوا هم يوقعون فيه الخسائر، ما دفع الجنرال الروسي على التعهد بأنه حتى مع انسحاب الاتحاد السوفياتي سيخرج العرب والأفغان من منطقة جلال آباد قسراً، وكان العرب بينهم وبين جلال آباد كيلوات قليلة فقط، وكنت أنا حينها في السنة التحضيرية.

وحين تزحزحت قوات العدو تقدم المجاهدون الذين يقودهم أسامة من «جاجي» إلى مركز سموه «سراقة»، ومشكلة جلال آباد أنها ليست كالمنطقة السابقة، فهي منطقة منبسطة وسلاح الدبابات والمدرعات والطيران فيها كاسح، والقتال في مناطق كهذه كانت تجربة جديدة بالنسبة لنا كمقاتلين عرب لأن كل قتالنا كان في جبال، والجبال لايصيبك فيها سوى الطائرات والصواريخ، لكن الدبابات لا تتعامل معها، أما خوض مواجهة مفتوحة في منطقة سهلة، فتلك تجربة قاسية تحتاج إلى تكافؤ في العدة، لم يكن قائماً.

الشاهد أنني بعد نهاية السنة التحضيرية، جئت إلى المجاهدين في هذا المكان، ومعي أخو زوجتي واسمه فراس، وعمره 14 عاماً، وكنا نقصف يومياً المراكز الحيوية في جلال آباد، خصوصاً المطار الذي يحتفظ بحركة دائمة بحكم أنه الأهم في تلك الناحية للغزاة.

وفي أحد الأيام حميت المعركة وكنا أسامة ونسيبي فراس وأنا معاً، والقوات الروسية أمامنا على بعد 600 متر تقريباً، وكانت منطقة تماس شديدة الخطورة، إلا أننا في تحصينات لا بأس بها على منطقة «سراقة» المرتفعة، وسلاحنا كما هو معتاد، مدفعية، وهاون، وبي م 12 ومضادات، إضافة إلى الرشاشات بطبيعة الحال، والطيران يقصف علينا يومياً بشكل مستمر.

وحين أتيت لم أجد أحداً من الإخوة المصريين المعروفين هنالك فلم يكن هناك غير بعض الشباب من العرب ومعظمهم من المدينة والحجاز واليمن، وكنا نضرب العدو كنوع من الاستنزاف له، ولدينا بعض الاستعداد لأن الأخبار التي وصلتنا تشير إلى أن الهجوم على الناحية التي نرابط فيها وشيكاً، غير أن المجاهدين يسود بينهم شيء من الاستهتار بتلك الأخبار فكان الاستعداد ليس على المستوى الكافي، ربما مرد ذلك أن ثقتهم بأنفسهم أصبحت عالية، بعد أن دفعت ضرباتهم الاتحاد السوفياتي إلى الاستسلام ثم الإنهيار لاحقاً.

وبحكم أنني أتيت إلى هذه المنطقة للتو، فإنني استشعرت هذا الاسترخاء، رغم أن تجربة المواجهة في منطقة مفتوحة كانت جديدة حتى على أسامة، إذ لم يخض معركة من هذا النوع الذي يحضّر له، وهو صد الهجوم المباشر لقوة تملك كل عناصر

القوة. وما هي إلا أيام معدودة، إذا بنا نشعر بحركة غير طبيعية من طرف العدو، فاجتمعنا في مجلس التشاور لتقييم الموقف، ودرْس ما يمكننا اتخاذه ثم تبين في الوقت الضائع أن ما لدينا لا يكفي حتى للمقاومة فكيف بصد الهجوم، وحتى الذخيرة لم يكن لدينا ما يكفي منها، والسبب في ذلك أن الدعم الأميركي والباكستاني بدأ يتراجع، لأن الفريقين باتا مشغولين بالحلول السياسية بعد إعلان الاتحاد السوفيني عن عزمه الانسحاب، ولم يعد أمامنا إلا الشراء من السلاح الموجود في السوق، وهذا أمر لم يعد فيما يبدو متسعاً من الوقت للقيام به، بعد أن بدأ التحضير المريب من جانب الروس.

أما المجاهدون الأفغان فأصبحوا لا يكادون يطلقون رصاصة واستغلوا أزمة الجود الأميركية والباكستانية والعربية لبناء مخازن ملؤوها بالأسلحة، ليتبين فيما بعد أنهم أعدّوها للأيام السيئة القادمة، والتي ساد فيها التقاتل بين المجاهدين كما توقع الجميع. وتبعاً لا يريدون استنزاف سلاحهم فكنا لا نستطيع سوى الشراء من نفس المجاهدين على طريقة تجار السلاح فتكلمنا في الموضوع ورجعنا للمستودعات فلم يكن هناك ما يصدّ هجوما من الدبابات.

أمنية شفيق

حضرت أنا في المرحلة الساخنة وكان لهم أشهر ليس هناك أي تحرك في الجبهة، وجلسنا في ليلة بعد أن تعشينا نتحدث وكان معنا شفيق رحمه الله من المدينة المنورة، فكنت أقول لكل شخص ماهي أمنيتك؟ فقال شفيق أمنيتي أن أضرب بقذيفة فيمزق جسدي ولا يكون لي قبر، أُقطّع في سبيل الله حتى يجمعني الله، فقلت له ما قال النبي صلى الله عليه وسلم «اصدق الله يصدقك» مثل الرجل الذي جاء عند الرسول عليه الصلاة والسلام وهو يقسم الغنائم فقال له ما على هذا بايعتك، فقال النبي «على ماذا بايعتني»؟ قال بايعتك على أن أضرب بسهم من هاهنا وأشار إلى نحره وأن يخرج من هاهنا في سبيل الله، فقال عليه الصلاة والسلام المقالة المشهورة: «أصدق الله يصدقك» فوجدوه في اليوم الثاني في المعركة مقتولا ولم يخطىء السهم المكان الذي أشار إليه، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم «صدق الله فصدقه».

على وزن هذا الصحابي قلت أنا لشفيق نفس مقالة الرسول عليه الصلاة والسلام، فسبحان الله نمنا تلك الليلة ونحن نشعر بأن هناك حركة ولكن لا إمكانيات لدينا، ومع ذلك استمر كل منا في الحديث عن رغبته وأمنيته وكنت أنا تمنيت إعزاز الأمة،

ولم تكن أمنيتي «الموت»، لأن الذي أتمنى إدراكه هو النصر، أما الموت فهو سهل، وكنت في معظم المعارك أعدّ نفسي في عداد الموتى ويئست من «الحياة» مرات عدة، ولم يكن عندي إشكال في ذلك لأننا جميعا نتمنى الشهادة في سبيل الله وكنا نقول: اللهم إنا نسألك شهادة في سبيلك بعد إعزاز دينك» وكل منا يريد أن يشفي صدره بإخراج من استحل دمه، ولأن الجهاد وسيلة وليست غاية، وسيلة للوصول إلى الهدف، أما الغاية فهي رضا الله تعالى سواء في الحرب أو السلم حتى تكون كلمة الله هي العليا، وما الجهاد إلا إحدى الوسائل لتحقيق ذلك[12].

ذهبنا في الاستطراد، وكنت ذكرت سابقاً أن معي أخا زوجتي فراس، وكان أكثر ما يقلقني بعدما شعرنا بأن المواجهة غير المتكافئة قائمة لا محالة، فهذا الشاب له قصص في ذلك الوقت لا تخلو من طرفة، ومن بينها أنه لما جاء معي إلى أفغانستان كان التدريب قد انتهى، فلم يتمكن من التدريب فخففت عليه لأن عمره 14 سنة وكانت أمه أرسلته معي فكان أمانة في عنقي، فأرسلت أشخاصاً يدربوه على السلاح تحسباً لأي طارئ، فكان يُعطى البندقية فإذا أطلق الرصاص وسمع الصوت ألقى بالسلاح وهرب! هذا في البداية لأنه أول مرة يسمع الصوت وهو ولد قد

---

12 - كان هذا دفاعاً من الشريف عن نفسه بعد أن مازحته بأنه يغري زملاءه على الموت، فيما كان هو يفكر في العودة، إذ لم يزل عريساً. وكان صاحب دعابة.

تربى في النعمة فأصبحت أنا أغافله وأطلق بجنب أذنيه الرصاص حتى يتعود فقلت له: ياليتني لم أعوّدك، لأنه بعدها أصبح لا يفتر من إطلاق الرصاص في الليل والنهار واتخذ ذلك مثل اللعبة.

بعد أن أنهى فراس لعبته المعتادة، سمرنا قليلاً وجرى بيننا الحديث السابق حول أمانينا في النصر والموت في سبيل الله. نمنا واستيقظنا لصلاة الفجر ونحن نسمع صوت الدبابات فعلمنا أنها تستعد للتحرك نحونا، وكنا حفرنا خنادق وكهوفاً داخل جبال لكنها لم تكن جبالاً صخرية، وكان عندنا نفق صغير صليت بهم الفجر فيه والظلام لم يزل حالكاً. لحظة تسليمنا من الصلاة تساقطت علينا صواريخ سكود فخرجنا من الكهف على الفور، فكانوا في الليل يتحركون ويضربون حتى يرهقونا ولا ننام، ولكننا ننام ولا نبالي بذلك ولدينا حراسة تطلق القذائف نحو الدبابات كلما سُمع صوتها، من باب التحذير فتخاف فلا تتحرك.

بعد لحظات أمطرنا الروس بدفعة جديدة من صواريخ سكود، فقلت لأسامة إن هذا القصف غير طبيعي، وبدأنا نتحرك ونوزع المقاتلين، وخرجنا فأتانا راصد من الميمنة فقال: هناك حركة دبابات وأتانا راصد من الميسرة وأخبرنا بأن 13 دبابة تتحرك في اتجاهنا، ونحن في مركز القيادة في «القلب»، وكان القائد أسامة ومركزنا عرب 100 في المائة.

وبين العرب الذين كان لهم شأن في تلك الأيام الشاب «خطاب» الذي كان في مراكز خلفية، ولديه مشروع مكثف للإعداد والتدريب، وأتاه شبان من شرق السعودية وغيرها، فكنت أقول لأسامة في تلك الأيام إن هذا الشاب يعد لشيء ما، وكنت أعني بذلك أن تنظيماته وجهوده مركزة فظهر من ذلك أن له هدف غير أفغانستان نفسها، فكان أسامة يرد علي قائلا: دعوه فإن المسلمين يحتاجون لأي أحد يمدّ يده! وفيما بعد تبين أنه يعدّ العدة للاتجاه نحو القوقاز، إذ كان هنالك الرقم الصعب في الشيشان حتى قتل مسموماً بعد كر وفر مع الروس استمر طويلاً.

وبالعودة إلى المعركة التي كدنا نذهب فيها ضحية الاستهتار بالعدو، صعقنا الروس بصاروخ كيماوي، كان كفيلاً بهلاكنا عن بكرة أبينا لشدة فاعليته، إلا أن رياحاً أقلعت به إلى الأعلى، بعد أن بدأت موجته تهب نحونا. وأنا على كثرة المعارك التي حضرت لم أسمع أن أحداً أصيب بالكيماوي مع ضرب الروس به، ولكن سبحان الله كلما ضربوا به تأتي رياح وتقلع به إلى السماء، والله أعلم بحكمته في ذلك. وكان إذا استنشق أحد رياحه الصفراء، يصيبه الإسهال حتى يموت لأنه غاز سام. ضربوا أحد هذه الصواريخ وكان قريباً منا فقلت لأسامة هذا هجوم غير تقليدي فلا بد أن نرى استراتيجية المدافعة المرحلية، فكنا نرسل «آر بجي» وسرية صغيرة ترد على القصف وتعيق الدبابات. وفي تلك المعركة أخذ

الروس بطريقة خالد بن الوليد في ضرب الميمنة والميسرة قبل اختراق القلب، وكلما انتقلوا إلى ناحية أرسلنا من يرد عليهم من المنطقة نفسها ليشعروا بأن قوتنا متكاملة، بيد أن الواقع أن معظم المجاهدين ذهبوا إلى الإجازات ولم نكن مستعدين لهذا النوع من القتال، لكنها كانت تجربة جديدة استفدنا منها.

بعد أن أثخن العدو في الميمنة والميسرة أتى إلى القلب ولم يكن لدينا «آربجي» ولا ما نصد به الدبابات الآتية للقلب، وكان جميع ما معنا من مضادات الدبابات اثنين (ركيك) أحدها آربجي والآخر 82 ملم، وفائدتها أن الدبابات إذا رأت المضادات تتوقف، وإن كانت قريبة تتراجع، لكن هذين السلاحين تم إرسالهما إلى الميمنة والميسرة، وأي أحد يتحرك يقصف مباشرة، فأصبحنا نحن في القيادة مكشوفين تماماً، وبلا أي غطاء، واتجهت نحونا 13 دبابة، وأصبحنا في مرمى نيرانها، وبدأوا في التمشيط النهائي فبعد قصف الطيران يأتي الهاون والصواريخ، ولم يقفوا لمدة ساعة متواصلة، في محاولة لتشكيل الضغط علينا فيما تتقدم الدبابات نحونا، حتى اقتربت منا 500 متراً، فتقدمت دبابتان حتى أصبحت على بعد 300 متر منا واختبأت، وكانت دبابات حديثة تضرب بدقة فجاء شفيق هنا وكان متخصصا في صواريخ 82م التي تضرب الدبابات في مقاتل حرجة، وكان هنا صاروخ فوضعناه له فوق «التبة»، وشيء من الذخيرة أتيناه به، وبينما هو في الأعلى

ينظر إلى الدبابات وتنظر إليه ضرب ضربة بعد أن حدد في الناضور فلم يصب الدبابة، بحكم أنها محصنة، فأطلقت عليه الدبابة قذيفتها فمزقته كل ممزق، ولم نعثر على أي أثر لجسده الطاهر، لأن الضربة كانت من دبابة قريبة، وهو على مرتفع، ساعد على تصويبه. رحمه الله رحمة واسعة.

أصبحت العملية أشبه بتمشيط روتيني بالنسبة للروس، وكل دبابة عليها مدفعين من الرشاشات، اثنان من الجنود يعمل أحدهم على اليمين والآخر على اليسار، وتوقف القصف الجوي تماماً لأن الالتحام حصل فلا يمكن مشاركة الطائرات حتى لا تصيب دبابتها بنيرانها. في هذه اللحظة قلت لأسامة لم يعد أمامنا حل غير الانسحاب، وإلا تقدمت الدبابات نحونا واعتقلونا، فانسحبنا انسحاباً تكتيكياً، مجموعة تفجر المستودعات، ومجموعة تسحب المدفع 121م، وكنا قبل الالتحام بساعة أعطيناهم أمراً بأن ينسحبوا، وبقيت أنا وأسامة واثنا عشر شخصاً تقريبا، فحرنا في الكيفية التي ننسحب بها، لأنه لا بد من مشاغلتهم حتى نتمكن من التراجع، فتطوع أخوان أحدهما مصري وآخر من جنسية أخرى، فقالا انسحبوا أنتم ونحن سنشاغلهم إلى آخر لحظة، ونحن لا نرضى بأن نذهب ونتركهم. وفي اللحظة الأخيرة انسحبنا، وكانت لحظات صعبة، لأنك بين خيارين أحلاهما مرّ، فنحن لو لم ننسحب لقتلت المجموعة كلها، أما الأخوين الذين

أشغلا عنا الدبات فأحدهما قتل، وأسر الآخر، وعرضته فيما بعد التلفزة الروسية. ولا أدري الآن هل تم تحريره بعد ذلك أم لا.

المهم أننا انسحبنا في وقت قياسي وكادوا يمسكوننا بالأيدي، وفي طريقنا جاءت الهليكوبترات العسكرية فلاحقتنا على الطريق، ونحن معها كالقط والفأر، فكلما جاءت يمينا انحزنا شمالاً بين الأشجار في مجرى النهر ونحن نجري ومعي فراس وهو يرتدي جعبة فيها كمية من الذخيرة فقلت له ارميها وابق معك فقط الكلاشنكوف. وصلنا سياراتنا بعد النهر تنتظرنا هناك إلا أن القصف لم يتوقف ونحن في السيارات، فلا نكاد نمشي خمسة أمتار دون قذيفة تسقط بالقرب منا أو هاون حتى دخلنا في منطقة نسمع فيها أصوات الدبابات، فقابلونا أفغان وأخبرونا أن هناك دبابات مهاجمة ونحن سنشاغلها عنكم فسيروا في هذا الطريق، وسرنا حتى بلغنا طريق السيارات وهو طريق دولي بين باكستان وأفغانستان، فمضينا بالسيارات وإذا بالقصف مجدداً، فصرنا ننزل من السيارات، ونعود إليها حين يتوقف القصف وهكذا حتى وصلنا في المساء، ولم نقطع سوى مايقارب 30 كيلو فقط، وصلنا مع المغرب وكنا نسير وتأتي على طريقنا مراكز فنجلس فيها قليلا ثم نواصل على أننا سنعود مرة أخرى بعد ترتيب صفوفنا. كان يوماً عجيباً. القصف فيه مستمر والدبابة تراها أمام عينيك 200 متر، وكأنها تجري خلفك حتى سكود يضربوه علينا، مع أنه مشهور بأنه

سلاح مدن وليس سلاح مراكز أو أفراد ينسحبون، ولكننا فهمنا فيما بعد أن الروس حين قرروا الانسحاب أرادوا تدمير ذخيرتهم وعتادهم في مستودعات أفغانستان، حتى لا يستفيد منها الأفغان فيما بعد.

على أي حال تم الإنسحاب وكتبت لنا الحياة من جديد، كما لو كنا في حلم أو خيال، وكانت الطائرات ضربت جميع الطرق حتى تقطعت والكباري حتى تكسرت، وبعضها على مجرى نهر فكنا نغطس فيها لأن المياه قليلة، وفي أول الصيف تكون الأنهار قوية تجرف كل ما يمر عليها، بسبب ذوبان الثلوج في أعالي الجبال، فيتدفق منها الماء على نحو مذهل. وهذا من غرائب المفارقات، فأفغانستان من بين أجمل بلاد الله في طبيعتها الخلابة وأنهارها الكثيرة.

بعد وصولنا للمنطقة الآمنة، كان جميع قتلانا نحو ثلاثة أشخاص، بينهم أحد الأخوين الذين تطوعا لصد الهجوم عنا ريثما ننسحب، وكان هذا النوع من الفداء قليلاً ما يحصل في معارك أفغانستان أو تحتاجه المجموعة، لكنه يجري بشكل اختياري، فلم تكن هناك إمارة بمعنى الكلمة تقرر من يدافع ومن ينحسب، وكان هناك خوف طبيعي من القتل بلا شك، حتى إن القلوب لتبلغ الحناجر أحياناً، فلا يكاد شخص يتكلم بحرف رهبة من الموقف،

وأتوقع أن تطوع الأخوين كان فداء لأسامة، الذي أثر فيه هذا الموقف بعد ذلك، وأصبح يقدر للمصريين وفاءهم.

فرحنا بأن عمراً جديداً كتب لنا من جديد، وظننا أن المعركة انتهت، إلا أن ظننا لا يبدو أنه يستند إلى شيء يعززه، فمنطقة (طرخوم) التي انسحبنا إليها على الحدود الباكستانية، تبين أن بها عدد من العيون والمنافقين الذين توقعنا أنهم أبلغوا الروس بأننا انسحبنا إليها، وإلا كيف علموا بوجودنا هنالك؟ وفيها يبنون غرفاً في سفح الجبال ويسقفونها بالخشب ويضعون عليه بلاستيك وطين، فتصبح باردة وقت الحر، دافئة موسم البرد وكأنها معزولة، وكانت أعدت في منطقة على الحدود ليرتاح فيها المجاهدون بعد القتال المضني، لأنها في منطقة يفترض أن الروس لا يستهدفونها لأنها تقع خارج حدود أفغانستان التي يحتلونها.

استسلمنا أمام الاجهاد ونمنا تلك الليلة في المنطقة، واتفقنا على إرسال الشباب الصغار إلى بيشاور غداً، فعرفوا أنه تم الانسحاب إلى طرخوم من عدة عيون من نفس الأفغان وغيرهم. وكان الشيخ سياف يعمل على بناء مركز كبير في منطقة قريبة من هناك، يبني أنفاقاً ليخزن فيها السلاح استعداداً للحرب القادمة، حتى إنني سألته: هل أنت تعمل هذا لأجل قتال بينكم؟ فقال لا، من باب الإعداد، وأنا أدري وهو يعلم

أنه يصرفني، فقد تبين فيما بعد أنهم كانوا أفطن ببعضهم، فقد بنى له غرفة في أعلى الجبل الذي يسمى تورابورا ونحن كنا في سفح تورابورا، وهذه جبال مرتفعة، بعضها فوق بعض، على حدود باكستان وأفغانستان وكنا بالأسفل في المعبر الذي يسمى «خيبر» وبيننا وبين النقطة الباكستانية 100 متر، وهذا مركزنا الأول وفوقنا جبال تورابورا عن اليمين واليسار.

صاروخ توربورا

استيقظنا وصليت إماماً بأسامة وفراس ومن حضر من الإخوة، وبعد الفجر كنا نريد العودة إلى النوم لأن الليلة كانت منهكة وصلينا الفجر ومباشرة نمنا على غير العادة، إذ كنا لا ننام إلا القيلولة.

أما أسامة فجاءه تاجر من تجار السلاح لأن مستودعاتنا نفدت فنريد أن نشتري السلاح، فجاء التاجر وسلمت عليه وأخبرته أنني لا أستطيع الجلوس معهم، بسبب حاجتي لقليل من النوم. جلس أسامة وتاجر السلاح في المكان يتناقشان في السعر وما هي الطلبات والكميات. ثم لم تمض ربع ساعة إلا وصواريخ السكود تقصفنا، وكان أحدها صاروخ كيماوي يبعد عنا نحو 400 متر، على قمة الجبل وهي جبال بعضها فوق بعض كما أسلفنا، وأعلى الجبال تجدها بيضاء على مدار السنة من الثلج وبعد ذلك

ضرب على اليسار، وضربوا بصاروخ غرفتنا التي نجلس فيها، فوقع على 20 متراً منا تقريبا، فكنا في مرماه 100 في المائة، لأن مدى التفجير نصف كيلو، ومجرد تفريغ الهواء يؤدي إلى تفجير الدورة الدموية، فلما جاء الصاروخ قام الأفغاني بتغطية أسامة كي لا يصيبه ضرر، وهو أفغاني باكستاني بوشتوني، ونحن هدمت علينا الغرفة من قوة التفريغ، وانكسر السقف الخشبي ولو كان من الخرسانة والحديد لكانت الغرفة قبراً لنا، وفي هذه اللحظة عمت الظلمة حتى لا ترى شيئاً وصوت الانفجار يملأ الأسماع، والشظايا أحرقتنا لشدة حرارتها حتى أننا حسبنا أننا دفنا، فصرنا نتشهد وينتظر كل منا قطع نفسه.

في ذلك الأثناء حاولت أن أرفع الطين والخشب واستطعت أن أخرج لكن لا أرى شيئا! قدر الله أن هذا الصاروخ لم يكن كيماوياً وإلا متنا، ولكن سبحان الله الناس الذين كانوا أبعد منا على مدى 400 متر أصابهم من الإنفجار ما لم يصبنا ونحن بجانبه، فمنهم من قتل ومنهم من بترت قدمه ومنهم من قطعت يده ونحن الذين كنا أقرب إليه لم نصب بأذى، والسبب في ذلك بعد إرادة الله هو أن فوقنا أكياس طين امتصت الشظايا، فلذلك جاءتنا الشظايا باردة حارة وليست بقاطعة.

لما رأيت الوضع بهذا السوء ناديت: أسامة؟ فقال نعم، وناديت يا فراس يا فراس وكان تحت قدمي وهو يقول أنا هنا

فأخرجته ووضعنا كل الأشخاص المصابين في السيارات ومعهم فراس إلى بيشاور، وأصر عليّ أسامة أن أصحبهم لأرتاح يوماً أو يومين ثم أعود، وفعلاً نزلت مع فراس وأرسلته إلى جدة بعد أن رأى الموت الأحمر. وكانت معي زوجتي فأرسلتهم جميعاً، وبعد اليوم الثاني عدت إلى أسامة وكان الوضع أهدأ لأن هذه بمثابة المعركة الأخيرة للروس، وبعد ذلك اشترى أسامة السلاح وبدأ الاتصال بالأفغان وصار هناك زحف على المنطقة كرد على المعركة الشرسة، وبالتنسيق مع بعض الأمراء الأفغان زحفنا على المطار، وخضنا معركة الانتقام لشهدائنا وأنفسنا، ولتلقين الروس درساً لن ينسوه.

عودة الثأر في خوست

وبالفعل جاءت المعركة في يوم آخر مشهود في موقعة ممر ميراشاه (منطقة جلال الدين حقاني)، حضرتها أنا وأسامة أيضاً، وقاتلنا إلى جانب المجاهدين الأفغان، حتى سيطرنا على مدينة خوست بأكلمها، وعلى المطار الذي كان ذات يوم مصدر تهديد لنا، ويومئذ فرح المؤمنون بنصر الله.

ومع أن طعم الثبات والانتصار في أي معركة، كان عذباً، إلا أن أهمية معركة الثأر في خوست كان مختلفاً، إذ كنا في جلال أباد أيقنا بالفناء ولقاء الله، ولكن بفضل الله تمكنا من النجاة،

وثأرنا بإمكانات أفضل، وخطة محكمة، تمكنا عبرها من القتل والأسر. بل إن الطائرات التي كانت بالأمس تشكل علينا تهديداً، استطعنا إعطاب نحو خمسة منها في اقتحام مباغت لها قبل أن تنطلق على أرض المطار.

حدثت بعض الخسائر في صفوفنا ولكن الغلبة لنا كانت ظاهرة، حتى إننا بتنا في المدينة أنا وأسامة، ومثلما كانت مشكلة أفغانستان دائماً مع العملاء، تم استهدافنا مجدداً في البيت الذي اخترناه للمبيت، لكن إرادة الله والتمرس في الحرب مكنانا من التمويه وتغيير مكاننا قبل أن يدمره قصف جاء في وقت متأخر من الليل، قبل أن ننسحب مرة أخرى من المدينة، لأن الهدف ليس احتلالها والبقاء فيها، بقدر ماهو إلحاق الهزيمة بالأعداء، وضرب ظهورهم بعد أن تولوا مدبرين، كما أن هاجس النصر لم يغب عنا بعد المعركة التي خسرنا فيها أحبة يعزون علينا كثيراً، بل كدنا نحن نذهب ضحيتها أكثر من مرة.

ومن الطرائف التي لا يخلو منها الجهاد الأفغاني الذي جمع أشتات الناس وأفواجهم من ثقافات وأعراق وأفكار، أنني كنت أضاحك أسامة حين تجولنا في المدينة ورأينا الطائرات المحترقة والمعطوبة، فقلت له: الآن جاء وقت المجاهدين الصادقين! في سخرية من أن الأفغان إلى جانب صدقهم

في قتال الروس كانوا يهتمون كثيراً بالغنائم ويتهافتون على الاستفادة منها، حتى إن معظم أمراء الحرب وقواد المعارك في تلك الفترة، أصبحوا ميسورين لكثرة ما استفادوا من مخلفات الحرب. الشاهد هنا أنني وأسامة ذهلنا غداً في الصباح من شراسة الأفغان، فرغم إمكاناتهم البدائية تمكنوا من خطف كل ما تيسر لهم من المخلفات التي كانت في الموقع من طائرات قديمة وأخرى معطوبة وثالثة محترقة، ففككوا كل ذلك، ولم نجد أثر حديد ولا طيارة في الغد.

قد يكون في هذا الوصف شيء من المبالغة في نظر البعض، ولكن المشجع على هذا البأس الشديد في خطف الغنائم، هو أن الجيش الباكستاني فيما علمنا كان ذلك الوقت في سباق مع الزمن للاستفادة من تفوق الروس العسكري والتقني، فكان متفقاً مع المجاهدين على شراء أي حديد أو رجيع أو ما يمكن أن ينتفعوا به فيما بعد، فصارت تلك فرصة الأفغان الذين يُعدّون لما بعد انسحاب الروس، ربما ليس من الجانب المادي وحده، ولكن أيضاً لما يشكله ذلك التعاون من فرصة للتقرب من إسلام آباد، التي يُضعف البعد عنها، ويقوي القرب منها في تلك الأيام، وربما حتى اليوم. فستبقى باكستان هي الرقم الصعب في أفغانستان، في كل مرحلة وفي أي حين.

وقد نكون بهذه المعركة الفاصلة، أعطينا نماذج مختلفة من المواجهات الحاسمة التي توضح الأجواء التي كان المجاهدون في أفغانستان يؤدون فيها مهمتهم، التي مهما قلنا عنها وانتقدناها ستظل على المستوى العسكري والسياسي مرحلة فاصلة في تاريخ القرن الماضي، بل إن الجهاد الأفغاني ظل مسيطراً بمشهده السلبي والايجابي حتى على الأحداث التي جاءت من بعده حتى اليوم، لدرجة أن بعض الإسلاميين المتفائلين وفئات من المجاهدين السابقين يرون أنه كما سقط الاتحاد السوفياتي على يد المجاهدين الأفغان وإن كان في سياق الحرب الباردة، ربما نشهد ذات يوم سقوط الرأسمالية الأميركية بسبب تعاملها الراديكالي مع الجيل الجديد من الجهاديين الذين وإن أقررنا باختلافهم عن سابقيهم، إلا أن أخطاء أميركا الاستراتيجية وحماقاتها السياسية، وفرت لهم فرصة لرفع سقف توقعاتهم وطموحاتهم هم ومن يتقاطعون معهم، في إسقاط أميركا جزئياً أو كلياً.

وعلى الرغم من أن حلماً كهذا في نظر البعض غير واقعي بسبب اختلال موازين القوى بين الجهاديين والولايات المتحدة التي أصبحت تقود حلفاً دولياً ضد طالبان والقاعدة في أفغانستان والعراق وأنحاء متفرقة من العالم، فإن الخسائر التي تكبدتها أميركا على هذا الصعيد اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً، لا يستغرب أن تهوي بها إلى درجة يصعب معها النهوض من كبوتها كما حدث

مع الاتحاد السوفياتي مع الفارق الذي لا ينكر بين القوتين في بنيتها السياسية ومنهجيتها العسكرية، فكما يرى المحللون الاتحاد السوفياتي انهار من الداخل بسبب سياساته الشيوعية المتطرفة، قبل أن يهزم عسكرياً. وهذا ما يتوقع أن يحدثه المحافظون الجدد بأميركا، فإن كثيراً من المحللين حتى من غير الاسلاميين يخشون وأحياناً يتمنون أن تلحق سياسات المحافظين بأميركا في حربها المفتوحة تحت ذريعة «الإرهاب»، مثلما ألحقته سياسات الجيش الأحمر بالاتحاد السوفياتي.

لكن هذه النظرة يقابلها تصحيح من جانب مستقلين، يلاحظون أن الفارق الجوهري بين القوتين، هو أن أميركا رغم شربها من «خمر القوة» كما يقال، إلا أنها تمارس نقداً ذاتيا ومراجعة لعدد من خطواتها السياسية، يساعدها في ذلك هيمنة فريقين سياسيين متصارعين عليها وهما الديمقراطيون والجمهوريون. أضف إلى ذلك حظوتها بمؤسسات مدنية عريقة وإعلام مؤثر حر، رغم ما يتردد عن هذا الأخير من اتهامه بأنه مجير في السياسات الكبرى لمصالح لوبيات الضغط، التي تؤهلها إمكاناتها المادية والإعلامية الضخمة على التأثير في القرار الأميركي.

قبل أن أختم هذا الفصل، لا بد من التنبيه إلى أن أسامة بن لادن الذي كان نهجه فيما بعدُ مثلاً سيئاً للكثيرين في مواجهته

مع الغرب ونقل المعركة إلى بلدان إسلامية عدة، إلا أنه في تلك المرحلة كان بشهادة معظم الناس على النقيض تماماً، فهو الحوض الذي تلتقي عنده كل الجداول، فتجده محافظاً على الحد الأدنى من العلاقة حتى مع من يفترض أن يكونوا أعداءه. وفي مسألة التكفير التي كانت مبنى نهجه فيما بعد، كان حينها أبعد الناس عنها، حتى إنه ذات مرة وجد شخصا في إحدى المجالس يتحدث عن كفر أحد الزعماء العرب، فطرده من المعسكر. فسبحان مغير الأحوال!

ومن الملاحظات التي لا بد من ذكرها على هذا الصعيد، أنني تمعنت بعد انتشار التكفير في العهد الجديد، ففكرت أين كانت هذه الشريحة من المنحرفين فكرياً؟ وما موقعها من الجهاد الأفغاني؟ حاولت مراجعة كل الجلسات واللقاءات والمعارك، والأحاديث الخاصة حتى مع أسامة، فتوصلت إلى حقيقة أتمنى أن يناقشها الذين شهدوا تلك المرحلة ويصححون لي إن كنت أخطأت، تلك الحقيقة هي: أن المنشغلين بأعراض الناس وتصنيفهم إلى مؤمن وكافر، كانوا أساساً مجموعة صغيرة من المصريين والجزائريين الذين جاؤوا أفغانستان، ولم يكن لهم دور يذكر في المعارك ولا في القيادة ولا التخطيط، فهم في بيشاور يتجادلون ويختلفون ويصنفون، بينما المعارك كانت تشتعل في مكان آخر. هذه الشريحة الأولى.

أما الشريحة الثانية التي كانت أقل من هذه، فهم المتحجرون من السلفيين الذين جاؤوا من بعض دول الخليج واختلطوا ببعض الأفغان، الذين لديهم بعض البدع والتقاليد التي كان الحامل عليها في أغلب الأحيان الجهل، فصنفوهم على أنهم ليسوا موحدين، وأنهم لا يقبل منهم جهاد. وحاولوا اللعب على هذا الوتر في تقديم بعض المجاهدين على بعض، على أساس صفاء العقيدة وفسادها. لكن هذه الشريحة رغم اعتراضي عليهم كما سيأتي أثناء جلسات الإصلاح، ورغم إعلاني لرفض منهجها هذا وأنا في أفغانستان، إلا أنني لا أراها صاحبة الفكر الذي جاء فيما بعد واستحل دم المسلمين، وتجاوز في تكفيره إلى بعض العلماء مثل الشعراوي والغزالي وغيرهما.

وفي أسوأ الأحوال نقول إنهما جناحان، وإن كان الأول أخطر من الثاني. أو أن الأول ترجم أفكاره عسكرياً، فيما لم يتجاوز الثاني التنظير والتصنيف. والله أعلم.



الفصل الثالث

الإخوة الأعداء



في خريف الجهاد الأفغاني، وقبل أن تنتهي التشطيبات الأخيرة لانسحاب الروس، وظهور التنازع على الأرض على هيئة معارك عسكرية بين إخوة النضال والجهاد، أصبح العرب ما بين مَنْ حسم أمره وعاد إلى بلاده، وآخر يترقب ما ذا يحدث، وثالث عقد العزم على الرحيل إلا أنه بقى أشبه ما يكون بالمتفرج والسائح أحياناً، إذ لم يعد هنالك عمل حقيقي على الأرض يغري على تدخل المقاتلين المحايدين، خصوصاً من العرب الذين حسم معظمهم أمرهم، بعدم الخوض في المعارك الداخلية بين المجاهدين ضد بعضهم، وإن كان هوى العرب يتوزع في أغلبه بين قلب الدين حكمتيار وأحمد شاه مسعود في تلك المرحلة الحرجة من التاريخ الأفغاني، التي بدلاً من أن تمثل لنا «الحلم» الذي انتظرناه طويلاً، غدت كابوساً، كاد أن يُذهب جميع الدماء التي سفكت والتي أنفقت في سبيل تحرير أفغانستان عبثاً، هذا إن لم يكن بالفعل قد أذهب خلاف المجاهدين وتنازعهم في الأمر تضحيات المسلمين الجسيمة بأموالهم وأنفسهم، وكل ما أوتوا.

وفي العصر الحديث لم يجتمع المسلمون على شيء مثل اجتماعهم على الجهاد الأفغاني، حتى تفوق التجييش له والتأييد على ذلك الذي حُشد لفلسطين، بل إن أغلب المجاهدين في ذلك الوقت، كانوا يعتبرون تحرير أفغانستان مقدمة لتحرير فلسطين، وحلموا بنقل المعركة بعد أفغانستان مباشرة إلى الأراضي المحتلة

في أرض فلسطين. لكن السلاح بدلاً من ذلك اتجه إلى الصدور مع الأسف الشديد. ومع أن بوادر الانشقاق والتوتر قائمة بين أطراف عدة بين الحين والآخر، إلا أن أكثرها خطورة، هي تلك المعركة التي نشبت بين مجموعة قلب الدين حكمتيار ذات التوجه التقليدي والإخواني، ومجموعة جميل الرحمن ذات التوجه السلفي[13]، وسبب خطورة ذلك الخلاف أنه جاء في وقت كان الجميع ما زال يأمل في ترتيب البيت الأفغاني من الداخل ولم يستفحل التسابق إلى كرسي الحكم في أفغانستان بعد، لأن الانسحاب لم ينته بالكلية حتى الآن، وكابل لم تزل خارج أيدي المجاهدين. يضاف إلى ذلك سبب آخر، وهو البعد المذهبي والطائفي، فعلى الرغم من أن الخلاف كان قائماً بين الأفغان منذ وقت مبكر إلا أن أغلبه كان منصرفاً إلى المطامع والتبرعات ونحو ذلك، لكنه لم يأخذ بعداً طائفياً، لهذين السببين كانت حادثة الخلاف الذي نشأ مؤسفة، وأشعلت محاولات إطفائها حماسة الكل، سواء في المحيط الأفغاني والباكستاني أو الإسلامي والعربي.

13 - لاحظت دائماً ميلاً من الدكتور سعد الشريف إلى نقد التيار السلفي في معظم مدارسه، وميلاً غير كامل للمدارس الأخرى، مثل ذات التوجه الصوفي غير المتطرف والإخواني المعتدل. ومع أنه ينفي هذه الملاحظة إلا أن الأمانة العلمية تقتضي تسجيلها. لكن هذا لا يعني تشكيكاً في نزاهة دوره في هذا المسعى الذي أقره عليه رموز السلفية في ذلك الوقت مثل الشيخ بن باز وصالح بن حميد وغيرهما.

قلت أنا: «خصوصاً في المملكة العربية السعودية، التي كانت بأمرائها وعلمائها وشعبها، بذلت كل مستطاعها للحيلولة دون حرف الجهاد الأفغاني عن مساره، أو حتى تشويه صورته[14]. بل حتى العلماء السعوديين الكبار مثل الشيخ عبد العزيز بن باز ومحمد صالح بن عثيمين، ينصحون كل من يبلغهم بشيء سلبي عن المجاهدين وجهادهم بالكتمان، لأنهم يطمحون إلى أن خاتمة الجهاد ستكون حسنة، ولا تؤثر عليها أخطاء يظنونها «زلة» لا ترتقي إلى القدح في سلامة الجوهر».

في هذه الأثناء وقبيل أن تسقط كابول، أعلن الشيخ جميل الرحمن في كونر المنطقة التي هو فيها وما جاورها، إمارة إسلامية، ما أغضب قلب الدين حكمتيار الذي كانت بعض المناطق التي تدخل ضمن إمارة جميل الرحمن حسب الإعلان الأخير، تقع

---

14 - من الصدف أنني بعد تحرير هذا الجزء من الكتاب بنحو عام، سمعت رئيس الاستخبارات السعودي الأسبق الأمير تركي الفيصل، يفسر الإهتمام السعودي في ذلك الوقت بأفغانستان، ضمن محاضرة له في المدينة المنورة، جاءت في مؤتمر نظمته الجامعة الإسلامية في مطلع 2011 عن جهود المملكة في خدمة قضايا المسلمين، وكان أطرف ما أشار إليه أن أفغانستان كانت أول دولة تعترف بالمملكة العربية السعودية عندما قامت قبل نحو 70عاماً. وفي المحاضرة نفسها تم استعراض كلمة لملك السعودية الراحل فهد بن عبد العزيز تحدث فيها بكل عاطفة وحب وأسف عن الاختلافات التي نشأت بين الأفغان في تلك المرحلة. أما المشهد الذي ترك أثره علي وأنا صبي هو خطبة عيد الفطر 1412هـ التي بكى فيها الشيخ صالح بن حميد في الحرم المكي الشريف، وأبكى ملايين المصلين الذين حضروا، حينما توسل إلى المجاهدين على منبر الكعبة المشرفة قائلا: نناشدكم بالله أن تتساموا عن خلافاتكم... فقد نكستم الرؤوس بعد ارتفاعها. ولا أزال أتذكر تلك العبارة ونشيج الشيخ بالبكاء. ومرد الأسى بين السعوديين في ذلك الوقت كما أفهم وقتئذ وأنا في المرحلة المتوسطة، ثم أدركته فيما بعد، هو أنهم فجأة تكشفت لهم حقائق الجهاد الأفغاني، بعد أن ظنوه مثالياً، فكانت حسرتهم على انهيار تلك الصورة مريراً جداً. المحرر

في نطاق نفوذه، وهو من الناحية العسكرية والخبرة القيادية كان متفوقاً بمراحل على الشيخ الوقور جميل، الذي تبين فيما بعد أنه كان ورعاً تقياً، وإنما زين له بعض من حوله تلك الخطوة المفاجئة.

قامت إثر ذلك معارك بين الجانبين، كاد يذهب ضحيتها مقاتلون أبرياء، قدموا إلى أفغانستان بقصد مجاهدة الروس، ولكنهم فوجئوا بأنفسهم يُزج بهم في معركة بين فريقين كلاهما ينتمي إلى دين وأمة واحدة، ولولا أن تسوية تدخلت فيها دول عدة، تمت يومئذ لقتل على أيدي الفريقين مجاهدون سعوديون[15]. ومما كاد يزيد الأمر سوءاً هو المنهج الذي سلكه أنصار كل فريق في محاولة استقطاب الأنصار وتأليب المتعاطفين معه ضد خصمه، حتى بلغت التعبئة حداً، جعل بعض أنصار جميل الرحمن من سلفيي السعودية يصعّدون الأزمة ويجيشون المشايخ والجماهير في السعودية ضد من يصفونهم بالمبتدعة والصوفية من فريق حكمتيار، وأن أهل التوحيد يقتّلون، وأن البيوت تدمر، والأعراض تنتهك، ولا بد من الانتصار للكرامة، وكان الخطاب الحماسي في تلك الأيام على أشده، بعد أن تعالت أصوات الانتقام والتظلم من الجانبين.

---

15 – وكان من بين أولئك الذين كادوا يقتلون الزميل حسن مفتي المشهور بلقب «الخفاش الأسود»، وكان من مقاتلي جميل الرحمن وذكر أن مجموعته حوصرت في كمين لجماعة حكمت يار، وكادوا يقتلون لولا تلك التسوية، ومنذ ذلك اليوم ترك الجهاد الأفغاني بعد أن عرف حقيقته المرة. انظر كتابي «محاكمة العلوي والخفاش» إذا شئت. العبيكان ط 2008

في غضون ذلك كان لا بد من القيام بمحاولة صلح بين الجانبين، فمن المعيب جداً أن يقتل بعضنا بعضاً ونحن نزعم أننا مجاهدون في سبيل الله نقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فتم تشكيل فريق مكون من أشخاص مستقلين، إلى جانب شخصين يمثلان طرفي النزاع، وذلك للسعي في إقناع الطرفين بأنه لا جدوى من سفك الدماء والتقاتل بين الإخوة، وأن «الاصلاح» هو الحل الذي وجه به الله المؤمنين في مثل حالات كهذه، وعلى الجميع تلبية نداء الله.

هذه الفكرة وجدت صدى من الجميع، وكنت رغم سني، إذ لم أتجاوز حينها الـ 24 إلا أن أسامة وجد فيّ الشخص المناسب لتمثيل الرؤية المستقلة، التي تتقصى الحقائق وتحصر الأضرار إن وجدت، وتنزع فتيل الأزمة التي نشبت بين الإخوة.

أخطر ما في تلك المرحلة أن الغالبية لم تعد منشغلة بالجهاد الذي كان يوحّد الجميع إلى حد ما، ففيما يعد الأفغان العدة للأيام القادمة وظهرت خلافاتهم السياسية على السطح، بدأ كل طرف من الشباب العرب يبحث عن خياراته، فالشباب مثلاً يستطيع بعضهم العودة إلى بلادهم، ولكن منهم من يخاف أن يعتقل حين يعود مثل بعض الإخوة المصريين والجزائريين والليبيين...إلخ، وهنالك كبار السن الذين تقطعت بهم السبل

واستحسنوا البقاء. الحاصل أن الكل يبحث عن الحل الذي يناسبه خصوصاً وأن الباكستانيين أصبحوا يضيقون على المجاهدين الذين ينتقلون بين أحياء بيشاور ويبنون المساكن والمخيمات، في حين تفكير الأفغان في المناطق التي ينبغي أن يستولوا عليها لتكون تحت أيديهم قبل تمام الانسحاب.

نعود إلى صلب الحديث وما جرى، فمنطقة «كونر» التي أعلنها الشيخ جميل الرحمن إمارة، لشدة ما تتلقى من الدعم السلفي بوصفها منطقة أهل الحديث الأقرب إلى أهل السلفية في باكستان تضخمت إمكاناتها فأصبحت تتوسع وتزحف إلى مناطق يفترض أنها تتبع حكمتيار كما أشرنا سابقاً، فاحتد الخلاف وأصبح الرصاص لغة بين الجانبين. وكان من المؤسف أن الشيخ الشامي عدنان عرعور[16] رغم أنه محسوب على السعودية في ذلك الوقت فهو قادم من الرياض، التي كانت تدعم الجهاد بشكل عام، إلا أنه كان له نصيب وافر من التأجيج الذي حصل بين الجانبين، وسجال البيانات المحرضة ضد حكمتيار، والمنحازة إلى جميل الرحمن للأسباب المذكورة.

16 – الذي أعرفه في أيامنا هذه أن الشيخ عدنان من الشخصيات البارزة في السعودية، التي جندت نفسها للدفاع عن الشريعة، ومحاجة المخالفين لنهج أهل السنة والجماعة مثل بعض غلاة الشيعة، وكانت له بعض المواقف المشرفة، رغم حدته المشهورة.

الحاصل قررنا بذل جهد لإصلاح ما يمكن إصلاحه، وكان مما قلنا لهم إنه لا ينبغي أن تتسابقوا إلى إعلان الإمارات واحدة بعد أخرى، فأفغانستان يجب أن تبقى دولة واحدة، فأكدنا على أهمية أن تبقى الأمور على ما هي عليه أثناء الجهاد حتى تقوم الدولة الأفغانية، من دون أن يحاول كل طرف أن يتمدد أو يتوسع على حساب الطرف الآخر، فكانت دعوة أخرى وجدت تفهماً واستحسانا من الجانبين والحمد لله.

المقرئ الشرس!

ذهبت أنا ومقرئ عراقي يدعى أبو هاجر، حافظ لكتاب الله ويتلوه بصوت جميل، وهو معتقل في أمريكا منذ تسع سنين أو أكثر، بعد أن سلم إليها من جانب ألمانيا، إذ كان في زيارة لها تاجراً في بيع السيارات المستعملة، يشتريها من ألمانيا ويبيعها في السودان، فحدث أن جمعته مناسبة من المناسبات بجماعة في مسجد بألمانيا فتحدث عن الجهاد، فاعتقل، وسُلم لأميركا بذريعة أنه يتاجر لحساب أسامة بن لادن، والصحيح أنه كان بالفعل يعمل مع أسامة في إحدى شركاته لكنهما اختلفا فيما بعد وتركه.

وكانت أكبر قضية سجلت ضده، أنه لما أدخل السجن تم تجريده فيما سمعنا من ثيابه بقصد تفتيشه، فحاول إعاقة عمل الجندي المكلف بالمهمة، ثم بعد إصرار الموظف على دفعه

إلى خلع ملابسه، استجمع أبو هاجر قواه فأدخل أصبعه في عين الجندي واقتعلها، فحكمت عليه المحاكمة بسجن مدته عشرات السنين، حسب ما سمعنا.

والمقصود أن أبا هاجر كان معي، فشكلنا لجنة برضى الطرفين (جميل وحكمتيار)، وبشهادة (سياف)، وكان مجموع لجنة الصلح التي تم تشكيلها خمسة أشخاص هم أنا وأبو هاجر وعدنان العرعور ممثلاً عن جماعة جميل الرحمن وأبو صهيب ممثلاً جماعة جميل الرحمن، وشيخ باكستاني يسمى سميع الله، وهو مرجع باكستاني من علماء بيشاور وخطبائها، يمثل بشكل أو بآخر الصوت الباكستاني. انطلقنا والتقينا أول الأمر نحو حكمتيار بعد أن نسق لنا أسامة معهم، وجوهر مهمتنا أن لا يتقاتل المجاهدون مع بعضهم وأن يكون الصلح عاجلاً حتى لا تتفاهم الأمور إلى أسوأ، خصوصاً وأن المجاهدين مروا قبل ذلك بتجربة مريرة في اغتيال عبد الله عزام، فكانوا يخشون أن تتطور الأمور إلى ما لا تحمد عقباه.

طلبنا من حكمتيار وجميل أن يكتبا تفويضهم إيانا بالسعي في الصلح خطياً، كي لا ينسحبوا من التفويض الشفوي فتذهب جهودنا هباءً بتراجع أحدهما أو كلاهما، فذهبنا أولاً عند سميع الله نائب جميل فكتب لنا التفويض لأن جميل كان غائباً في منطقة

حدودية تدعى «باجور»، قصدناه فيها فاعتمد توقيع نائبه، وكذلك فعل حكمتيار. إلا أننا لم نكتف بهذا فطلبنا منهما أن يكتبوا لنا إلى قوادهم في المنطقة المضطربة في «كونر» حتى يتعاملوا معنا بحسن نية، لنقف على الأوضاع بأنفسنا. سرنا إلى «باجور» حيث يتنازع الفريقان، أنا وعدنان وأبو صهيب وأبو هاجر ورفضنا أن ننزل عند أحد الطرفين حتى لايكون هناك نوع من المحاباة، فنسقت لنا الحكومة الباكستانية مع مكتبها السياسي في المنطقة لننزل فيه، غير أن عدنان رفض إلا أن ينزل عند جميل الرحمن فقلنا هذا شأنك، فلما أصبحنا قصدنا الشيخ جميل فكان متعاوناً جداً وبدا منه أنه يرغب في حل القضية، لكن من الواضح أن ثمة جهات تضغط عليه ليبدو أكثر صرامة، ولم يكن له من شرط سوى أن يرجع له حكمتيار المناطق التي انتزعها منه بقوة السلاح، فأفهمته أن المشكلة ليست في إرجاع المناطق التي أخذت، القضية هي حل إشكالية واضحة هي أنك أعلنت إمارة إسلامية من طرف واحد وهم غير موافقين، فالفتوى هي أنه حين تعلن الإمارة الإسلامية لزمت الجميع بحكم فقه «الغلبة»، وهذا ليس له ما يسنده من الواقع الذي على الأرض، ونحو هذا الكلام. وفي كل الوقت لم يظهر منه أي تذمر أو انزعاج مما نقول، بل بدا مرحبا بكثير من الأفكار والحجج التي سقناها وعرضناها عليه، مما أسفر عن معدنه الأصيل وحسن تهذيبه وصدق نيته.

دم جميل الرحمن

اتفقنا بعد هذا التجاوب الذي لقيناه من جميل على أن نعود إليه في اليوم الثاني للإفطار عنده واستكمال الحديث، وهذا ما حدث فبعد صلاة الفجر أتيناه وفطرنا عنده ثم قلنا ننتقل إلى جماعة حكمتيار لاستكمال اللازم، وكان ذلك ضحى يوم الجمعة.

انطلقنا وفق الجدول المعتمد نحو الفريق الآخر، إلا أن عرعور رفض أن يصحبنا بحجة أنه يخشى أن يصاب بمكروه، بحكم أنه محسوب على خصوم حكمتيار، فذكرناه بأننا معنا خطاب رسمي من الطرفين بتفويضنا وينص على عدم التعرض لأي منا بأذى، ونحن في مهمة رسمية ولسنا متسللين. أصر على البقاء مع أصحابه فغادرنا موقع جميل إلى مقر قيادة حكمتيار، فتعاون معنا وأنجز مطالبنا ثم أقفلنا راجعين إلى جميل لنبلغه بأجواء الصلح الايجابية، وننهي مهمتنا على أحسن وجه، لكننا ونحن عائدون في طريقنا إليه، تفاجأنا بالمنطقة قد طوقت وبتجدد الاشتباكات، ونحن في سيارتنا ومعنا حراسة شبه رسمية لم نتخوف كثيراً، لكن المفاجأة أننا حين سألنا عن سبب هذا التوتر أُخبرنا بأن جميل قتل على أيدي شخصين عربيين، والمضحك أن الأمن الباكستاني حين مررنا به وعلم بأننا عرب اتهمنا بأننا من قتل الشخص الذي كنا في ضيافته صباحاً!

قادنا الأمن إلى مركزهم بقصد حمايتنا على حد زعمهم في تناقض غير مفهوم، فلما وصلنا في طريقنا إلى بيت الشيخ جميل طلبنا منهم أن يسمحوا لنا بالمرور عليه فسمحوا لنا، وحاولنا أن نقابل عدنان وأبو هاجر فرفضا مقابلتنا، وكأنهم يريدون اتهامنا بالضلوع في مقتل الرجل، لأننا ذهبنا قبل أن يتم قتله، فزعموا أن تركنا المنطقة قبل لحظات من اغتياله دليل على علمنا المسبق بذلك، وهذا من أغرب البهتان، فأي مصلحة لنا في ذلك ومجيئنا كان لإيقاف سفك الدماء والصلح بين المجاهدين؟ ولماذا نعود لمكان قمنا فيه بجريمة قتل؟ وكان الذي قتل جميل شخص يدعى صيب الرومي مصري الجنسية، يبدو أنه من المتعصبين لحكمتيار فقرر أن يصفي جميل الرحمن الذي زعموا أنه كفرهم وبدّعهم وفسقهم. وأسوأ ما فعله أنه جاء عند الشيخ حتى استأمنه، ثم قال له أريد أن أكلمك في موضوع خاص، فجاء جميل ليكلمه فأطلق عليه رصاصتان في رأسه قبيل صلاة الجمعة، وهرب ولحقه حراس جميل وقتلوه وخلعوا إزاره ليعرفوا هل هو مسلم (مختن) أم كافر على ما ذُكر لنا بعد. فقتل رحمه الله غدراً، وكان سمحاً كريماً في اللحظات التي لقيناه فيها[17]!

---

17 – عرفت فيما قبل أحد المقربين السعوديين جداً إلى جميل الرحمن وهو الشيخ سراج الزهراني (أبو الحارث) وكان من المنتمين للتيار السلفي (الجامي) كما يوصف، وحدثني أنه كان من سقطت عين جميل الرحمن في يده يوم اغتيل. وكان الذي حبب جميل إلى الشبان السعوديين السلفيين، وجعله مقدماً لديهم على بقية أمراء الجهاد الأفغاني مثل أسامة بن لادن وعزام وحكمت يار وغيرهم، هو اهتمامه بالدين والسنة والاستقامة الأخلاقية، وليس قتال الروس فقط. هذا ما فهمت من الزهراني الذي كان أدرى=

بعد مقتل جميل، عادت حدة الأزمة من جديد فضيق على العرب، أما رجال الأمن الباكستاني فقادونا إلى المكتب السياسي فأخضعونا لحراسة مشددة، ففهمنا أننا متهمين بالقتل وأصبحنا في ورطة مع الأفغان والباكستانيين معاً، ويبدو أن عرعور ومن معه وشوا بنا، هكذا كان تفسيرنا للانقلاب المفاجئ في تعاملنا، ورفض عدنان استقبالنا.

في الصباح عندما استيقظنا إذاهم يأتوننا بسلاسل وقيود، فخاطبنا المسؤول وقلنا: ماذا يجري، هل يعقل هذا!؟ فقال: لا، أنتم ضيوف ولكم حق الاحترام والتقدير، فأخذوا السلاسل ووضعونا في سياراتنا ومعنا حرس وأرسلوا معنا سيارتين إلى بيشاور، لأن البوليس المركزي فيها. وفي الطريق تمكنا عبر جهاز «الثريا» الذي أصبح متاحاً في تلك الأيام أن نتصل بأسامة والإخوة في بيشاور، لنخبرهم بالمحنة التي وقعنا فيها بعد أن تأكدنا أن اتهامنا أصبح رسمياً عندما سمعنا عبر إذاعة البي بي سي أن جميل الرحمن قتله أحد العرب، وهناك اثنان متهمان أحدهما يدعى أبو هاجر والآخر يدعى الشيخ سعد، وهذا ما جعلنا نتيقن من اتهامنا، ومصدر الخبر هو المكتب السياسي في «باجور» الذي كنا ضيوفاً عنده!

= الناس بالمنطقة إذ تزوج فيها وعاش فيها بعد الجهاد سنوات عدة، قبل أن ينتقل إلى المملكة ويصبح أحد رموز الوسطية فيها. وهذا من أكثر ما يميز أتباع جميل في أفغانستان، أن معظمهم لم يتطرف فيما بعد، ويصبح إرهابياً أو تكفيرياً كما حدث مع آخرين.

حين وصلنا بيشاور كان أمر اعتقالنا محتماً، لولا أن أسامة ومعه مسؤول الهلال الأحمر وبعض الإخوة، استطاعوا إقناع الشرطة باحتجازنا في «فلة» كنوع من الإقامة الجبرية. وكنت في موقف حرج جداً، لأنني في تلك الفترة معي زوجتي، وكنا كمن أراد السعي للخير فقطف الشر من حيث لا يدري. أبلغنا السفارة السعودية بما جرى، فاتصلوا بالجهات الباكستانية، حتى تفهموا القضية واستطاعوا تحريرنا من الأسر بعد أيام من الإقامة الجبرية. وأثناء ما كنا هنالك أرادوا أن يذهبوا بنا إلى «غرفة الكهرباء» ليعذبوننا حتى نعترف بجريمتنا، كما علمنا من أحد الشرط، إلا أننا عبر اتصالاتنا تمكنا من إحباط خطتهم تلك أيضاً. وفيما يبدو أن ملفنا تم تحويله من الاستخبارات المدنية التي كانت في «باجور» إلى العسكرية في الجيش الباكستاني التي بيدها ملفات المجاهدين، فأفتت على ما تبين لاحقاً بأن احتجازنا غير مبرر، فتم الإعتذار إلينا، وطُلب منا مواصلة جهد المصالحة بعد أن هدأت الأوضاع!

والذي حيرني هو أن جميل الرحمن لم يظهر إلا في آخر أيام الجهاد ولم نكن نعرفه من قبل، وكل علاقتي معه في يوم ونصف اليوم الذي أتيته فيه، وكان في جلستنا معه ودوداً، وإذا تحدثت أنصت وقرر حديثي، بل قدمني في الصلوات رغم صغر سني، وزادني تقديراً لمّا علم أنني من أهل المدينة ومن آل النبي

عليه الصلاة والسلام، فلم أفهم كيف تم الربط بيني وبين مقتله حتى من طرف خفي!

قتلة ولكن مصلحون أيضاً!

رضيت بخوض مهمة «الصلح» مجدداً تحدياً لمرضى القلوب الذين وشوا بنا ونحن في غفلة من أمرنا. وإلا فأي مصلحة نجنيها وراء مطاردة الأفغان فهم المستفيد من أي حل إيجابي وهم المتضررون من العكس أيضاً، أما نحن «فلا علينا ولا لنا». مضينا وعدنا بإصرار أكبر هذه المرة، مع شيء في النفس لا يخفى لإثبات أننا هنا، وأعداؤنا عليهم أن يموتوا بغيظهم. بل جعلتُ الحادثة التي حصلت مدخلاً للتأكيد على ضرورة الصلح قبل تفاقم الجرح، وحدوث شرخ آخر أكبر من الذي أحدثه مقتل الشيخ بين الأفغان والعرب. وقلت لهم بصريح العبارة:»المشكلات منكم، وما حدث كله أنتم من يتحمل مسؤوليته. مشكلاتكم أيها الأفغان هي التي جعلت العرب تتدخل»، وأعلنت ذلك جهرة في وجه حكمتيار وسياف والقيادات، وأعدنا تشكيل اللجنة نفسها بما فيها العضو الباكستاني واتفقنا على أننا نعود مرة أخرى بعدما اجتمعنا بنائب جميل الرحمن وخليفته سميع الله والتقينا به وكتب لنا تفويضاً بالدخول إلى المناطق التي تقع تحت سيطرته. الأخ عدنان أيضاً التقينا به في مكتب جميل الرحمن في بيشاور على أساس أنه يشترك معنا ولكنه أبدى تخوفه، فاتفقت أنا وأبو هاجر وأبو صهيب على الذهاب

إلى «كونر» مجدداً، وأخذنا معنا كاميرات فيديو هذه المرة من باب التوثيق لأن الوضع كان يغلي، وصدرت فتوى من الشيخ عبد الله بن جبرين بتضليل حكمتيار وصدرت من آخرين ردود انعكاسية، فيما قمنا من جانبنا بإصدار بيان حول اللجنة وأنه ينبغي التثبت وعدم الإسراع في إصدار الأحكام حتى لاتثور الفتنة، وكانت تنشر هذه البيانات في صحف باكستانية ولعبت دوراً إيجابياً في تخفيف وإخماد الفتنة، وهذا كله قبل فتح كابل. الشاهد أنه تم الدخول إلى كونر حتى نرى هل هناك قتال وهل هناك دماء، فحتى نستطيع جمع هؤلاء الفرقاء، لا بد من الوقوف على حقيقة ما جرى.

ومن بين الأسئلة الأكثر إلحاحاً علينا بوصفها الأكثر إثارة للفتنة داخل باكستان وخارجها: هل جماعة حكمتيار يقتلون النساء والأطفال؟ وهل جماعة جميل الرحمن في العراء يفترشون الأرض ويلتحفون السماء؟ على حدّ زعم البيانات التي يدبجها البعض، ليستدر بعض عطف السعوديين ليبعثوا تبرعات أكثر وأسخى. وفيما بعد علمت أن نهج التوثيق الذي بدأنا به وقع منهم موقعاً خطراً، وذلك أنه كذّب دعاواهم بالبرهان الساطع، فهم كانوا يروجون لإمارة إسلامية، مُنع فيها الدخان وكان أهم شيء عندهم الدخان، وليس فيها الموسيقى، فذهبنا حتى نرى بأعيننا، فدخلنا إلى المنطقة رغم قلة الأمن فوجدناها في هذه النواحي كباقي مدن أفغانستان.

أول معسكر دخلناه كان معسكر حكمتيار والتقينا بهم ورحبوا بنا وصلينا معهم فوجدنا صلاتهم كصلاة غيرهم، وسألناهم عن ذلك فقالوا: جميع أهل هذه المنطقة أهل حديث ولسنا مقلدين، فقلنا لهم ما سبب الخلاف الذي بينكم وبينهم والحال هكذا؟ فقالوا ليس هناك خلاف في العقائد والدين وإنما هو خلاف في النفوذ. وأطلعونا على تجاوزات جماعة جميل الرحمن في حرق بعض محلات الموسيقى وبعض بيوت مناوئيهم، ونحو ذلك، وسجلنا جميع ذلك.

بعد ذلك انتقلنا إلى جماعة جميل في منطقتهم فاستضافونا وأنزلونا، فوجدنا منطقة فيها كهرباء عبر مولدات كبيرة، وبيوت فارهة متميزة، وأجنحة مفروشة، ومزارع أرز، وهي مناطق ريفية جميلة، وتحدثنا معهم عن أهمية الصلح وما فيه من الخير للجميع. وفي الصباح تجولنا في المنطقة والتقينا بالناس وسمعنا شكاواهم، وانبهرنا بحال المنطقة المعيشي والتموي، وكانت الكهرباء أكبر شاهد عليه، فلا تكاد توجد في تلك المنطقة سوى عندهم، بسبب سخاء المساعدات التي تتدفق عليهم من السعودية. ورأينا الدخان والمسوار (مسحوق تبغ يمضغ) وهو من الحرام عندهم، ولديهم كل شيء في السوق، ونحن نوثق ما نشاهد من دون علم القيادات، لأننا بعد صلاة الفجر ذهبنا لوحدنا وزرنا المناطق كلها ودخلنا بيوت الناس، وشعروا بذلك فلحقوا بنا

وضيقوا علينا، فلما رجعنا تلطفنا معهم، وأخبرناهم بأن هذا شيء بسيط من باب الاستطلاع فقط، ولكننا في حقيقة الأمر لا نزال نخشى من مكرهم.

تبين صحة اعتقادنا، فما كانوا يتعاونون في شيء معنا، ربما لأنهم تلقوا أمراً بذلك خلافاً لما تم التوقيع عليه، فلما رأينا هذا التوجه منهم، سلكنا سبيل التخفي في إنجاز مهمتنا، واعتمدنا على الصورة في توثيق المشاهد وتسجيلها، لننقل الحقائق التي على الأرض لمن يرغب في التثبت. تغدينا في اليوم التالي وانطلقنا، وظهر لنا أن قواد المنطقة التي نحن فيها الآن لا يعترفون بسميع الله ولا بجميل الرحمن وأن فلان وفلان هم الحكام الحقيقيون وليس جميل الرحمن ولا سميع الله. وبعد أن تجاوزناهم بمسافة ثلاث ساعات تقريباً شعرنا بنوع من التوجس، سريعاً ما ترجم بمعركة قصف مكثف نحو جهتنا، فعرفنا أنهم أرادوا استهدافنا بعد اكتشافهم أننا وثقنا الحقيقة من مصادرهم بعد مغادرتنا، والمقصود بضربنا في المنطقة التي صرنا فيها، هو قتلنا في منطقة حكمتيار التي أصبحنا الآن على أبوابها، ليوقعوا بينه وبين العرب، لكن جماعة حكمتيار سريعاً ما ردوا عليهم الصاع صاعين بقصف مكثف حتى أسكتوا نيرانهم، وهذا ما كان يحيرني في الأفغان، يجلس معك أحدهم وتسمر معه وتتناولان الطعام وتتلاطفان، ثم من الغد يقاتلك!

عدنا إلى بيشاور ونشرنا بيانات تكشف حقيقة الوقائع على الأرض، فقال عرعور هذا الكلام غير صحيح فرفض التوقيع حتى بعد أن أريناه الصور، والتقينا بالشيخ الباكستاني ووقع على البيان، واختلف الوضع بعد ذلك وجاءت لجنة صلح من السعودية برئاسة مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية آنذاك الشيخ عبد الله بن عبد المحسن التركي، وجاء مع لجنة مرسلة من الملك فهد فالتقينا به، وسأل عن الحقيقة وأعطيناه نسخاً من البيانات الموضحة لرؤيتنا، وموجزها أن «القتال لم يكن بسبب التوحيد والشرك، وإنما هو قتال قبائل وصراع على نفوذ، لا أكثر، فأخذوا بكل ما ذكرنا». عندها جمع التركي حكمتيار وسميع الله وأعلنا بيان الاتفاق في حضوره، ووزع على وسائل الإعلام. وكان ذلك أول قطف لثمار لجنتنا الإصلاحية.

المواجهة مع ابن باز[18]

لشدة ما أخذت قضية إمارة «كونر» من أبعاد خطرة، أقحم فيها حتى العالم الرباني السعودي الشيخ عبد العزيز بن باز وبقية أعضاء هيئة كبار العلماء ومن ورائهم الشعب والحكومة من باب أولى، لذلك عدت إلى السعودية مباشرة بعد إنجاز المصالحة لخوض المعركة في الرياض والمدينة بعد أن تم حسمها في

18 – في قسم (الملاحق) يوجد النص الكامل للخطاب الذي أوضح فيه الدكتور سعد للشيخ بن باز ما دار بتفاصيله. ومجموعة أخرى من الوثائق حول هذه المسألة.

أفغانستان، وذلك لقناعتي بأن ألسنة اللهب التي أحرقت جميل الرحمن وكادت تحرقنا معه، ربما بلغت السعودية أيضاً. ولذلك عندما سمع الشيخ عبد العزيز بن باز بوصولي، أبلغت من طرف بعض طلابه أنه كان يسأل عني لأنه كما هو متوقع متابع لكل ملف الجهاد الأفغاني، وهذه القضية على وجه التحديد، خصوصاً بعد ما خلع عليها طابع الحرب بين الشرك والتوحيد والكفر والايمان، جئت سماحته في مكتبه وسط الرياض، ثم أخرج جميع من عنده وأدخلني إلى مختصره وحدثته عن القضية بالتفاصيل التي سمح بها الوقت، وأنصت لي حتى أكملت جميع حديثي، غير أنه بين كل فينة وأخرى أثناء حديثي يجدد قوله «لا حول ولا قوة إلا بالله»، حتى بلغ تفاعله مع المشكلة حداً جعله يبكي بمرارة، مما أشعرني ببعض الحرج، فكنت تمنيت لو أخفيت عنه بعض التفاصيل رأفة به، ولا أدري وأنا في تلك المرحلة من العمر كيف تجرأت على نصح الشيخ عبد العزيز وهو من هو في علمه وفضله وإجماع الناس على دماثة خلقه، بأن لا يعجل بإصدار فتوى في الموضوع حتى يتمعن في جوانبه كافة، ثم تحدثنا عن مخافة الله، وضرورة أن لا يستخدم المال الذي يأتي من السعودية في تمزيق الأمة، في إشارة مني إلى بعض الذين يمدون أطرافاً بالمال ليحرضونهم ضد أطراف أخرى مشاركة لها في الدين والجغرافيا، مما يحدث الفرقة بين المسلمين.

وفي الزيارة نفسها التقيت الشيخ عبدالله المطلق ولم يكن حينها بعد عضواً في هيئة كبار العلماء واستضافني في منزله وأخبرته عن كل ما لبّسه عليه وعلى العلماء بعض المغرضين، وفاجأني أنه كان متفتحاً جداً، وكانت البيانات والصور معي، والتقينا بالشيخ عبد الله بن قعود والشيخ عبد الله بن جبرين الذي أصدر بيانا نقض فيه البيان السابق في الكلام عن حكمتيار.

وفي المدينة المنورة تلقفوني الشباب المتحمسين للتيار السلفي الذي يعرف محلياً بـ«الجامي» بزعامة الشيخ ربيع المدخلي، وكانوا أهم أنصار إمارة كونر، وحاول أن يعملوا لي كميناً فجمعوا عدداً كبيراً منهم في استراحة بالمدينة واستدعوني على حين غرة، ولم أكن أعلم أن اللقاء كان للمناظرة والحديث عما أشيع وتردد، إلا أنني كنت حذراً، فلما تجاوزوا في استجوابهم وكأنني شخص يريدون أن يحملوه على قول شيء غير الذي يدين الله به، صارحتهم بأنني شاهدت الأمر بعيني، وهم ينازعونني بالقيل والقال، وسجلوا كل مجريات حوارنا في مسجل ليوزعوه وينشروه ليبرزوا في ظني ما أرادوا أن يعززوا به موقف إمارة كونر، لكنهم تراجعوا عن توزيعه ربما لأنهم لم يجدوا فيه ما يخدمهم.

الخلاف الأكبر

وبهذا تكون مسألة الصلح قد طويت، وأكسبني نشاطي فيها خبرة لا بأس بها في التعامل مع خلافات المجاهدين فيما

بينهم، ولذلك لما وقع الخلاف الأكبر بين أكابر المجاهدين على السلطة في أفغانستان، وسخرت بعض الدول الإسلامية خصوصاً السعودية إمكانات جبارة في سبيل التوفيق بينهم، كنت غير متفائل ولا متحمس كثيراً للعودة إلى بذل جهد على هذا الصعيد.

ولكن أسامة وبعض المهتمين في السعودية نصحوني بأن أكون ضمن الفريق الذي جاء من السعودية لمحاولة الإصلاح بين المجاهدين الكبار مثل أحمد شاه مسعود وحكمتيار ورباني وسياف وآخرين، لترتيب البيت الداخلي قبل استلام عاصمة البلاد كابول التي انسحب منها الروس، بعد ضغط المجاهدين العسكري عليهم.

وشكلت لجان محاولة الإصلاح بين المجاهدين على نطاق واسع، حيث استمر الخلاف نحو سنتين، وفي الجولة التي كنت بين أعضاء لجنة الصلح كان هناك الشيخ صالح السحيباني وعبد الإله المؤيد والشيخ محمد قطب وأسامة بن لادن وآخرين، واجتمعنا كي نطرح ورقة اتفاق وتنسيق بين المجاهدين وتشكيل حكومة بينهم ولا يخرجوا من هنا حتى يشكلوا حكومة متوافقة بينهم، وأحمد شاه مسعود متفق مع عبد الرسول سياف، ورباني يقول بأن أحمد شاه مسعود ينتظر تشكيل حكومة لاستلام كابل، وباكستان ضد أحمد شاه مسعود لأنها لاتعرفه وليس لها يد عليه وتخشى منه، وهي مع حكمت يار لأنها الداعم الأساسي له. والخلاصة أنهم لايدلون بكلام واضح، وكنا نخلوا بهم، وتلك الخلوات هي التي تفسد الأمور

كما قلت لأسامة. تكلمنا جميعاً عن الصلح والوحدة، وبكى من بكى وتأثر من تأثر. لكننا في اليوم الثاني عرفنا بأن حكمت يار في الليل وهو آت من إسلام آباد، أعطي الأوامر بدخول كابل، فصارت بينه وبين أحمد شاه مسعود منافسة، لأن أحمد علم أن حكمت سيدخلها فدخلها قبله، فمسعود كان أقرب إلى كابل ولم يمنعه من دخولها إلا عهده الذي قطعه للجنة الصلح بأن لا يدخلها إلا بعد أن يتم تشكيل الحكومة، وبناء على ذلك اتصل بالقيادات مثل سياف ورباني وقال لهم اجتمعوا وشكلوا حكومة واستلموا كابل وأنا أكون جندياً لكم فبدؤوا يتكلمون عن الحكومة، فيما بقي حكمت يار معترضا. القصة معروفة، فنحن لما وجدنا أن الأمر بدأ هكذا، ودخلوا في المعارك علمنا أن القضية لا يحسمها إلا واقع الميدان، وسيدخلون في سلسلة صراع لا ينتهي حتى يضعفوا جميعا أو يتقوى أحدهم على الآخر وهذا صعب، لأن مقاييس الموازنة ترجحها جهات ذات مصالح متضاربة في روسيا والهند وباكستان والغرب، فصار لكل طرف حليف من الفريقين، حتى جاءت طالبان التي خاضت هي الأخرى معارك طويلة، تمكنت عبرها من السيطرة على أكثر البلاد، إلى أن وقعت أحداث 11 سبتمبر 2001.

ولكننا منذ تلك المحاولة التي لم يكتب لها النجاح عدنا أنا وأسامة إلى السعودية، ونسينا أفغانستان، حتى إن أسامة طُلب منه بعد تفاقم الوضع أن يتدخل في الصلح بحكم وزنه الكبير

في أفغانستان أيام الجهاد، لكنه رفض بحكم أنه بذل ما فيه الكفاية، وأن تجربته مع أمراء الحرب أنهم لا يلتزمون بالوعود التي يقطعونها، ولذلك كان الخيار الرحيل عن أفغانستان إلى غير رجعة! والذي أراه أن أفغانستان كانت في ذلك الوقت بحاجة إلى قوة باكستانية مثلاً تفرض فيها النظام والقانون بعد انسحاب الاتحاد السوفياتي حتى تقيم فيها حكومة ونظاماً، فتخرج منها، كما فعلت سوريا مع لبنان، وفهمنا أن هذا الذي كان يحضر له الرئيس ضياء الحق، لكن المنية عاجلته قبل أن يختم الجهاد الأفغاني بالذي يقر أعين المسلمين. والله المستعان.

التحولات الجسام

ما كاد الجهاد الأفغاني ينتهي حتى نشب الخلاف بين إخوة الجهاد بالأمس كما مرّ معنا، لكننا جميعاً سريعاً ما أخذتنا الأحداث إلى ناحية أخرى ألهتنا فترة، إذ جاء احتلال صدام للكويت صادماً للعالم العربي والإسلامي، ثم أعقب ذلك التدخل الأميركي الذي قسم الدول والشعوب ما بين مؤيد له ورافض، على اعتبار البعض يعتقدون بأن صد الهجوم العراقي كان ممكناً عبر مزيد من الحلول الدبلوماسية، أو في أسوأ الأحوال تمكن مواجهة صدام وقواته من جانب قوى عربية وإسلامية ترغمه على الإنسحاب من الكويت، فيما كانت وجهة النظر الأخرى مؤمنة بأن الحل لا بد أن يكون في

حلف دولي يرغم صدام على الخروج من الكويت في أسرع وقت، قبل أن يستفحل خطره على بقية دول الخليج. والقصة مشهورة معروفة مما يغنينا عن مزيد الإستطراد حولها.

أما الموقف الذي كان سائداً بين المجاهدين العائدين من أفغانستان في ذلك الوقت، فهو رفض الاستعانة بالقوى الأجنبية، ويعود ذلك إلى الإشكال الشرعي الذي أثير في تلك المرحلة حول «الاستعانة بالكافر على المسلم المحارب»، وهي قصة مبحوثة في كتب الفقه وأعيد بحثها مجددا في تلك المرحلة خصوصاً بين العلماء السعوديين من هيئة كبار العلماء التي باركت القرار الرسمي في الاستعانة بقوات دولية، والمعارضين لهذا الرأي من مشايخ الصحوة، كالشيخ سلمان العودة وسفر الحوالي وناصر العمر وآخرين، وهي المسألة التي كانت ضمن الخلفيات التي سببت في سجنهم لاحقاً بعد تصعيدهم ضد السلطات، ورفع سقف النقد الذي كانوا يبثونه عبر الوسائل المتاحة.

السبب الآخر الذي دفع في تقديري المجاهدين السابقين مثل أسامة بن لادن إلى رفض التدخل الأميركي هو ثقتهم في قدراتهم العسكرية، واعتقادهم الذي معهم فيه بعض الحق، بأن المجاهدين مع قوات الجيش السعودي قادرين على إلحاق الهزيمة بصدام، بدليل أن جيش الاتحاد السوفياتي كان أقوى وأشرس وهزموه، فكيف يعجزهم طرد البعثيين الذين لا يرونهم

يختلفون كثيراً من الناحية العقدية عن الروس؟ وإلى جانب ذلك كان هاجس المؤامرة موجوداً، والخشية من غاية في نفس أميركا، وعدم تصديق أنهم حين يطردون صدام سيعودون إلى أرضيهم ولن يبقوا في الخليج والجزيرة العربية.

وفيما كان أسامة يعتني بالجانب العسكري في المسألة وعرض على السعوديين تشكيل جيش من المجاهدين يصد العدوان العراقي، كنت أنا بعد التجربة الأفغانية ميالاً إلى التركيز على إكمال دراساتي العليا والاستقرار، ولم أهتم بأي فكرة جهادية حتى فيما بعد، لأن التجربة الأفغانية مع ثرائها وتناقضاتها، وما أحيط بها من شبهات وإشكالات مريرة، جعلتني أزهد في الخوض ضمن أي تجربة مماثلة، مهما قيل عنها. لذلك كانت مشاركتي في السجال الدائر حول حرب الخليج هو رأي شرعي، حررته في شكل فتوى عابرة، في ذلك الوقت وتلك الظروف، ثم اختلفت قناعتي حول بعض الجزئيات فيما بعد[19].

ونستطيع أن نسجل أن الموقف من دخول القوات الأميركية إلى الخليج، هو بداية التحول من جانب أسامة، لكن ذلك لم يتبين لي إلا فيما بعد، حين كنا معاً في السودان، وبدا واضحاً أن رفض

---

19 – كانت فتوى تؤصل الرأي الشرعي في الاستعانة بالكافر على المسلم المحارب، وتنزلها على واقع الخليج في ذلك الوقت، بشيء من حماسة الجدل الدائر في ذلك الحين. اطلعت على الفتوى، لكن ساعة تشطيب الكتاب سألت عنها الشريف، فلم يجدها، وضاعت مثل كثير من الوثائق الثمينة التي لم يرفع بها رأساً.

دخول القوات الأجنبية للجزيرة العربية، شكل أحد أركان خطاب أسامة وتنظيمه بعد ذلك، حتى إن كثيراً من الأحداث الإرهابية التي نفذها التنظيم في السعودية، جاءت تحت هذه الذريعة، قبل أن تتوسع إلى استهداف رجال الأمن ومنشآت النفط والمناطق الحيوية بعد عام 2002.

ويدرك المقربون من أسامة أن اعتراضه على النهج الذي ساد في التعاطي مع حرب الخليج لم يكن وحده ما جعله يضيق ذرعاً بالمُقام في السعودية، وإنما في تلك الفترة بعد الإنجازات التي رأى الرجل أنه حققها في أفغانستان والزعامة التي صنعها هنالك بتأييد رسمي وشعبي، عاد إلى السعودية بنفس أخرى غير التي ذهب بها، فهو كان يطمح إلى دور أكبر من مواطن عادي كما كان من قبل، وحين فهم بذكائه أن الآخرين لا يرون فيه غير أسامة المجاهد، والمواطن الذي له ما لغيره وعليه ما على غيره، وأدرك أن لا استثناء يمكن أن يمنحه على هذا الصعيد، حينئذ قرر من تلقاء فهمه أنه «رجل لا يتسع له المكان»، خصوصاً بعد أن تم إحاطته ببعض علامات التعجب، بسبب التوجه الذي بدا واضحاً لكل الناس، من أن الرجل لم يعد يريد أن يصبح مواطناً عادياً، أو مدير مقاولات كما كان. الرجل بات يبحث عن مهمة تليق بمقامه الذي يرى فيه نفسه.

التفت أسامة يومئذ إلى أفغانستان وفكر في العودة إليها فما استطاع، ثم إلى اليمن التي بدأ يلعب فيها بأوراق حساسة، وملف اليمن بمفرده ملف كامل يطول شرح نظرة أسامة له، ولكن مجمل تصوره أنها البديل عن «أفغانستان»، وكان يعتقد أن دولة الإسلام الفاضلة التي يحلم بها، ربما يكون محلها الأمثل هو اليمن بوصفها عمق الجزيرة العربية، وفي واقعهم القبلي والسياسي شبيهون بأفغانستان التي عرف مفاتيحها، كما أنها دولة ليس للمستعمر فيها قواعد أو أثر، فكان يجمع معطيات من هذا القبيل، ليبني عليها استراتيجيته في اليمن.

وجاء النزاع بين اليمن الشمالي والجنوبي مناسبة خصبة له، ظنها في صالحه فبدأ بنسج خططه واستراتيجيته العسكرية من دون قراءة صحية لذلك الواقع المعقد. لكن هذا ليس العنصر الأخطر فقط في الفكرة التي أراد أسامة تبنيها في اليمن، فهو لأول مرة يدخل في عمق السياسة من بوابتها الصرفة، وليس تحت أثواب الجهاد أو الشريعة، فكان تركيزه في هذه الفترة على دعم توجه عسكري لإحداث انقلاب أو نحوه في الجنوب، فاستقطب شخصيات مهمة في كل أرجاء اليمن من رجال قبائل وعسكريين وأصحاب نفوذ فصاروا يتوافدون عليه في جدة، فيعطيهم ما تيسر من الأموال والسيارات، خصوصا شيوخ بعض القبائل.

حوّل جميع تركيزه إلى اليمن، في خطة تجاوزت التفكير إلى التنفيذ، ورغم أنني كنت في المدينة وهو غارق في أفكاره وتلك الهموم في جدة، إلا أنني كنت ألتقيه مرة على الأقل كل أسبوعين، وأناقشه وأحاوره، حيث كان خلافي شديداً معه في هذا التوجه على ما يطرق سمعي منه إلا أن الأفق بيننا لم يكن مسدوداً، فأقول له أنا معك لكن إن ذهبت إلى اليمن فإنني لن أرافقك في ذلك الطريق، فكان لا يهتم بهذا التهديد المبطن، لثقته ربما بأنني لن أتركه يذهب وحيداً. أما سبب خلافي معه فيعود إلى قناعتي بأن الفكرة غير ناجحة، لأنه بناها على شراء الناس بالأموال، ومحاولة استعطاف القبائل ببعض الهبات. ومن المعلوم أن معظم القبائل تلعب على خطوط عدة، وهي تبحث عن مصالحها، إلى جانب أن كثيراً منها ليست على قلب رجل واحدة، وضربت له مثلاً بأيام النزاع بين الملكية والجمهورية، فتجد قبائل في الصباح ملكية وفي المساء جمهورية، وهكذا تباع في المزاد وتشترى.

مبارزة بين الرئيس وبن لادن

الحاصل أن جهود أسامة على هذا الصعيد وجدت صدى في الداخل اليمني وربما وافقت في أولها بعض الهوى المحلي في السياسة السعودية، لكنها تطورت إلى مرحلة خطرة، تمثلت في

تنفيذ عمليات اغتيال ضد الحزب الاشتراكي في الجنوب، من دون

أن يعلم أن له يد فيها، فحقق عملاؤه في اليمن أهدافاً مهمة، لكن الذي اقتطف الثمرة كان الرئيس عبد الله صالح الذي أضعف له أسامة خصومه، فلم تقم الحرب التي جاءت قبيل الوحدة حتى كان معظم العسكريين المهمين في الجنوب قد قُضي عليهم، فكانت قيام الوحدة ضربة موجعة له، لأنه كان يؤمل إقامة حكم يتقاطع معه في الجنوب، يتحول مع الوقت إلى إسلامي.

ولذلك أشعل حرب فتاوى ضد حكومة الوحدة، وأكد أنها حكم بغير ما أنزل الله، والحكم بغير ما أنزل الله كفر، وألف كتاباً في هذا المعنى، في تكفير عبد الله صالح.

بعد حين أدرك أن مشروعه في اليمن خسر، لأن بعضاً ممن كانوا معه يعطيهم الملايين والسيارات، اكتشف فيما بعد أنهم في الوقت نفسه يتعاطون القات مع قيادات متصلة بالنظام اليمني، وهكذا أصيب بخيبة أمل كبيرة، بسبب هذا الفشل الذريع، إلا أن حلم اليمن ظل قائماً في فكر أسامة باستمرار، لأنها الدولة الوحيدة التي يغريه تكوينها القبلي والديني وموقعها الجغرافي على إقامة حكم إسلامي فيها بمواصفاته التي يتمنى. وفي تلك الفترة التي يحاول فيها التأثير في الشأن اليمني، جرت محاولة اغتياله من جانب يمنيين في جدة، وعندما تمت الإشارة له بالتوقف عن ذلك النشاط الذي يبدو أن رائحته فاحت دولياً، لم يلتزم بذلك كما

ينبغي في نظر الجهات الرسمية فضيق عليه بعض الشيء، خصوصاً في نشاطه السياسي والحركي. وكانت له مزرعة في منطقة تسمى «البرود»، وهي التي كنا نلعب فيها ونسمر أيام الشباب، سخرها فيما بعد حرب الخليج لإقامة المخازن والمعسكرات، وشراء المؤن ومئات السيارات ذات الدفع الرباعي، إذ كان يتردد أن حرباً مفتوحة ستقام في السعودية بعد غزو الكويت، والجو العام مشحون بدعوات في المساجد والمنابر إلى التدريب والإعداد.

جاءت محاولة اغتياله في المكان نفسه، فأتى أمر باقتحام المنطقة من جانب قوات الحرس الوطني، وتم إقفال المزرعة ومصادرة ما فيها من سلاح ونحوه، بعد أن اعتقدوا أن أسامة تجاوز في نشاطه في تلك الفترة ما كان مسموحاً له به. وكانت تلك القشة التي قصمت ما بقي من ظهر البعير، فشرع في بيع تلك المعدات وإرسال بعضها إلى السودان وتوزيع البعض، تمهيداً لبدء مسيرته نحو تلك الناحية.

رجل لا يستفيد من أخطائه!

وهكذا يشغل نفسه بالمؤامرات والمشاريع، ولا يراجع أخطاءه ليستفيد منها، وكنت أقول له ذلك، حتى إنني قسوت عليه ذات مرة وقلت له: أنت رجل أعمال تصيب وتخطئ، وتربح وتخسر ولا ضير في ذلك فالمال مالك والأعمال أعمالك، أما دين الله

فليس من شركاتك، بل تجب عليك محاسبة نفسك والرجوع إلى الصواب والاستفادة من الأخطاء، على مبدئك هذا لا أستغرب إن اعتبرت يوماً «قل هو الله أحد»، إحدى الشركات!

تمعّن قليلاً في كلامي لكنه ظل العناد مسيطراً عليه. منع من السفر بعد ذلك بفترة قصيرة، فحاول أن يذهب إلى السودان للإغاثة، بعد أن حصل هناك فيضان في السودان قبل ثورة «الانقاذ» في 89م فكان الملك فهد جمع التبرعات حتى بلغت إلى نحو مئة مليون أو أكثر لإغاثة الشعب السوداني، فطلب أسامة أن يذهب إلى السودان للمشاركة في تلك المهمة، فذهب ولم يرجع!

غير أن الملفت أن الذهاب كان بالقلب والجسد معاً، فما إن وصل أسامة السودان حتى انضم إلى المحور المناوئ للسعودية بعد حرب الخليج في خطابه الإعلامي والسياسي، ولم يتردد في اتهام السعوديين بدعم الجنوبيين الانفصاليين، إلى جانب ذلك فتح للسودانيين جميع خزائنه، واعتقد أنه قادر على تأسيس امبراطورية تجارية، عمودها الزراعة والمقاولات، فأنشأ طرقاً وأسس شركة تجارية سماها «وادي العقيق»، واستطاع جلب كثير من معداته التي كانت في السعودية بقيمة تقدر بنحو 13 مليون ريال، فأنشأ مؤسسة أخرى في هذا المجال سماها «شركة الهجرة للطرق»، ودخل عبر ذلك حركة استنزاف طويلة، انتهت

بتكبيده خسائر فادحة، حتى خرج منها صفر اليدين، ليستقر رأيه في النهاية على أن السودان مشروع إسلامي فاشل، لأنه عايشهم ثلاث أو أربع سنوات وكادوا يسلموه لأميركا، لولا أن الأميركيين رفضوا استلامه أساساً، وتكشفت لنا الكثير من خطط هذا النظام وخديعته، عندما انفض الحلف القائم بين حسن الترابي وعمر البشير وبعض فريقه مثل علي عثمان طه ونافع وغيرهما، فحينها تبين أن السودانيين حاولوا بيع أسامة بن لادن إلى أميركا، وحين لم تقبل الأخيرة ذلك، تبرعوا لهم به قرباناً لإصلاح علاقاتهم بالبيت الأبيض، حتى إنه عندما استأمنهم وغادر إلى أفغانستان مروراً بقطر، أبلغوا الأميركيين بذلك، واقترحوا عليهم إسقاط طائرته أو اختطافها، إلا أن الرئيس بيل كلينتون رفض مقترحهم على اعتبار أن القوانين الأميركية تمنعه من تنفيذ خطة كالتي اقترحوها! بل علمنا أن أسامة ذات مرة كان في زيارة لنائب الرئيس السوداني علي عثمان طه عندما كان وزيراً للخارجية، فنسق هذا الأخير لقاء متزامناً مع السفير أو القائم بالأعمال الأميركي في السودان، وفيما كان أسامة ينتظر مضيفه وشريكه في مشاريع وبرامج عدة، كان هذا الشريك طه يعرض على السفير الأميركي تسليمه بن لادن حالاً! بل حتى أمواله المستثمرة عندهم لا يعرف مصيرها حتى الآن.

نفاق النظام السوداني

ولم تنته عند هذا الحد متاعبنا مع السودانيين فحتى أنا شخصياً نالني من أذاهم نصيب، فهم الذين تقربوا للأميركيين أيضاً بعد أحداث 11 سبتمبر بإعطائهم ملف المعلومات المضللة، والمتصلة بي، رغم أنهم يعرفون كذبهم في ذلك تمام المعرفة، وعلى إثر معلوماتهم الملفقة حدث لي من الأضرار ما الله به عليم، فتم تصنيفي ضمن قائمة الأمم المتحدة للداعمين للإرهاب، ما جعل كل نشاطاتي تتعطل، وفرض عليّ قيوداً منعتني من السفر، وجمدت جميع حساباتي البنكية وألغت سجلاتي التجارية، وجمدت جميع أصولي العقارية، إلى غير ذلك من الأضرار حتى كتابة هذه السطور، رغم اعتراف السلطات في بلادي بأنني لست ضالعاً في أي عمل غير قانوني، فهذه غدرة أخرى منهم لا نفهم ما يسوغها، فالمسلم لا يُسلم أخاه ولا يغدر به ولا يخذله، ولكن الله كاد لهذا النظام الذي أقل ما يوصف به أنه منافق، فبات يتخبط حتى فرّط في معظم مكتسبات البلاد من وحدة والتئام، فصار جميع همه أن يبقى صناعه على المسرح، حتى وإن كان ثمن ذلك بيع الشعب والأرض والمبادئ والموقف، فلا أعلم أهذا من الإسلام، أو من الشريعة المزعوم تطبيقها؟!

لكن ذلك الموقف من النظام، لا ينبغي أن يلهينا عن حقيقة أنني شخصياً استفدت من بقائي في السودان، وسعدت بالتلاقي مع شعبه الأبي، الذي كان حفياً بنا وكريماً، هذا بشكل إجمالي.

أيام السودان ولياليه

أما إذا عندنا إلى التفاصيل ومشروعي الشخصي في السودان، فإنني عندما تأكدت من استقرار أسامة هنالك، التحقت به لهدف رئيسي هو إكمال دراسة الدكتوراه، فيما كان طموحه منصباً على الجانب الاقتصادي والاستفادة من مشروع إسلامي قائم، ناهيك عن رائحة «الجهاد» التي تنبع من الجنوب، وربما احتاجت إلى تدخله وخبرته إذا ما تطلب الأمر ذلك، حسب تصوره في ذلك الحين، رغم أن السودانيين كانوا قد أغلقوا هذا الملف برفضهم التام لانضمام أي من المجاهدين السابقين إلى صفوفهم حتى لا يدخلوا في إشكالات لا حصر لها حسب رأيهم، وكان كل ما يجذبهم استثمار الرجل مادياً، لأن الاقتصاد في السودان إبان تلك الفترة كان منهكاً للأسباب التي لا يجهلها أحد.

كانوا يطمحون في تأسيس تنمية شاملة، تعيد إلى البلاد رونقها الذي يتطلعون إليه، في حين نرى أن المشروع يكتسب أهميته في وجهه الإسلامي بعد نجاح «ثورة الإنقاذ» فأردنا بحكم اهتمامنا الإسلامي بدراسة التجربة عن قرب، وإذا ثبت لدينا

أنهم جادون في أسلمة الدولة، وبحاجة إلى المساعدة فنحن لها. كما أن السودانيين نظروا إلى وجود أسامة على أنه داعم معنوي لهم في جهادهم ضد الجنوب، كما اعتبروه فيما بعد ورقة للضغط على المختلفين معهم من العرب والغرب كذلك.

وأما على الجانب الشخصي فكان إكمال دراستي لنيل درجة الدكتوراه هدفاً أساسياً رغم حضوري في بقية التصورات، ثم كان لقائي مع البرفيسور أحمد بابكر مدير جامعة أم درمان محفزاً نحو هدفي ذلك، إلا أن رغبتي في الدراسة لم أكن راغباً في تأثيرها على اهتمامي أيضاً بمعرفة تفاصيل المشروع الوليد لاتخاذ قراري النهائي في المساهمة فيه من عدمها، إذ كانت تجربة أفغانستان وأخطاء أسامة المتراكمة علمتني ألاّ أخوض في تجربة قبل درسها عن كثب، وتمّ لي ذلك بواسطة شبكة من العلاقات ربطتنا بكوادر مهمة مثل الدكتور حسن الترابي وعمر البشير وعلي عثمان طه، وفتحنا نقاشات عدة معهم من باب الاستطلاع، لمعرفة ما بوسعنا فعله، في ظل الظروف التي يمر بها السودان في ذلك الوقت، ومن أهمها الحصار المفروض عليه.

لم يكن للشخصيات السودانية التي التقيناها طلبات محددة، إذ كانوا ينظرون إلينا كشركاء لهم في الهم الإسلامي، وما هو الأصلح للأمة في ظرفها والأبقى، إذ كان التصور الجهادي

حاضراً لدى السودانيين أيضاً في حرب الجنوب الدائرة، التي أنشأوا لها معسكرات تدريب تستقبل كل الراغبين في الجهاد في الخرطوم والولايات، فكان الحديث يدور دائما عن التجربة والشهادة والجهاد وعزته، وكانوا يعتبرون الحرب الدائرة في الجنوب جهاداً مقدساً ضد النصارى، ولا سيما في ظل الدعم الخارجي لهم، وعلاقة إسرائيل بهم في ذلك الوقت، وكانت هذه الأمور أهم القضايا التي ندندن حولها، ولكن ضمن إطار الدولة ومؤسساتها التي كان اتصالنا بأكابر رجالها.

وعلى ذكر معسكرات التدريب يتساءل البعض عما إذا كان هناك نقاط التقاء بين السودانيين والأفغانيين في التدريب، والجواب عن ذلك أن الجيش السوداني جيش نظامي، أما معسكرات التدريب فكانت تسمى «الجيش الشعبي»، وهو جيش متطوع يقوم بمساعدة القوات المسلحة النظامية في الجنوب، فهم متطوعون ومجاهدون، وهذا القطاع يُعتبر في الوقت نفسه قوة للحكومة في حال حصل انقلاب عسكري من الجيش النظامي أو شيء من هذا القبيل، وقد اتضح مؤخراً من خلال التجربة والدراسة رغبة أولئك في إقامة مشروع إسلامي حقيقي بدلاً من مجرد الشعارات.

هاجس الفشل الأفغاني ظل يطاردنا ونحن نتمعّن في التجربة الجديدة، لكن اختلافنا مع كثير من أساليب رجال الحكم

في السودان، لا يمنعنا من إدراك أن الوضع في السودان حتى في ذلك الوقت المبكر كان مختلفاً عما هو عليه في أفغانستان، لأسباب ليس للإسلاميين في السودان ربما الفضل فيها، فالدولة من قبْلهم كانت قائمة والأمن فيها مستتب سوى ما كان من الحرب في الجنوب، البعيد عن مركز الحكم.

فقه الترابي!

وكان بين المشاهد اللافتة في تلك الأيام، آراء الترابي المؤرقة للجهاديين، فهو يرى أنه لا ينبغي أن تكون الحدود عائقاً بين المسلمين، فكل من ضاقت به الأرض لا مانع من قدومه واستقباله بكل ترحيب، فكان هذا من أوجه الخلاف بينه وبين الحكومة، لكنه في الوقت نفسه فتح الباب أمام مجموعات من المجاهدين والإسلاميين ممن لم يكن لهم متنفس بعد أفغانستان، غير أنهم قبل أن يلتقطوا أنفاسهم بدأوا ينتقدون الآراء الترابية في الفكر الفقه بشدة، وأصبح الشخص الذي كان الخباء الذي يستظلون به أول من أطلقوا عليه سهامهم، التي ترددت ما بين تحريض البشير عليه وتبديعه وتفسيقه ثم تكفيره في نهاية المطاف!

ومع أن أسامة يحاول أن ينأى بنفسه عن تلك المعركة التي جعلت تكبر شيئاً فشيئاً، إلا أن التأثير عليه كان على أشده

في واقع الأمر، من جانب التكفيريين المصريين والجزائريين والليبيين وغيرهم ممن حاولوا إقناعه بأفكارهم وآرائهم على هذا الصعيد، وجعلوا يؤلبونه على الترابي ويثيرون نخوته في الغيرة على المحارم، ويسألونه قائلين: كيف تتسامح مع رجل لا يعظم الشريعة وأحكامها، فيرى أن لا بأس في اللقاء مع المرأة ومصافحتها وخروجها من منزلها ونحو ذلك من مسائل فقهية أخرى كجواز الموسيقى، واتهامه بالسخرية من حديث «الذبابة» وأن صحته من الناحية العلمية مستحيلة، كما يزعم.

حوّل هذا الفريق آراء الترابي إلى قضية أشغلتهم عن أي قضية، حتى إنهم عندما لم يجدوا من بن لادن تأييداً كالذي يطمحون له في مناكفة الترابي، رأوا أنه لا أقل من منع المفكر السوداني من الجهر بآرائه التي يرونها كفرية، وهكذا كثر ضجيجهم وسط غياب تام للنقاش العلمي والرد المنهجي، فضلاً عن التأصيل العلمي الذي يفتقر إليه معظم النشطين في المجال الجهادي. حتى أسامة كان جل نقاشي معه في هذه الجزئية، ونصيحتي إياه دوماً أن ينشغل بتحصيل العلم الشرعي حتى لا يقع في خطيئة القول على الله بلا علم، إذ كان رفقاؤه يستسهلون الإفتاء والحسم في مسائل الخلاف بين العلماء، وجمعت هذه الفئة من أخلاق المتعالمين ما لو وزع على بلد لكان مفزعاً.

الصراع على بن لادن!

على رغم اهتمامي بالدراسة إلا أن ذلك لم يقطعني عن مجالسة أسامة والقرب منه حتى إننا سكنا في بيت واحد في بداية الأمر، قبل أن أسكن بعيداً عنه وأتفرغ للدراسة، بينما ظل تركيزه في تلك الفترة منصب على الناحية الاقتصادية فأسس مزارع في الجنوب قيل إنها معسكرات تدريب ولم يكن ذلك صحيحاً، ولكن فتح السودانيين أبوابهم لاستقطاب بعض المجاهدين والمطاردين من الجماعات الإسلامية، جعل هؤلاء يتوافدون عليه، خصوصاً القيادات الجهادية منهم، وبدأت العلاقات تعود من جديد، ثم بدأوا يخططون لتأسيس مشاريعهم الفكرية، وكان الاهتمام في هذه الفترة على النواحي التعليمية بواسطة جلسات حوارية ونقاشات في دراسة الأوضاع، كلما اتسع الوقت لذلك ووجد المهتمون بها فرصة لإقامتها.

وفي هذه الحقبة بين أعوام 94 و 96 أصبح أسامة تحت دائرة الضغط والشد والجذب بين أطراف عدة، فهناك عائلته التي بذلت قصارى جهدها وأرسلت له الشفعاء ليعود إلى بلاده عزيزاً مكرماً، وضغوط السودانيين الذين بدأت علاقته معهم تتجه نحو الأسوأ لأنهم باتوا على مفترق طرق، فإما أن يسيروا وفق مواصفات المجتمع الغربي الجديد، أو يختاروا طريق الانحياز لخيار مناوأتهم

وعندئذ تكون العزلة السياسية قدرهم، وعلى الجانب الآخر أحاط به رجال الجماعات من المصريين وجماعة الجهاد وغيرهم فصار كل يجذبه من طرف، ويحاول ضمان مصالحه معه مع اختلاف غاية كل طرف وهدفه عن البقية.

ومن جانبي لاحظت بحكم قربي يومئذ أنه يعيش مرحلة كرب وما يشبه تقرير مصير، فكنت أجلس معه الساعات الطوال وأناقشه، من أجل محاولة إقناعه بالتأقلم مع ظروف بلاده ليعيش واقعه ويعود إلى عائلته فكان يحاول الهروب من الموضوع بزعم أن السلطات ضيقت عليه عندما كان في السعودية، وإذا عاد فالسجن مصيره أو الإقامة في البيت لا محالة. هكذا يقول. إلا أني كنت أرد عليه بأن السجن وهو أسوأ ما تتوقعه خير لك مما يدعونك إليه. ولما شعر بأنني حسمت أمري في العودة حتى وإن قرر هو غير ذلك، بدأ يرهبني بما ينتظرني من أهوال وسجون وسوء معاملة ونحوه مما كان يخيفني به، فأقول له: «سجن في المدينة المنورة أو غار في مكة المكرمة، أحب إليّ من صرح مشيد في مملكة التكفير والجهاد التي تؤسسونها على أفكار جماعات بضاعتها القتل واستحلال دماء المسلمين»، وأنا حينها لم أكن أحضر اجتماعاتهم، لكنه يحدثني في جلساتي الخاصة معه بما يدور فيها وما زينوا له، إذ كنا نجتمع أنا وإياه على الوجبات الثلاث باستمرار، قبل أن يبلغ الاختلاف ذروته.

وحسب ما قال لي أسامة فإن نقاشات المصريين له كانت منصبة على توحيد الجماعات الجهادية تحت مسمى «توحيد الجماعات الجهادية» بحيث إن نشاط تلك الجماعات في الجزائر وأريتريا والصومال وأفغانستان ومصر، يصبح تابعاً لقيادة واحدة، أو على الأقل يكون بينها تنسيق في حال لم يتمّ التوصل إلى توحيدها، وإخباره إياي بتلك الحيثيات ليس بقصد الإخبار المجرّد، وإنما مغازلة منه لي أملاً في تغيير رأيي، لمعرفته حبي للوحدة ورص الصفوف.

فهمت فيما بعد أنهم كانوا في ذلك الوقت يرسّخون فكرة «تنظيم القاعدة»[20] الذي بدأ يتشكل في أفغانستان قبل ذلك، لكنهم في ذلك الوقت لم يكونوا قد حسموا أمرهم بعدُ في أمر الموطن الاستراتيجي الذي يرون فيه ملجأ مناسباً ليضم قيادة التنظيم، فقد كان السودان على علاقة جيدة بالعقيد معمر القذافي وقام بتسليمه مجموعة من الليبيين، الأمر الذي اعتبرته

---

20 - فيما بعد أخبرني الدكتور سعد بأن أصل فكرة «القاعدة» هو بناء قاعدة للجهاد في أفغانستان عبر مراكز تدريب، مثل «خلدن، والفاروق» وغيرها، تعد القيادات المؤهلة لممارسة الجهاد في بلدانها عند اللزوم، ولم يكن التصور في ذلك الوقت قائماً على ربط أولئك بتنظيم يقوده أسامة، وإنما كان دوره فقط إعدادهم، ثم يصبح لكل خياره، ثم استغل الظواهري ومن معه تلك المراكز في تدريب كوادر مصرية، مكنتهم من تحسين مهارات عناصرهم. وذكر لي أن بن لادن وهو في السودان كان يبعث لهم نحو مليون دولار شهرياً للإنفاق على تلك المراكز، وكان الشريف ينهاه كما قال عن ذلك لعدم ثقته من أهداف القائمين على المراكز. عندما عاد أسامة إلى أفغانستان 96 كانت تلك المراكز البنية الأساسية لبناء «تنظيم القاعدة»، ونشر عملائه في أنحاء العالم، من خريجي تلك المعاهد. وكان من أشرسها معهد «البتار».

تلك الجماعات بداية غدر من الجانب السوداني، كما اعتبروا النظام السوداني شبيها بباقي الأنظمة ولا يختلف عنها، حتى بات نشاطهم الذي كان معلناً، ذا سرية متناهية، وصار البحث عن الحاضن البديل يتكرر باستمرار.

النقاشات التي يعرض علي أسامة مضمونها كانت مفزعة لي، لكني على الرغم من ذلك قدّرت في رفيق دربي أنه يطلعني على كل شيء ولو من باب التشاور وحسب، فقد كنت أعرفه أتم المعرفة، وكان هو الآخر يدرك ما أنا عليه من عدم الارتياح لأفكاره التي طالما ناقشناها سويا، فكنا كفرسي رهان في معرفة بعضنا، وبالتالي لم تكن ثمة حاجة لعرض أي منصب عليّ من جانبه كما أشيع، ومثلنا كمثل صديقين ركبا في سفينة واتجها إلى مكان ما، فإن اختلفت آراؤهما حول تحديد المكان فلا بد لأحدهما أن يفارق الثاني إذا لم يتنازل أحدهما للآخر عن رأيه، وهذا ما حصل بالضبط، ولا أنكر أن هناك محاولات جادة منه لجذبي إليه وإقناعي بالسير معه، ولكني بالنظر إلى الناحية الشرعية اتضحت لي أمور كثيرة، وكاد يقتنع معي هو أيضا، لكنه وجد نفسه في موقف يصعب معه فيه التراجع بعد لقاءات خاصة وسرية مع جماعات الجهاد.

محاولة اغتيال

شهدت تلك الفترة أيضاً محاولة اغتيالات عدة استهدفت أسامة شخصياً وكاد يذهب ضحية بعضها، وعلى رغم علاقتنا التي شابها قدرٌ من الفتور في ذلك الوقت بسبب تباين مواقفنا، إلا أنني لم أنقطع عنه، فكنت أحاوره وأحاول إقناعه بترك هذا التوجه، وكان يلين تارة ويصرّ أخرى حتى أعلن أبو عبيدة وأبو حفص أنهما تحت قيادته وليسا تحت قيادة جماعة الجهاد فاطمأن إليهما وأعطاهما زمام الأمور، بينما كانا يلعبان على حبلين تارة معه وتارة ضده، وبالأخص أبي حفص، في حين رأى بعض أفراد تلك الجماعات أن أسامة مؤيد للحكومة واعتبروا هذا التأييد نصرة لطاغوت وكافر، فالبشير طاغوت والترابي طاغوت، ثم وجدوا عليه من هذا الجانب.

وأما أخطر محاولات اغتياله فإن وقائعها تعود إلى أن الأمن السوداني كان معنياً بتوفير الحماية لأسامة مع أمنه الخاص، وحتى بعد إعلان بعض القيادات الجهادية دخولها تحت قيادة أسامة وشعور هذا الأخير بالاطمئنان، رفض الأمن السوداني أن يتخلى عن مسؤوليته تجاه حمايته وكأنه يدرك ما ستقوم به تلك القيادات بعد استيائها من موقف أسامة مع الحكومة التي يعتبرون جميع أركانها من الطواغيت والكفار، وبالفعل تمكن بعضهم من مداهمة منزله واستهدفوا بيت الضيافة وفي تقديرهم أن أسامة موجود مع

بعض الضيوف فيه، ورشّوه ورموا عليه قنبلة وأصيب جراء ذلك بعض من كان في بيت الضيافة ولم يقتل أحد، وتم القبض على مدبر الهجوم وهو ليبي لكن لا يُستبعد أن يكون وراء الهجوم جهات أخرى، فكل الاحتمالات واردة. أما أسامة فصادف أنه لم يكن موجودا في منزله ذلك اليوم، وأنا كنت أسكن في المنطقة نفسها ولست معه في بيت واحد وقتئذ.

هذه العملية لم تقنع أسامة بالتراجع عن الذهاب إلى حضن تلك الجماعات، فظل يوثق علاقاته وتنسيقه معهم، فلما رأيت ذلك وكدت أيأس منهم انقطع الجانب الأكبر من صلتي به لاختلافي معه في المشروع والأفكار، لكن لم تنقطع علاقتي به كصديق وصهر فأنا أزوره وأجتمع معه وربما أحبَّ أن يفتح موضوعاً للنقاش فتناقشت معه، وأذكر أنه حصل بيني وبينه نقاش قوي في آخر لقاء لنا دار حول الموضوع برمته ونقد تصورهم وأفكارهم فلمحت منه أنهم قد بايعوه، فقلت له: «المسألة ليست مسألة بيعة وظهور، وأنت ستعبد الله على أي جنب، أو بأي وسيلة لكن هل هذه الوسيلة توصلك إلى الغاية وهي رضا الله سبحانه وتعالى»؟ فكنت أضع له علامات استفهام كثيرة، ولم أكن أطالبه بالإجابة عنها بقدر ما أود إلفات انتباهه إليها.

ولا شك أن نقطة الخلاف الجوهرية فيما بيننا كانت موقفه العام من الأنظمة ودخوله في مجموعة الجهاد وفكرها،

ولا أطيل في تفصيل فكرها وحيثياته وما هو فكر الجماعات تجاه الغرب وأنظمة العالم العربي والإسلامي، وتكفيرها وقتالها لأركانها باعتبارهم طواغيت وكفارا، والإعداد لذلك، فهذا كله أمر معروف، وكانت تلك المرحلة بالنسبة له مرحلة إعداد لما بعدها، فهو يريد أن يؤسس ويكون له وجود في حين لم يكن له إطار واضح حتى تستطيع مناقشته، وكنت ضد هذا الجانب، وأذكر أنني قلت له يومها: أنت تجمع حولك «المتردية والنطيحة وما أكل السبع»[21] فالجماعات الجهادية متباينة في أفكارها واتجاهاتها وأولوياتها، وجمعها في إطارٍ واحد ليس برأي سديد، هل أنت فعلا مقتنع؟ وكنت أناقشه بتجرد بغض النظر عن كوني مقتنعاً بفكره أو غير مقتنع، لأن خياري واضح منذ زمن، فحين درست الوضع في بداية قدومي اقتنعت تماماً بإكمال مشواري وتحقيق هدفي الذي قدمت من أجله وهو الدراسة ثم العودة إلى الوطن.

وفي بعض تلك الأيام صادفت شخصاً عنده قد التقيته من قبل وسمع مني بعض آرائي، ومع أنه لم يكن على توجههم، جعل يقول لأسامة: إذا كان هذا الشخص يخالفك بهذه الطريقة ويتكلم بشدة فلماذا تبقيه أساساً، ولماذا يكون عندك؟ وأسامة أفادني بهذا الكلام في اللقاء الأخير بيني وبينه، كآخر محاولة يستعطفني بها فقلت له بغضب: ومن قال إنني مرهون بك أو

---

21 – طالبت الشريف ساخراً، أن يوزع لي «المتردية والنطيحة وما أكل السبع» على أعضاء تنظيم القاعدة المشهورين، فكان له تنزيل ظريف، فهو إلى جانب خبرته الجهادية، أكاديمي في أصول الفقه.

تحت غطاء عباءتك. أنا في دولة السودان ولست تابعاً لك! افعل ماذا عندك؟

القضية هي أن نعبد الله تعالى على بصيرة وليست قضية هوى، وأنا منذ القدم تجمعنا صداقة على طريق معين لكن متى أيقنت أن طريقك انحرف واتجه إلى حيث لا يوصلني إلى الهدف الذي أريده فسأخالفك، ودار بيننا كلام كثير من هذا القبيل، وهذا كاف ليدرك المرء كم كانت الفجوة بيننا توسعت.

وذات يوم كاد أن يرجع، ثم لما شعرت بأن الأمر سيحسم، فكّر ملياً ثم صارحني بكل مرارة قائلاً: أنا لا أستطيع التراجع. الأمر خرج من يدي. وكأنه يقول وإن كنت أوافقك الرأي لا أستطيع العودة إلى الوراء، لأنني أبرمت اتفاقات وأعطيت عهوداً ومواثيق، وكانت مرحلة عصيبة بالنسبة لنا جميعاً، فنحن نحاول إقناعه وهو يصر على أنه ماض في دربه، فقد جاء إليه عمه[22] وحاول معه بكل الطرق والوسائل وكلها باءت بالفشل.

---

22 - وكانت قصة محاولة استعادة أسامة من جانب أسرته، إحدى القصص التي يتحفظ عليها سعد لحساسيتها أسرياً، ولكني علمت من مصادر مطلعة أن عم أسامة عبد الله بن لادن كان رغم كبر سنه شديد العزيمة على إعادة ابن أخيه من السودان ولو بالقوة، فعندما هبطت طائرته في المطار، استدعى أسامة ليأتيه فرفض، بحجة أنه لم يعلم بمجيئه وكان ينبغي أن يبلغه من قبل، ثم لما حضر أسامة إلى المطار لاستقبال عمه، رفض هذا الأخير أن ينزل من الطائرة، فظن أن أسامة سيدخلها ويسلم عليه ثم إن لم يقتنع بالرجوع معه، يدفعه إلى ذلك بالقوة، لكن بن لادن الابن الذي فهم خطة عمه رفض أن يصعد الطائرة، وكلف من ينزل شقيق أبيه حتى سلم عليه في أرض المطار، وبعد كل الإلحاح والترجي من العم لم يزد أسامة إلا تصلباً، فولى كل واحد منهما الآخر ظهره. وكان بن لادن العم ناصحاً أميناً لبن لادن الابن حتى في أيام دعمه لليمن، ودعاه إلى الاعتبار بتجربته. كما أفادتنا المصادر.

تكفير الغزالي والشعراوي!

وفي الفترة نفسها ذهبت إليه لزيارة أختي فوجدت عنده أيمن الظواهري وآخرين، وكان من عادته أن يدخلهم إلى قعر المنزل في حال جاء أحد من خاصته، فسلمت عليهم ثم ذهبت إلى أختي لأسلم عليها وأجلس معها بعض الوقت قبل انصرافي، ولكنه أصر على جلوسي معهم، فجلست ودار النقاش حتى تناولوا الشيخ الشعراوي هل هو مسلم أم كافر؟! وكذلك الغزالي هل هو مسلم أم كافر؟ فغضبت وانتفضت وخرجت عن طوري وهم يخافون مني في تلك الحالة لأنهم يعرفونني منذ زمن، فقلت لهم: لم يبق لكم من العالم الإسلامي إلا هؤلاء من أمثال الشعراوي والغزالي. إلى هذا الحد بلغت بنا السفاهة أن نهدر دم رجل مسلم مفسر لكلام الله وأمضى وقته وجهده في الحديث عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. على الأقل اعتبروه مسلماً ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليه. نعم تناولتم هؤلاء لأنهم ضعفاء لا حول لهم أو قوة. ثم قمت من مجلسهم، ولم أجتمع بهم بعده قط!

بعد أن رجعت إلى أرض الوطن بقي أسامة في السودان سنتين أو أقل، وبدأ يضيق عليه أكثر في السودان فكان لا بد له من الخروج إلى أفغانستان بالطريقة التي ذكرتها مسبقاً،

وكان السودانيون يحاولون تسليمه، على رغم لقاءاته مع البشير وعلاقتهما الجيدة. ومن أعجب أفكار أسامة التي عرضها على البشير أنه يرى عدم الاستفادة من الكهرباء والمكيفات باعتبارها ترفاً زائداً عن حاجة الإنسان، فقلت له: هذه نكتة. ولديه آراء خاصة به في هذا الجانب، ولذلك لما بنى بيتاً في أفغانستان صممه بغير مكيفات ولا كهرباء، وبنى بعض البيوت في السودان بالطين لتكون أبرد وأحسن، وقصده بذلك أن يتعود الناس على الخشونة فكان هذا أحد طبائعه الشخصية، وليست بجديدة عليه فمنذ زمن وهو يميل إلى الزهد والخشونة وشظف العيش، ولذلك يتعب كل من صحبه ممن تعود على شيء آخر[23].

الدكتوراه

كان إصراري على إكمال دراساتي العليا في السودان، إحدى الخطوات التي زادت من الفجوة بيني وبين أسامة، خصوصاً عندما تأست بي شقيقتي زوجته بعد ذلك، لأن أسامة رغم قلة حصيلته الشرعية إلا أنه كان زاهداً في طلب العلم في أكثر الأحيان، ويرى ما لديّ من الحصيلة العلمية يغنيني عن المزيد.

---

23 - لم أفهم حتى الآن، ولم أجد من يشرح لي: كيف يكون الجمع بين الزهد في الدنيا وملذاتها، وبين الإقبال إلى حد الاستماتة على الظهور والنجومية والإمارة من جانب بن لادن. ما دفعني إلى التشكيك في أنه بالفعل كان زاهدا كما يصور القريبون منه. ربما كان رجلاً حسم خياراته، ويتوقع ما كان ينتظره فبدأ يعد نفسه لذلك. أما الزهاد والمتصوفة في كل الأمم، فإن زهدهم في الدنيا شاملاً لكل حظوظها وليس جزئياً. والله أعلم. المحرر

ولكنني منذ البداية أستقل بمواقفي عنه وأحرص على ألاّ أكون تابعاً لأحد مهما كان قريباً مني، فبعد أن تركت أسامة جزئياً في السودان تفرغت لدراسة الدكتوراه في كلية القرآن والعلوم الإسلامية التابعة لجامعة أم درمان الإسلامية، والتي أصبحت جامعة مستقلة بعد ذلك، إلى أن تمكنت بفضل الله من إنجازها كما أردت في 4 ذي الحجة من عام 1414هـ/1994م، وكان المشرف على أطروحتي مدير جامعة أم درمان الإسلامية البروفسور أحمد علي بابكر، وكانت أطروحتي حسب كلامهم أول أطروحة دكتوراه لسعودي على الإطلاق في السودان، خصوصاً في فن أصول الفقه، وتمت إجازتها والتوصية بطباعتها بعد نقاش طويل.

وكان أحد المناقشين بدأ نقاشي بشكل غير اعتيادي بحكم أنه صاحب مدرسة تقليدية فكان نقاشه أشبه بمقابلة شخصية، فصارت أسئلته أشد صعوبة من غيره، فجعل يسألني وأجيب ويحاورني كما لو أننا في مناظرة علمية، وحكمته في ذلك هو أنه لا يرى جدوى للرسالة التي استحق بها الطالب الدرجة العلمية إن لم يكن مستوعباً ومتمكناً من المادة التي تخصص فيها، وكانت خطوة أعتبرها من محاسن المدرسة التقليدية. بفضل الله تمكنت من الإجابة عن أكثر من 95 في المائة من أسئلته. أما الدكتور عوض الذي سبق أن درّسنا في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة فكان نقاشه بشكل اعتيادي في الأطروحة نفسها، وهكذا

انتهت المهمة بسلام، والمناقشة مسجلة عندي على شريط فيديو بالكامل، ضمن ذكريات تلك المرحلة. وبعد إتمام النقاش تم الإعلان عن أطروحتي في الجرائد والتلفاز.

وكانت أول أطروحة دكتوراه في جامعة القرآن الإسلامية التي كانت كلية تابعة لجامعة أم درمان ثم انفصلت وأصبحت جامعة مستقلة، لذا حضر مناقشتها الدكتور أحمد علي مستشار رئيس الجمهورية لشؤون التأصيل، ولم يحضر أسامة المناقشة بسبب الجفوة التي حصلت بيننا في تلك الفترة، فقد أيقن أني مفارقه لا محالة، وهذا ما حصل بالضبط فقد تمت مناقشة أطروحتي في الرابع من ذي الحجة ثم شهدت الحج في العام نفسه بعد أيام.

في فترة ما قبل المناقشة انشغلت جداً بالأطروحة في مراجعتها وفهرستها وغير ذلك من لوازم الأطاريح العلمية، فكنت أمضي قرابة 13 ساعة أصحح وأنقح وأكتب، وواجهني شح المصادر والمراجع العلمية، إلا أنني تغلبت على ذلك بفضل الله تعالى ثم بالعزيمة والإرادة القوية، وكنت ذهبت إلى السفارة السعودية لدعوة القائم بالأعمال فيها لحضور المناقشة، لكني لم أجده فتركت له «الدعوة» ونسخة من أطروحتي.

تمنيت قبل المناقشة لو أن الله أنبت لي جناحين حتى أطير بهما إلى المدينة المنورة فقد كنت شديد التعلق بها، ولم

أكد أنهي مناقشة أطروحتي حتى طرت إلى البلاد، ولم يكن معي أهلي فقد سبقوني وتركوني وحيداً في السودان، واستقبلوني في جدة، ثم ذهبت إلى الحج في تلك السنة من غير أسامة، بينما كنا قبل ذلك نحج سنوياً، ومنذ تعارفنا نحرص على ذلك إلا إذا كانت جبهة الجهاد من السخونة بمكان، فتحبسنا عن الحج. لم يكن معي هذه المرة بطبيعة الحال لأنه اتخذ قراره بعدم العودة والرجوع، والاستقرار هناك، ومن ثم كان وداعي له في آخر لقاء معه في تلك السنة.

السجن أحب إلي

ويتساءل البعض عن لحظات الوداع كيف كانت، والواقع أن فراقي له ووداعي إياه لم يكن له ذلك الأثر المعتاد في لحظات الوداع لأن ذلك كان أمراً تدريجيا بالنسبة لي، فبعد الانتهاء من المناقشة ذهبت إلى أختي لزيارتها وكان أسامة موجودا فباركا لي، ولم يعد هنالك ما أتحدث عنه لأنني انتهيت مسبقاً من ترتيب كل شيء بما في ذلك لحظات الفراق والوداع، ولكن أسامة بدت عليه أمارات الأسى والحزن لفراقي.

وبناءً على ما ذكرت من تأسفه وحزنه أود القول بأن ذلك كان شعوراً أخوياً، فقد كان صديقاً وأخاً، وكنا نتحدث عن همومنا ونحج سوياً، وكان ينتظرني حتى أخرج من الجبهة ليصحبني،

وكذلك كانت صلاتنا سوياً، باختصار كانت علاقة حميمية للغاية، ولذلك يسألني كثيرون عن الفراغ الوجداني الذي تركه أسامة في داخلي، والحق أنه ليس هناك فراغ بالمعنى الذي يتردد، لأن فراقي إياه حصل بشكل تدريجي، فشتان ما بين وقع التأثر بفراغ إنسان افتقدته فجأة وآخر افتقدته بشكل تدريجي، فنحن أكثر نقاشاتنا تتمحور حول تصوراتنا للواقع وكأنه يوحي إلي بأنني مخطئ وأن له طريقا آخر غير طريقي.

كان يصمني بالجبن والتراجع عن طريق الخير والركون إلى الدنيا وملذاتها. في حين لا أنفك عن التصريح له بآرائي ورغبتي في عودته ورجوعه عن توجهه، وكثيراً ما تلوت عليه قوله تعالى: «ربِّ السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه»، ويرد عليّ بأنني لو عدت لفعلوا بي كذا وكذا، فأقول: أن يسجنوني في سجن أبيار علي بجوار قبر النبي صلى الله عليه وسلم أحب إليّ من البقاء معكم، وحتى لو أننا سلمنا لكم جدلاً بصحة أهدافكم، فإن أساليبكم لا توصل إلى الهدف المنشود، لا محالة، فوجب الفراق النهائي.

وسئلت عما إذا كنت وددت يوماً عدم فراقهم والمضي معهم في طريقهم، وجوابي هو أن ذلك لم يطرأ لي على بال، وإنما العكس الذي حدث، لأنني بطبيعتي لم أكن متسرعاً في اتخاذ قراراتي فكنت أحاول دراسة الوضع دراسة كاملة قبل اتخاذ القرار

النهائي، وقد استفدت من أصول الفقه في هذا الجانب في باب الاستقراء، فكان منهجي يميل إلى الاستقراء التام، فإذا قررت قراراً بعد استقراء لم ألتفت فيما بعد إلى الوراء، كما أنني أستبعد ما أمكن عاطفتي في اتخاذ قراراتي، فكثيراً ما تملي عليك العاطفة المجردة، أمراً بعيداً عن الصواب.

ولست بهذا أدّعي أن أحداً كان يتصور أن الأمور ستصل إلى ما وصلت إليه مؤخراً، بسبب عوامل عدة، فمن الواضح أن القاعدة استفادت من التضخيم العالمي في توسيع رقعتها والتأثير على الناس، كما أن ذهاب أسامة إلى أفغانستان في وقت مبكّر، ساعده في التحالف مع حركة طالبان التي لمست من الرجل الإقبال والصدق بحكم رصيده السابق في الجهاد، وهنا كان أسامة قد خالف مبدأه الذي كنا اتفقنا عليه أيام الجهاد في أفغانستان حيث يرى في تلك الفترة أن مهمته المساندة بالمال والنفس إلى أن خرج الروس، فكان بعد ذلك لا يرى التدخل في القتال والخلاف الدائر بين الفرقاء، لكن تحالفه مع طالبان غيّر هذه الاستراتيجية باعتباره جزءاً من الدولة، فقد وجد أن طالبان هي صاحبة الشوكة في هذه الفترة وبالتالي فإن منهجيته السياسية قائمة على مساعدة صاحب الشوكة ودعمه في قيامه وهذا هو الذي تبناه وفق ما تمليه مصلحته السياسية، التي يحاول تبريرها بفقه «دعم الغالب» الذي عالجه بعض الفقهاء.

وقد حصلت نقاشات طويلة بيننا في هذا الصدد حيث كنت لا أرى الدعم المطلق لصاحب الشوكة والغلبة، وكنت أرى أننا قد سئمنا من الخلافات والسياسات الأخرى، ولا شك أن تحالفه مع طالبان من المؤثرات الأقوى في تطور الأحداث وتسارعها على الصعيد الخاص بأسامة، ويوماً بعد يوم يزداد يقيني بأن قراري كان الأصلح والأصوب.

الخلاف بيننا لم يكن وليد اللحظات الأخيرة من علاقتنا، بل كان سابقاً لذلك، فبينما استعذب أسامة الأضواء منذ منتصف الجهاد الأفغاني، كنت على النقيض منه تماماً فلم يكن لي يوماً طموح للظهور ولفت أنظار الجماهير، بخلاف أسامة الذي كان طموحاً لأن يكون له ظهور وجمهور، ولأنني أعترض على توجهه ذلك خشيةً أن يفتن فينتهي إلى ما صار إليه، كنت أفر وأعتذر عن الكثير من اللقاءات التي يقيمها ويحاضر فيها ويتصدر، فلم يحصل أن وافقته على شيء من ذلك.

نعم قد نترافق في الزيارات ولكن لم يحصل أن ذهبنا سوياً إلى أي محاضرة، وذلك لأنني بطبيعة الحال لا أفضل أن أكون في عباءة أحد، ولا أريد أن أحسب على أحد أو يحسب عليّ أحد، وكان هذا من أهم أهدافي منذ البداية، وفي الحقيقة كنا أصدقاء متحابين وإخوة متصافيين، متعاونين على «البر والتقوى»، لكن

ليس بالضرورة أنني أتفق معه في كل شيء، بل كنت كثير الخلاف معه، في أشياء كثيرة وإن كنا نسير سوياً.

وهذا جعل الكثيرين يذكرون سعداً بمجرد ذكر أسامة، وأسامة بمجرد ذكري، وخاصة عند النخبة من الجهاديين وغيرهم، ولم يزل الكثيرون يسألونني باستمرار عن أسامة ليحرجوني، غير أن الأمر على خلاف ذلك فلم أكن منحرجاً من هذا، إلا من جانب كثرة الأسئلة والاتصالات والزيارات، فكانت أعداد هائلة من الشباب في زيارات لا تتوقف ولا تنقطع أول الأمر وأنا أتشاغل عن استقبالهم، كما كان رنين هاتفي لا يتوقف حتى سئمت من كثرة الرد فجعلت لا أرفعه، بل غيرت رقم الهاتف ونقلت من ذلك المنزل تفادياً لمثل هذه الأمور ومكثت على هذا قرابة ستة أشهر كانت كافية ليأس أولئك الشباب، فأنا قبل أن أعود دخلت في مرحلة أخرى وأريد أن أقلب الصفحة، ولكن كثيراً من الناس لا يفهمون بسهولة، فعندما يرى الناس شخصين من خلف الزجاج بينهما بعض التوتر من المحتمل أن يتشاتما فيتصارعا أو يتصالحا فيتعانقا، لا يمكن أن تزيل هذا المفهوم من أذهانهم بسهولة، ولكنني عدت وقد سيطرتُ على مشاعري، ولم يكن لديّ ما أخفيه ولا ما أخشى عليه أو أخاف منه، وقد توقع الكثيرون أن يحصل لي شيء في المطار ولكنه لم يحصل والحمد لله، وبعدها انهالت عليّ تلك الزيارات والمكالمات حتى يئس أصحابها من التعاطي معهم.

وكان الشباب يسألونني باستمرار ماذا نفعل؟ فأقول لهم: ليكن جهادكم طلب العلم، وتبصير الناس بحقوقهم وواجباتهم تجاه دينهم وأمتهم ووطنهم، وبعدها انشغلت بالعمل في المسجد النبوي الشريف بعد لقاءٍ مع المهندس بكر بن لادن رئيس مجموعة بن لادن، عرض عليّ فيه العمل معه في المجموعة. ثم جعلت كلما سألني شخص عن أسامة أرد عليه بأنني لا أعلم عنه أخيراً إلا ما يعلمه هو من خلال ما تتناقله وسائل الإعلام.

هل حقق أسامة طموحه؟

بين الأسئلة التي واجهتني كثيراً، وأتوقع أنها ستواجهني مع الأيام أكثر وأكثر هو سؤال الناس لي عما إذا كنت أرى أن أسامة بن لادن حقق طموحاته التي ترك بلاده، وانسلخ عن أسرته من أجلها، بغض النظر عن صواب تلك الطموحات وخطئها؟

والواقع أن سؤالاً كهذا تحتاج إجابته إلى بحث مستقل مطول، يتناول تجربة أسامة بالنقد والتحليل والتقويم، خصوصاً فيما بعد السودان. لكن رأيي في كل المراحل التي مرّ بها أسامة تضمنته السطور السابقة من هذا الكتاب، بأساليب عدة، وفي مواطن مختلفة.

وإذا كان السؤال الملح ينصرف إلى ما بعد فترة أفغانستان

وإعلان التحالف مع التنظيمات الجهادية الأخرى، وإشعال نار حرب عالمية ضد كل ما هو غربي أو حليفاً للغرب المتسلط كما يراه هو وأتباعه، فإن الجواب سيكون عن تلك المرحلة بصورة خاصة مع أني لم أشهدها، ولم تكن لي بها أي صلة تختلف عن بقية المتابعين لوسائل الإعلام، إلا اللهم معرفتي الدقيقة بأسامة من قبل، والتي تجعلني أستطيع التكهن والجزم أحياناً بمآربه في بعض الخطوات التي يخطوها.

طموح أسامة ليس واحداً، فهناك طموحه في رفع ما يسميه بـ «الحس الجهادي» لدى المسلمين، الذين يراهم جنحوا للسلم أكثر مما ينبغي ولم يعد خيارهم في ذلك مناسباً كما يرى، فكان يقول عندما يأتي الحديث عن بعض المتدربين في أيام الجهاد الأفغاني: دعوهم يعدون أنفسهم، فالمسلمون يحتاجون إلى كل من يمدّ يده. هذا الطموح الأول.

وهناك طموح ثان يتصل بالأول، وهو إسقاط هيبة القوى العظمى في نفوس المسلمين، فيريد أن يبسّط إمكانات العدو على واقع الأرض، فيقول إنهم رجال ونحن رجال حتى وإن امتلكوا العدة والعتاد فلا بد أن ينزلوا في نهاية المطاف للمنازلة على الأرض. وغرته في ذلك تجربته الأفغانية التي شاهد فيها قوى الاتحاد السوفياتي تتفتت أمامه بكل عناصر تجهيزاتها المتقدمة بين يدي

مجاهدين بسطاء، لا يملكون من القوة إلا الإرادة وشيئاً لا يذكر من التجهيز العسكري[24].

طموحه الثالث، بناء مجد جهادي إسلامي يتزعمه ويتربع على عرشه، ويا حبذا لو كان دولة تتقاطع معه في التوجهات والأفكار حتى وإن لم يحكمها هو. بسرد تلك الطموحات بكل صراحة، يمكن لأبسط القراء قدرة على التحليل، أن يدلي برأيه، ويجيب عما إذا كان أسامة حقق أياً من تلك الطموحات أم لا.

أما رأيي الشخصي المستند إلى قناعاتي ومعرفتي السابقة بأسامة أيضاً، فإنني لا أراه حقق أياً من تلك الطموحات، مثلما أرى.

ففي ترجمة الأول ما زاد على أن زين للكثيرين أغلبهم قليل الحظ من العلم والتجربة، إيقاع أنفسهم في المهالك، فظلوا يصفقون لما سموه «السلفية الجهادية» ويتخبطون يميناً وشمالاً.

---

24 - قلت: بدون التشكيك في مساهمة المجاهدين في أسباب انهيار الاتحاد السوفياتي، إلا أن الجميع يعلم أن تضخيم هذا الأمر وراءه مآرب خاصة لتنظيم القاعدة ومن أصيب بسكرة الجهاد الأفغاني، أما عند التفكير باستقلال فإننا سنرى أن المجاهدين جزء صغير جداً في معركة استنزاف الاتحاد السوفياتي وحربه الباردة مع أميركا والغرب. وحتى المجاهدين أنفسهم لم يكونوا ليصنعوا شيئاً يذكر لولا التأييد السياسي والدولي الذي كان يحمي ظهورهم ويمدهم بكل وسائل الدعم. والمزيد من البرهان على قلة تأثير دورهم كأشخاص في تلك المعركة، هو ما حدث بعد أحداث 11 سبتمبر، حين تبدلت «اللعبة»، فكان المجاهدون السابقون تحمسوا للمعركة بشكل أكبر من السابق، إلا أنه لما لم يكن لهم غطاء سياسي ودعم عسكري من أهم الدول المحيطة، تهاووا سريعاً أمام الغزو الأميركي. وما بقي لهم من جيوب هنا وهناك معروف من يساندها. فهم ليسوا بدعاً من غيرهم عند النظرة إلى تجربتهم بتجرد.

فلا عمروا أرضاً ولا فتحوا ثغراً ولا استأصلوا عدواً، والنظرة إلى الجبهات الجهادية في كل أنحاء العالم الإسلامي خير دليل. حتى إن تجارب المقاومة التي نجحت بعض الشيء لم تكن تستمد تجربتها من فلسفة أسامة، كما هو الشأن بالنسبة إلى حزب الله اللبناني.

أما الطموح الثاني، فإن أسامة والمؤمنين بأفكاره تمكنوا من تحقيق كثير منه، ولكن بخسائر تجعلني لا أستطيع اعتبار ما أنجزوه نصراً، فدرء المفاسد مقدم على جلب المصالح كما تقول القاعدة الفقهية التي تلتقي عندها كل القواعد25. فحين ضربوا أبراج مانهاتن، رأوا في الأمر إنجازاً لأنهم جرحوا كبرياء القوة العظمى، إلا أن تلك القوة اتخذت من خطوتهم جسراً عبروا به إلى إلحاق أنواع من الأذى بالمسلمين لم يكونوا يجرأون عليها من قبل، بل تمكنوا عبر تلك الذريعة من تجنيد المسلمين ضد بعضهم.

أما الطموح الثالث فيكفي دليلاً على فشله، مروراً سريعاً على ما سبق من تاريخ أسامة المليء بالإخفاقات، بسبب قلة مراجعته لأخطائه وأخذ العبرة من ماضيه. وحتى تنظيم القاعدة الذي يعتبره البعض يحقق لأسامة بعض طموحه في إقامة دولة

---

25 – انظر كتاب الأشباه والنظائر، للإمام جلال الدين السيوطي، وفيه أرجع كل القواعد الفقهية إلى خمسة قواعد هي: الأمور بمقاصدها. الضرر يزال. المشقة تجلب التيسير. لا ضرر ولا ضرار. العادة محكمة. ثم قال إن القاعدة الجامعة لكل تلك هي: درء المفاسد مقدم على جلب المصالح.

جهادية، أصبح تأييده يتهاوى بسبب توالي أخطائه الفادحة في قتل الأبرياء في العراق والسعودية وباكستان، وما أبقى له على بعض التأييد إلا أخطاء الغرب وبعض حلفائه في مكافحة الإرهاب. وإذا ما رحل أسامة عن التنظيم بسبب موت أو قتل أو غيره فإنني لا أرى التنظيم يملك مقومات الصمود طويلاً، خصوصاً بعد تطور وعي الشعوب العربية والإسلامية والتفاتها إلى خيارات أخرى، بعد أن أفلس التنظيم في تحقيق أي منجز ملموس على الأرض[26].

---

26 - كان ذلك قبل الثورات العربية التي رأى بعض المحللين أن عدم رفع أحد من المشاركين فيها أي صورة لأسامة، كان بداية إعلان موت أسامة، قبل أن يغتاله الأميركيون بعد ذلك. وأما بعدها فتزداد هذه الفكرة وضوحاً وصدقية.

الفصل الرابع
تحت أستار الحرمين



عودة وصدمة!

بالعودة إلى ما تلا نهاية مرحلة السودان، فإنني عندما وصلت المدينة المنورة شرعت في ترتيب أوراقي بعد غياب طويل، وصرت مهموماً بشأن الحياة الجديدة والاستقرار والعمل ونحو ذلك. وبما أنني قبل توجهي إلى السودان كنت عضو هيئة تدريس في الجامعة الإسلامية، فإن بين الخيارات التي أرجح الأخذ بها، العودة إلى عملي السابق في الجامعة، لأنني تركتها من غير أن أستقيل بسبب بعض الإشكالات والمضايقات فخرجت منها مغضبا، وكأنه حصل نوع من التحدي بيني وبين الجامعة، فبإكمال دراستي نجحت في هذا التحدي، وقبل ذهابي تم تحويلي من كلية الشريعة إلى كلية القرآن فانتظمت فيها فترة، ثم تركتها وسافرت. الحاصل أنني بعد تأمل استبعدت ذلك الخيار لأسباب عدة من بينها ظروف إدارة الجامعة في ذلك الوقت، وتشددها في بعض المسائل.

وبحكم أن الوالد رحمه الله كان تاجراً، فكان من بين الخيارات أن أسانده في أعماله التجارية، إضافة إلى تفكيري في التفرغ للناحية العلمية، والتي كان الاهتمام بها في ذلك الوقت هو الأساس بالنسبة إليّ، إلا أن صدمتي بوفاة شيخي الشيخ زيدان رحمه الله زعزعت هذه الفكرة شيئاً ما، فقد كنت شديد القرب منه، بل كان أقرب الناس إليّ، ودائما ما أكون معه.

وقصة وفاته رحمة الله عليه كانت مؤثرة، إذ جاءته المنية في المسجد النبوي، حيث كانت عادته أن يصلي الفجر ويتكئ على المحراب العثماني بجانب المنبر النبوي يقرأ الأذكار حتى طلوع الشمس، وبعد طلوع شمس ذلك اليوم جاء الطلاب إليه كالعادة ليقرأوا عليه فوجدوه قد فارق الحياة، وسبحان الله كنت قد وصلت قبل وفاته بيوم ولكني تكاسلت في الذهاب إليه فقلت سأذهب إليه غداً الثلاثاء وتوفي في ذلك اليوم، ولم تتيسر لي رؤيته مع أنني كنت شديد الحرص على ذلك، حتى إنني أتيت إلى المدينة مسرعاً بعد الحج، على أمل اللقاء به ولكن الله يفعل ما يشاء، فرحمه الله رحمة واسعة، وجزاه عني خير الجزاء.

في قلب بن لادن «الشركة»

أهم ما في الأمر أن الرجوع إلى المدينة ـ والذي كان حلما كبيرا ظل يراودني طوال سنوات الجهاد في أفغانستان والدراسة في السودان ـ قد تم لي.

وأثناء ذلك صدر أمر بأن تأخذ مجموعة بن لادن السعودية مشروع النظافة والسقيا في الحرمين ولم يكن لدى المجموعة خبرة في النظافة لأنها كانت متخصصة في المقاولات والصيانة.

وكنت وقتها في مرحلة العودة إلى الاستقرار لذلك لم أختر عملاً بعد كما مضى، فتمت الموافقة على طلب استلام مشروع

النظافة والسقيا في الحرمين من قبل المهندس بكر بن لادن، وعرض عليّ أن أشرف على المشروع في المسجد النبوي، وكان البعض يسألني بعد ذلك: هل كان المهندس بكر بن لادن يعرفك من قبل؟ وكيف؟

وكنت أجيب بأنه كان يعرفني منذ القدم، بل هو الذي خطب لي وهو من زوجني بابنة أخته وأم أولادي، بعد تمهيد أسامة بطبيعة الحال.

وأهم ما في الأمر أنني قمت بالموافقة على الخدمة في الحرمين، وكان هذا شرفاً كبير بالنسبة لي، واستشرت الوالدين فأيدا ذلك، وكان القرار يقضي بأن أتولى الإشراف على المشروع في الحرم النبوي، وبالفعل حصل ذلك فأصبحت مشرفاً عاماً على المسجد النبوي في التشغيل والصيانة والنظافة والسقيا، وما تبقى من تشطيب ساحات ومواقف المسجد النبوي، وكان أساس المشروع مبني على التحدي.

وتم الاتفاق مع مجموعة «دله» التي كانت تتولى قبلنا مشروع التنظيف والسقيا واشترينا معداتها، فكانت تلك فكرة اقترحتُها على المهندس بكر ونجحتْ كثيراً ولله الحمد.

ولأن رمضان على الأبواب ولا يخفى على أحد كون رمضان هو الموسم الأهم بالنسبة للنظافة والسقيا، لم نكتف بشراء

معدات مجموعة «دله» فحسب، بل زيادة على ذلك أخذنا عمالتها في تلك السنة، وعملنا في إدارتهم ولكننا اكتفينا بإدارتهم الدنيا فقط والمكونة من مشرفين ومراقبين وكانت تجربة ناجحة ولله الحمد.

وكان نجاحي في المدينة أكبر من نجاحي في مكة عندما أتيت إليها بعد ذلك، وبعد انتهاء الموسم شكروني وطلبوا مني أن أكون مسؤولاً عن شؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي وعن أعمال الصيانة والنظافة والسقيا فيهما، وأمر آخر هو أن أمثل المهندس بكر شخصياً في جميع هذه المشاريع، والتي كان فيها ما يقارب أربعة آلاف عامل وموظف، وفي الموسم يتضاعف العدد ليتراوح ما بين سبعة إلى ثمانية آلاف شخص هذا بالنسبة إلى الحرمين، بالإضافة إلى المشاريع التي لا يزال العمل فيها جارياً.

معنى هذا أنني صرت مسؤولاً عن شؤون الحرمين لبن لادن، ومسؤولاً أيضاً عن علاقات المجموعة بالرئاسة، وكل ما يخص الحرمين، حتى المشاريع التي في جدة كنت أنا من يمثلها سواء تعلق الأمر بالنظافة أو بأي مشاريع أخرى، وأنا أمثل المهندس بكر في القرار 111 والذي فيه تعييني، وهو قرار إداري مكتوب فيه: فلان الفلاني يمثلني شخصيا في جميع المشاريع، وهذا ما لم يكتبه بن لادن لأحد حتى إخوته لم يكتب أن أحدهم يمثله شخصياً،

وذلك ناتج عن الثقة التي وضعها في، وبقيت قرابة سنة لم أتمكن فيها من تحديد ذاتي، كما أنني لم أحدد راتباً لي وكنت أقول له: خدمة الحرمين شرف لي.

وكان يرسل لي مبلغ عشرة آلاف شهرياً من تلقاء نفسه حتى يتم تحديد الراتب وأنا أرفض أن أحدد مرتباً من جهتي، وكنت في الحقيقة متحمساً لخدمة الحرمين وأعتبر ذلك شرفا عظيما لذلك لم أكن أنظر إلى الناحية المادية بتاتاً، حتى أنني كنت أقول له: لو أعطيتني ريالاً واحداً أنا سعيد بذلك ولك المنة، وكذلك هو كان يقول لي: إن ربك هو من أرسلك لنا، وكان يكرر ذلك حتى في المجالس العامة، يقول بأن هذا الرجل لست أنا من أتى به بل ربنا هو من أرسله إلينا.

بعبع أسامة

وفي عائلة بن لادن لم يكونوا يتكلمون في أحاديثهم الخاصة عن أسامة فهو بالنسبة لهم شيء مخيف لأنه سلبت منه الجنسية، وتبرأوا هم منه، ولكن أحيانا يحدثني المهندس بكر عن بعض الهموم، ويذكر ماذا فعل أسامة، وماذا ترك بالنسبة لهم من الفراغ، وكنت أقول له: إن هذا الملف أرجو ألاّ نتحدث فيه لأنه مجرد صفحة وطويت، ولا أتكلم فيه بإيجاب ولا سلب، لأن ذلك في النهاية يتطلب منك أن تقف في أحد الصفين.

وحقيقة الأمر أن علاقتهم بأخيهم لم تكن تهمني في شيء، والذي يهمني هو ذاتي، وكثيراً ما حاولوا أن أكون معهم في هذا الاتجاه، وأنا أرد بالقول: كنا في مرحلة ومضت، وكنا في الجهاد الأفغاني وانتهى، وكل الناس يعرفون ذلك، وانتقلنا بعده إلى محاولات الصلح، ثم كان ذهابنا إلى السودان فنظرنا إلى الأمور عن كثب فوجدنا أنها ليست بذاك، فقررت الاستفادة من إقامتي هنالك في دراسة الدكتوراه، وهكذا هو المؤمن حيثما حل نفع، وحيثما زرع نبت.

ويسألني بعض الأصدقاء هل تم استغلال محبتك لخدمة الحرمين وعدم تحديدك لراتب معين من قبل بن لادن؟ فأجيب: لا أعتقد أنهم استغلوني لأن العلاقة معهم كانت مبنية على الصداقة وبعض الصلات التي كانت أكبر من الوظيفة، وبن لادن لا يعتبرونني موظفا، بل يعدّونني من أسرتهم، كما لم ترد فكرة الاستغلال في خلدي أبداً. لكني فيما بعد طلبت من المسؤولين تقييم العمل، فقيم ووضع لي راتباً لم يكن يسرني إلا أني رضيت بالوضع، وكان الراتب عبارة عن خمسة عشر ألفا وبعض البدلات كالسيارة والسكن وأشياء من هذا القبيل، فلم أناقش المسألة، لأن همي لم يكن المال جوهره، بل ظل التشرف بخدمة أطهر بقعتين لدى المسلمين، وكانت السيارة بسائق والسكن كان مفروشاً، ولم أكن أطلب شيئاً حتى المكافأة السنوية صرفت لي مرة واحدة فقط،

ولم أطلبها قبل ذلك ولا بعده، أضف إلى ذلك أنني كنت في وضع حرج وصعب في أفغانستان والسودان وجدت نفسي فيه فجأة، فلما رأيت نفسي أخرج منه إلى خدمة الحرمين، كان ذلك شيئاً مفرحاً وشرفاً فوق أي حافز مادي.

ترك المدينة على مضض

أصبح الحديث عن العمل في الحرمين الشريفين وخصوصاً المسجد النبوي هو شغلي الشاغل كما ذكرت، وكان موسمنا الأول موسماً ناجحاً وخصوصاً بعد استلام النظافة والسقيا والصيانة من شركة «دله»، فطلب مني المهندس بكر إثر ذلك أن أكون مشرفاً على مشاريعهم في المسجد الحرام إلى جانب المسجد النبوي، وأن أنتقل من المدينة إلى جدة في المركز الرئيسي بحيث أكون قريبا بين المدينة ومكة، وصدر قرار بهذا وكلمني المهندس بكر بن لادن شخصياً فطلبت منه إعطائي فرصة للتفكير لأنني لا أريد أن أترك المدينة ويصعب عليّ ذلك جدا لقوة علاقتي وارتباطي بها، فمكثت ما يقارب ستة أشهر وأنا لم أنفذ طلب المهندس حتى أنه كلمني وقال لي: إن الله يكرمك بأن تخدم المسجد الحرام والمسجد النبوي فترفض؟ وحاجّني في ذلك، ولم يبق إلا إذن والديّ اللذين عدت إليهما بعد أن أتعبهما غيابي عنهما المتكرر أيام الجهاد ودراستي في السودان، إلا أنهما

لم يبديا موافقتهما فقط، وإنما حثاني على القبول بالعمل الجديد، فتم ذلك، على أنني لم أنقطع عن المدينة أبداً ولا عن والديّ، إذ كنت أرجو أن يختم الله حياتهما برضاهما عني لمحاولة تعويضهما عما لقياه في الفترة السابقة.

وصلت إلى جدة وكنت في الإدارة العامة لمجموعة بن لادن، وفي المركز الرئيس، وأصبحت المشرف العام على المسجد الحرام والمسجد النبوي، وبعد ذلك استحدث ما يسمى شؤون الحرمين في مجموعة بن لادن، فكنت مساعد المدير العام لشؤون الحرمين الذي كان المهندس بكر بن لادن، وكان إلى جانب ذلك رئيس مجلس الإدارة والمدير العام فكنت أنا مساعده لشؤون الحرمين. وكانت الإدارة مستقلة حيث كنت أنا المسؤول عنها في مجموعة بن لادن السعودية ومسمى وظيفتي: (مشرف عام على المسجد الحرام والمسجد النبوي لمشاريع التنظيف والتشغيل والصيانة والنظافة والسقيا) إضافة إلى أنني كنت أمثل المهندس بكر، وهو تمثيل شخصي وليس بمزاولة أعمال فقط، بل حتى في تنفيذ المشاريع فأي شيء أتخذه كأنه متخذ من قبل المهندس بكر، وأي شيء يرجع الموظفون فيه إليه يقول لهم: هذا ما اتفقت أنا وهو عليه، حتى أنه لا يعلم شيئا عن طبيعة الصراعات التي تحدث في الشركات، فكان داعماً لي بشكل كبير جداً، وأنا كنت لا أثير له أي شكوى ومضايقات، ولكنه كان ذكياً،

وهو من يسأل ويقول: هل فلان يتعبك؟ فإذا كرر وألحّ في السؤال أعطيته طرفاً خفياً فيفهم عني، ويعرف بذكائه باقي الأحوال، وعندها يكون دعمه لي أشد وأقوى.

عين بن لادن

في جميع الشركات لابد من وجود بعض المشاكل وخاصة في شركة مثل مجموعة بن لادن، وهي شركة ضخمة تتكون من مجموعة شركات، تحوي الكثير من الجنسيات والشعوب والقبائل، ويوجد العديد من المصالح المتضاربة، فهناك المجموعات اللبنانية والمجموعات الفلسطينية والمجموعات المصرية وغير ذلك فالكثير من الإخوة لهم أناسهم ومصالحهم الخاصة بهم ولهم رهاناتهم وحساباتهم، وأنا شخصياً راهنت دائماً على المهندس بكر لأنه هو الأقوى، وكلامه هو الأصل، لذلك الموظفون يشعرون بأني عين لبكر، وأني رقيب عليهم، فكانوا يخشون مني، ولذلك كانوا يبحثون عن ذريعة حتى يتخلصوا مني ويخرجوني من الشركة، وهذه طبيعة الشركات، ولأن من يأتي دائماً من الأعلى يخشى منه أصحاب المصالح، ومثلما يقال: «النظيف لا يخاف»، و«من كان في بطنه لحمة لينة يشعر بها».

كل ذلك كان مجرد نوع من الصراعات، وكنت أتجاوزها، وبالعكس أكسبتني تلك الصراعات جواً من الصبر وأضافت إليّ

بعض الحنكة، وفي البداية كنت متحمساً وبعد ذلك أدركت الواقعية في طبيعة العمل، والحكمة في أنك تتعايش وتعايش، وتحاول أن تصلح ما تستطيع أن تصلحه وتتجنب إساءة الناس ولا تسيء لمن أساء إليك ولكن تحاول أن تتجنب إساءته قدر المستطاع، وتحسن إلى من أساء وتزيد في الإحسان لمن أحسن، وليس بالضرورة أن يكون كل شيء على ما يرام، وأن تسير كل الأمور على ما تشتهي وتتمنى، وكان ذلك شيء استفدته من التجربة.

أهل المدينة أولى

أثناء عملي في المدينة قمنا بإنجاز بعض المشاريع سواء التي كانت تحت التنفيذ قبلنا أو التي بدأناها نحن، فكان إكمال الساحات والمواقف التي كانت على مشارف نهايتها وتسليمها واجتهدت معهم في إسراعها وإنهائها في ظروف مالية صعبة، كانت الشركة تمر بها نظراً للظرف العام، وتأخر المستخلصات والصرف، وكان تأثير ذلك كله شديداً على الشركة، ولكني تجاوزت كل هذه الأمور ولله الحمد في الحرمين معاً. ومن أهم الأشياء التي كانت تؤرقني وأعتبرها نوعاً من التحدي أن معظم العمالة ـ خاصة فئة المراقبين والمشرفين ـ أغلبهم من غير أبناء المدينة، وهو شيء ملاحظ لأي شخص، وكان هذا التحدي من أهم أهدافي، خاصة إذا علمنا أن المسجد النبوي كان يقوم بخدمته أهل المدينة

أنفسهم قديماً، وكان الجميع يحظى بهذا الشرف ويقوم به بكل سرور، ويشتركون حتى في تنظيف المسجد.

وأذكر وأنا صغير أن كبار أهل المدينة يلبسون المشالح ويأخذون المكانس ويكنسون الروضة والمسجد، وكنا نراهم في السابق قبل أن تؤسس وكالة الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي، يقومون بذلك العمل النبيل ويربون عليه أبناءهم، بينما في ذلك الوقت، كان أكثر من نراهم يخدمون الحرمين من إخواننا الباكستانيين وغيرهم.

وسألت نفسي: لماذا لا تكون الفئة التي تشرف وتراقب وتساعد على أمور التنظيف من أهل المدينة المنورة؟ ومن أجل أن يتحقق هذا الحلم قمت بوضع برنامج لتوظيف أبناء المدينة، فكانوا يقدمون لنا طلبات التوظيف، ووجدت منهم إقبالاً شديداً جداً، وشاع هذا الخبر في المدينة كلها، وكلما أتت مجموعة قبل أن يتم توظيفهم أُجري معهم لقاء أحدثهم فيه عن هذا الجانب وأقول لهم: أنتم أبناء المدينة أولى أن تخدموا المسجد النبوي وأن تصبروا وأن هذا شرف عظيم، وبهذا تكونون قد جمعتم بين الدنيا والآخرة، وجمعتم أجرين.

وكان لهذا الكلام أثر بالغ في نفوس الشباب الذين يتقدمون للعمل معنا، وكان إقبالهم علينا شديداً، وتم توظيف أغلبهم.

في البداية كان يأتي إلينا مائة شاب يتم توظيفهم ولا يبقى منهم عادة إلا عشرة، وهكذا جرت الأمور حتى تم تعيين عدد غير بسيط من أهل المدينة المنورة في مجال المراقبة والإشراف، وتتطور الحال حتى بدأوا يدخلون في مجال الكهرباء والصيانة والسباكة، وكانوا يشتكون من أن بعض الإخوة لا يمكّنونه من التعلم منهم، وأواجههم بالقول: حين تثبت نفسك لا يمكن لأحد أن يعيقك، أنت تنتزع منه كيف تتعلم وكيف تكون، وكانت تجربة ناجحة، وإلى الآن حين أذهب إلى المسجد النبوي أرى عدداً غير قليل من هؤلاء الشباب، يأتون ويسلمون عليّ. هذا من ناحية.

ومن الناحية الأخرى قمت بتحسين أوضاع العمال بشكل عام، حيث إنهم أصبحوا يحسون بشيء من الراحة، لأنه في السابق تتأخر رواتبهم بسبب تأخير المستخلصات فأخذت بنداً خاصا من المهندس بكر، يستثني عمال الحرمين من تأخر الرواتب، أملاً في رفع معنوياتهم، لأن معنوياتهم أثرت على الإنتاجية فصرت أهتم بهم كثيراً، لأن هذه الفئة دائما هي الأبرز وخاصة في مجال النظافة ويحتكر هذا المجال 90% أو 95% من القوة العاملة، ولأنهم عمالة لا بد من رفع معنوياتهم، وإذا لم تُعط هذه العمالة الثقة فبالتأكيد سيتأثر المردود على أرض الواقع.

لأجل ذلك صرنا نقوم بنوع من رفع المعنويات، وأخذنا في عمل الحوافز لهم، ونجتمع بهم، وكنت أطالبهم بمراعاة الخدمة في المسجد النبوي الشريف، ولا سيما في المسجد القديم، وحول الحجر النبوية، وعدم رفع الصوت، وكذلك عدم استخدام الآلات المزعجة والتي لها صوت عال، ومن أجل ذلك حاولت أن آتي بآلات ليس لها صوت، وأن تكون هذه الآلات تقوم بنفس العمل وبنفس الكفاءة، وأجريت اتصالات كثيرة وبشركات مختلفة، ولكن للأسف لم يتم الأمر بالشكل المطلوب، ويحزنني الحال إلى الآن لما أرى مكنسة كهربائية صوتها عال تكنس حول الحجر النبوية وذاك الموقع لا ينبغي فيه رفع الصوت، وكان هناك اهتمام كبير بهذا الجانب، وكنا نأتي بمكانس ببطاريات خاصة في تلك المنطقة حتى لا تصدر أصواتاً مزعجة، فحصل نوع من الارتقاء بروح العاملين حتى على هذا الصعيد، ونتيجة لذلك صارت المراقبة ذاتية، وهي أهمّ وأكثر تأثيراً من المراقبة الخارجية، وصار الشخص عندما يعمل يحس أنه يخدم في مسجد رسول الله (ص) وهذا عنصر أساسي تمكنا من الوصول إليه ولله الحمد. ولكن ما زال يؤسفني عدم مراعاة خفض صوت المعدات والأفراد بالقرب من مقام النبي الكريم، الذي يجمع المسلمين على حرمته، ونصت آية في كتاب الله على حرمة رفع الصوت بين يديه عليه الصلاة والسلام. ويرى بعض العلماء أن ذلك في حياته وبعد مماته.

ترميم مثوى النبي

ومن حق سائل أن يقول: هذه المنجزات التي ذكرتها تحققت في جانب التوظيف ورفع معنويات العمالة إلى آخره فماذا عن المسجد النبوي نفسه وملحقاته؟ فأقول: كان من ضمن الأعمال التي نقوم بها أعمال الصيانة، وكانت الحجر النبوية تحتاج إلى الصيانة لتساقط بعض طلائها داخلها، ما جعلنا نقوم بإصلاح ما اعترض ذلك المكان الطاهر.

ودخلنا الحجر النبوية التي حول القبور - وأنا بالمناسبة سأصفها وصفاً مختصراً لمن يريد. أما الحجر الداخلية فهي عبارة عن جدار مغلق ولا يستطيع أحد أن يقول بأنه رأى القبور بمعنى أنه رآها لأنها عبارة عن جدار أو هي أربعة جدران مغلقة، حتى أنهم إذا أرادوا أو احتاجوا للدخول لها نزلوا إليها من الأعلى إلى الأسفل، وكان عملنا في غرفة السيدة فاطمة رضي الله عنها، والوفود التي تدخل، تأتي من خلف الستار والجدار المتصل من القدم بالمكان حتى أنه موجود منذ أيام أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وحين دفن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بنت جداراً داخل حجرتها فصارت الحجرات مغلقة، وكانت الغرفة لها جدار شرقي وشمالي وجنوبي، والغربي كان عبارة عن حجرة عائشة رضي الله عنها. واستمر على هذا الحال وهي ثلاثة قبور توجد داخل هذا الجدار، كما تذكر المصادر.

وكما أسلفت لا أحد يستطيع أن يقول بأنه رأى المقام الشريف، فقط يمكن رؤية القبة نفسها، فالقبة في داخلها قبة، وذلك أن القبة التي على الحجرة التي يوجد بها القبر الشريف وعمرها أكثر من 250 عاماً، لما أراد العثمانيون ترميمها، لم تطب نفوسهم بإزالة القبة القديمة المظللة للقبر الشريف، مخافة أن يسقط شيء على القبر، فتركوا القبة ورمموها وبنوا عليها القبة الخضراء وتركوا النوافذ والكوة المتصلة بالسماء جهة القبر الشريف.

ومن المعلوم أنه لا أحد يمكنه أن يصل إلى الداخل، لكن من الأعلى يصلون إلى القبة عن طريق سلم أو رافعةٍ أو شيء من هذا القبيل من الخارج فقط، وكان هذا قديما، ووجدت هذا الوصف من القرن الخامس وما بعده.

وربما يتساءل البعض فيقول: لماذا هذا الجدار قديم إلى هذا الحد فحتى الكعبة هدمت ثم أعيد بناؤها؟ والأمر واضح لأن هذا الجدار لم يتأثر من الأسفل إلى الأعلى، فقط القبة هي التي تتأثر، لأنها معرضة للأمطار والرياح، غير أن القباب كلها سكب عليها الرصاص فحفظها لأنها مبنية من الطين والجريد، حتى القائمة الآن لُبست بالرصاص كاملة وحفظها من الأمطار ومن الشمس، وكل القباب في الحرم القديمة بأجمعها تم تجديد

الرصاص لها كاملة في عام 1411هـ، وتم ترميمها بالكامل، وقام بهذا شركة محمد بن لادن، وكان المهندس المسؤول عن هذا الترميم يدعى أحمد أبو سديرة مصري توفي عليه رحمة الله، وهو مهندس قدير أشرف على ترميمات في الحرم القديم رحمه الله وجعل ذلك في ميزان حسناته.

مهمة في جوف الكعبة

أكرمني الله مجدداً بتسلم مهمة المسجد الحرام إضافة إلى المسجد النبوي كما أشرنا، وفي هذه المرة كنت جئت على حين معرفة ودراية وخبرة بفضل التجربة التي كانت رغم قصرها، غنية بأحداثها وتحدياتها وتفاصيلها.

وبدأت أمارس عملي في مكة المكرمة، ووثقت علاقتي بأصحاب الفضيلة المشائخ الذين كانوا مسؤولين في رئاسة المسجد الحرام والمسجد النبوي، في مقرها الرئيس في مكة المكرمة، وكانت يومئذ برئاسة الشيخ محمد السبيل عضو هيئة كبار العلماء وإمام الحرم المكي، وينوب عنه الشيخ صالح بن حميد، الذي أصبح فيما بعد رئيساً لمجلس الشورى فرئيساً للمجلس الأعلى للقضاء.

وحين وصلت مكة كان هدفي منصباً على توطيد العلاقة مع المسؤولين في الرئاسة، ووضع استراتيجية متينة للتنسيق وتذليل

الصعاب، والقيام بالواجبات المطلوبة من مجموعة بن لادن فيما يخص عملها في المسجد الحرام.

واستطعت بفضل الله ثم بحكم علاقتي مع المشايخ أن أسير بالعمل على نحوٍ أكثر سلاسة من السابق، فكنت أجتهد في تجويد الخدمة التي تقدمها المجموعة، وتحسين كذلك علاقتها بالرئاسة التي تملك الصلاحيات الواسعة في تقييم عملنا وتقديره. ورغم الظروف الصعبة التي تعيشها البلاد في تلك الحقبة بسبب تدني سعر البترول حتى كاد يصل إلى عشر دولارات، استطعنا بالتعاون والتفاهم أن نتغلب سوياً على كثير من الصعوبات في هذا الباب.

الكعبة والمقام والحجر

في تلك الفترة من العمل في الرئاسة، جمع الله لي من شرف الخدمة في المسجد الحرام ما أشكر الله عليه حتى أموت، فجئت في فترة تم التوجيه فيها بإخضاع «الكعبة المشرفة» وملحقاتها للترميم، فشرفني الله بالمشاركة في ذلك وأكرمني بتفكيك «مقام إبراهيم» وملامسة موطئ قدمي أبي الأنبياء أثناء إعادتنا لتغيير المقصورة المنصوبة فوق المقام بأخرى من النحاس المطلي بالذهب على ما هو عليه الآن، وكنت مباشراً للعمل على تفاصيل ذلك والحمد لله. وكذلك مشروع تغيير الإطار الفضي للحجر الأسود بآخر أفضل منه وأمتن، وترميم تماسك

«الحجر» من داخل الإطار، فكان شرف لا يوازيه شيء بالنسبة إلي في هذه الدنيا. ناهيك عن غسل الكعبة المشرفة، ودخولي إياها مرات عدة، فالحمد لله رب العالمين.

وبوسع الراغبين في معرفة المزيد عن تاريخ «الكعبة المشرفة» وتفاصيل بنائها قديماً وحديثاً في العهد السعودي، وكذلك «الحجر الأسود» و«مقام إبراهيم» و«زمزم» أن يعودوا إلى موقع الرئاسة العامة للمسجد الحرام والمسجد النبوي، على شبكة «الانترنت»، ففيه جُمعت تفاصيل مهمة عن تلك الآيات البينات، كما سماها الله سبحانه وتعالى.

هذه لمحة موجزة عن العمل الذي تشرفت بإسناده إلي في المسجد الحرام والمسجد النبوي حتى جاءت أحداث 11 سبتمبر، وفيها جرى الإيعاز إليّ بالتوقف عن العمل، في ظروف غامضة لا أفهمها، حيث كان الجميع يقر بالنجاح وتعلقي الشديد بالعمل الذي كنت أنجزه وأقوم به. إلا أن المدير العام للمجموعة فيما يبدو رأى أن التضحية بي تجعل مجموعته في أمان من الملاحقة والمطاردة، مع أنه أول من يعلم بأن أخاه أسامة هو الذي زج بهم في ذلك المعترك وليس أنا. وبعد عشر سنوات تجرعت فيها كل مرارات الحصار والأذى، وعدم تقدير إخلاصي وتضحياتي السابقة معهم، ومساهمتي التي كان المهندس بكر أكثر المعجبين بها، لا أستطيع

تفسير ما حدث من سلوكيات بعد ذلك، إلا بقلة وفاء من جانب جهة كنت أرى فيه مثلاً رائعاً، ولكن كما قيل «عند الشدائد يعرف الإخوان». وإذا كان السبب وراء موقف بن لادن هو علاقتي السابقة بأسامة، فعلاقتهم به كانت أشد، فهل يدفعهم ذلك إلى هضم حقوق بعضهم؟ على أي حال كانت صفحة بن لادن الشركة صفحة أخرى طويتها كما طويت صفحة بن لادن المجاهد، ولكن التاريخ لا يرحم، ومن يبحث عن الأمجاد على حساب إخوته ورفاقه ربما يربح الكثير من الملايين لكنه في حقيقة الأمر يخسر كل شيء بما في ذلك نفسه وضميره واحترام المخلصين[27].

---

27 - بعد أحداث 11 سبتمبر، حدثت هزة كبرى لخبطت أوراق الساسة والإعلاميين، خصوصاً في السعودية التي كانت أكثر منفذي تلك التفجيرات الإرهابية من مواطنيها، ما جعل الدكتور سعد الشريف يخسر وظيفته وحريته بسبب ذلك المعترك رغم تركه أسامة عن قناعة قبل عشر سنين عندما كان في السودان بسبب التحولات الجديدة التي طرأت على فكره ودخوله في حلف مع التكفيريين والجهاديين المصريين. لكن الضخ الإعلامي أعاد سعداً إلى الواجهة باعتباره الرجل الثاني في تنظيم القاعدة كما تردد. قبل أن يتم تصنيفه ضمن قائمة الأمم المتحدة لداعمي الإرهاب.

هذا الظرف الحرج الذي وُضع فيه الدكتور سعد، أضيف إليه فصله من عمله في شركة بن لادن بشكل تعسفي، ومن دون تصفية حقوقه حتى كتابة هذه السطور، ما ضاعف معاناته. وهذا سرّ المرارة التي يتناول بها الشركة التي قلبت له ظهر المجن.

أيام بوسطن الجميلة

من بين أجمل اللحظات التي قضيتها خارج عملي في شؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي، عطلة في عام 96م سافرت فيها إلى أميركا، عبر رحلة سياحية مع الأبناء، امتدت شهرين درست فيهما اللغة، وتجولت فيها داخل البلاد التي كنت أسمع عنها كثيراً ولم أرها إلا في ذلك العام.

والآن يسألني البعض ألم تكن تخشى من اعتقالك في ذلك الوقت وأنت رفيق درب أسامة بن لادن؟ والجواب: لا، لأن التنقل في ذلك الوقت سهل في أميركا، فأنت بمجرد أن تعطيهم جوازك تأخذ التأشيرة فوراً وفي اللحظة نفسها، وليس الحال كما هو الآن تعقيد وتدقيق رهيب.

كانت وجهتي مدينة بوسطن التي وجدت فيها ترحيباً كبيراً من سكانها الذين قابلتهم، مما شجعني على البقاء فيها فترة أكثر، فانتظمت في معهد إل سي لتعليم الإنجليزية لمدة شهرين أفادتني كثيراً، إلا أن الفائدة ظلت ناقصة، بحكم أنه إذا كان كل من معك أناس يتحدثون العربية فعندها لا تستفيد شيئاً كثيراً من اللغة التي ما زلت في طور اكتسابها. تنقلنا فذهبنا إلى نيويورك ثم أورلاندو وديزني لاند مع الأولاد ومكثنا فيها تقريباً ثمانية أو تسعة أيام نزور جميعنا عجائب أميركا، ولو جلستَ

هناك شهراً لن تستطيع أن تغطي الفعاليات الكثيرة من المتاحف الجميلة والألعاب الرائعة بأنواعها المختلفة، والتي منها الغريب جداً وقليل الغرابة، وهناك يمكنك الجمع بين المتعة والفائدة، وفي كل يوم موعد جديد مع فعاليات لم تشهدها بالأمس، وهي أنشطة وبرامج من كل ما يثري ويسعد.

وكان سبب احترامي للشعب الأميركي أنك ترى كيف يوظف الناس طاقتهم المادية، وكيف يستفيدون من الوقت، فالأميركيون أمة عملية. وحين كنت في بوسطن رأيت كيف كان الناس جادين في عملهم من ساعات الصبح المبكر، فتجد جميع الناس منتظمين عند أبواب القطارات، وكانت محطة القطارات قريبة من سكننا، فترى كيف استفاد هؤلاء من الناحية العملية سواء الرجال أو النساء وكل في حاله منشغل بهمه.

وعلى خلاف أوروبا، كان التعايش في أمريكا ممتازاً لأنها في الأصل دولة نشأت على الهجرة من أساسها، فلا ترى أحدا يلتفت إلى آخر، ولكن هذا النوع من التعايش الممتاز مع السائح أو القادم كان في ذلك الوقت، أما الآن فالوضع تغير على ما نسمع من الإعلام، إلا أن الحياة هنالك لم تزل سلسة كما يتناقل الناس أيضاً، فقط هناك بعض المضايقات التي تكون من بعض الجهات الأمنية مثل اف بي آي بحكم أن الناس أصبح لديهم نوع من الخوف

فصاروا يلاحظون أي شيء، بينما من قبل لا شيء من ذلك يحدث، فكنا نذهب ونأتي كما نشاء من غير حذر أو تخوف.

وأذكر في بوسطن أننا ذهبنا إلى حديقة في جنوبها الذي تسكنه غالبية من الفقراء والسود، فتأخر بنا الوقت لأننا لم نكن على علم مسبق بمواعيد إغلاق الحديقة، فكنا وصلنا إليها في الساعة الثانية تقريباً، وعلمنا أنها تغلق عند الساعة الخامسة مساءً أو نحو ذلك. نحن تأخرنا أولاً في المجيء لأن الحديقة كانت بعيدة عن موقع سكنانا، ثم انشغلنا بالتنقل بين أجزائها، لأنها حديقة حيوانات ضخمة، مليئة بالمطاعم المختلفة والمتنوعة. ألهتنا مغريات الحديقة، فما انتبهنا حتى بدأ الحارس ينادي ويعلن أن الحديقة سوف تغلق، فكنا نسير ببطء من أقصى الحديقة إلى بوابة الخروج، فما وصلنا حتى أوشكت على قفل أبوابها، ولم نكن نعلم أن المنطقة بعد الخامسة والنصف ستكون خالية تماماً حتى أنك لا تجد فيها أحداً، ولا تجد حتى سيارة أجرة تقلك، فخرجنا في آخر الموعد، ومن عادتهم أن يتركوا الحديقة مفتوحة بعد وقت الإغلاق لمدة نصف ساعة ثم يغلقونها.

خرجنا ووقفنا نبحث عن سيارة أجرة ولكن بلا جدوى، ففي هذا الوقت لا أحد يأتي إلى تلك المنطقة فيما علمنا لاحقاً، ونحن في الجنوب وفي منطقة يخيل لنا أنها خطرة في الساعات

المتأخرة من المساء، وخطورة المجرمين معروفة كما رسّخت في أذهاننا الأفلام الأميركية، وسبحان الله اتصلنا وسألنا هل هناك سيارة أجرة؟ فقالوا بأنهم لا يأتون في ذلك الوقت إلى هذا المكان.

أوقفنا أناسا وسألناهم فقالوا لنا: الحل أن تركبوا الحافلة إلى منطقة أخرى، وجاءت الحافلة بالفعل وركبنا فيها، فإذا كل من فيها من الإخوة السود، ومنهم من يصطحب معه كلبه، وكان حديثهم شديداً. لكن المرأة التي تقود الحافلة وهي سمراء أيضاً شعرت بأننا متوترين فقالت: لا تخافوا من هؤلاء، وسألتنا ماذا تريدون؟ وهل أنتم تسكنون في هذه المنطقة؟ وكانت هذه الأسئلة غريبة بالنسبة لي ولم أكن أتوقعها، فقلنا لها: بأننا نسكن قريباً من النهر في منطقة بوسطن، وقالت: هذه منطقة بعيدة ولا تصل حافلتنا لها ولكن ابقوا معي وأنا أسير بين المحطات حتى أبلغكم محطة القطار، وقالت هذا بكل إنسانية، وأضافت: سيركب معنا أناس ولا تخافوا، وفعلاً ركب معنا أناس وتشاجروا فقالت لنا: لا تخافوا، ونحن طبعا محسوبين عليهم أيضاً.

الشاهد أنها بعدما أنزلت الركاب في كل المحطات بقينا نحن وحدنا فقامت بإيصالنا إلى محطة القطار وقالت: اركبوا في القطار الأحمر يوصلكم إلى المكان الفلاني ثم اركبوا في القطار الأصفر يوصلكم إلى محطتكم، ونزلنا وأعطيناها المال فرفضت

أن تأخذه منا وقالت: من غير المعقول أن آخذ منكم المال وأنتم مسافرون غرباء، تقول هذا مع أنها ذهبت بنا إلى محطة غير محطتنا ومع ذلك رفضت أن تأخذ منا شيئاً ونزلنا.

والركوب في الحافلة بسنتات فقط، تضع سنتين ثم يفتح لك الباب، فحاولنا أن نعطيها بالدولارات لعدم وجود نقد معدني لدينا، لكنها رفضت، وشكرناها وركبنا القطار وكأننا في سفر، إذ لم نصل إلا بعد مضي نحو ساعة، وبعدها بدأنا الأخذ بنصيحتها الجيدة ووصلنا في الساعة التاسعة، وكان لتلك الرحلة تأثير قوي نحو تصورنا تجاه الجنوب، ففي تلك الناحية مثلما ترى في الأفلام لا أحد يخرج بعد الغروب.

وفي نظري لم تكن أمريكا بسكانها قبيحة كما يتصور البعض، بمعنى أن أمريكا كأفراد غير أمريكا كدولة وسياسات ومواقف، بل على العكس أعجبني فيها العمل والانفتاح والاهتمام بالوقت، وأنت إذا جئت إلى هناك تجد أن الكل يعمل، والكل يفعل ما يشاء.

صديقات من اليابان

أثناء إقامتنا في بوسطن لم يسألنا أحد عن شيء، ولا أحد علم ماذا عندنا، وإذا سرت في النظام العام لا أحد يتدخل فيك أبداً، حتى أننا بعد أن نزلنا في بوسطن وانتظمت في الدراسة، كان

معي في الدورة زملاء وزميلات من اليابان ومن بعض الجمهوريات الإسلامية التي استقلت عن الاتحاد السوفياتي سابقاً مثل أوزبكستان، وكذلك بعض الزملاء من أوروبا مثل النرويج، وكما تعلم فإن معهد إل سي لتعليم اللغة الإنجليزية هو بالأساس مركز تعليمي عالمي، وكان من ضمن الزملاء الذين معنا شخص من جدة، وكان يدير حوارات، وكانت طريقة الجلوس أثناء الدراسة ليست على شكل صفوف وإنما على شكل الدائرة، وتدرسنا بعض المعلمات أحياناً، وفي الغالب إحدى هذه المعلمات ـ وكانت التي تعطينا القواعد ـ غالبا ما تأتي وهي مخمورة، ورائحتها فائحة، وكنت دائماً أجلس في الصف الأول، ويدور نقاش في أشياء كثيرة.

وأذكر أن أحد النقاشات التي كانت تدور بين المدرسة والطلاب، تناولت أشياء مثل العادات والتقاليد، وطريقتها في النقاش أنها تسأل كل واحد حتى يعبر باللغة الإنجليزية، فتسألك أنت من أي منطقة؟ وما هي عاداتكم؟ حتى جاءت عندي وسألتني: أنتم عندكم التعدد وهذه إشكالية عندكم! وكيف ترضون بهذه العادة؟ وأتت بالسؤال على طريقة مزجت فيها بين السخرية والمزاح. فقلت لها: التعدد على لأقل شيء مضبوط بضوابط معروفة، ومعلوم أن هذه زوجة، ولكن الموجود عندكم في الغرب مختلف تماماً فالرجل عندكم يكون متزوجاً بامرأة واحدة ولكن عنده عشر صديقات يعاشرهن في الخارج من دون علم زوجته

وهذا نوع من الخيانة الزوجية، وعندنا تعلم الزوجة أن زوجها يمارس مع الأخرى ممارسات شرعية، وفي إطار قانوني واضح ومرتب، وأما الزوج الغربي فإنه يمارس مع الصديقة، والصديقة من الممكن أن يمارس معها رجل آخر وآخر وهكذا.

ثم قلت لها هل تعرفين زوجاً لم يخن زوجته يوما؟ وأما نحن فنضع هذا الضابط الواضح، فالرجل ممكن أن يتزوج واحدة ولا يتفق معها فيتزوج الثانية، وبدلاً من اتخاذ الصديقات والخلائل يكون عنده مجال ليتزوج المرأة التي تعجبه.

وحاولت أن أعبر عن هذه الفكرة بلغة جيدة ولكني لم أستطع، فأديت المعنى بلغة مرضية نسبياً.

والحقيقة أنها أعجبت بهذا مع أنها غير منضبطة أخلاقياً، وكل يوم تصطحب معها رجلاً جديداً، وكانت صغيرة ومع ذلك أعجبت بهذا وقالت بأن هذا شيء طيب وجيد أن يكون للرجل أربع نسوة ولا يحق له أكثر من ذلك، وإذا أراد أن يتزوج طلق واحدة وأخذ أخرى ضمن إطار شرعي يضمن عدم انتقال الأمراض الخطيرة، إضافة إلى كونه شيء معلوم وليس خلف زوجته الأخرى.

والشخص هنا متزوج ولديه ربما ألف صديقة يمارس معهن في الخارج أو كل أسبوع يجلس مع واحدة مختلفة وهذا يحصل كثيراً.

فدار الحديث بيننا حول هذا الجانب وحول الأخلاق والمثل، وسألتني ما هو عملك؟ فقلت لها: «إسلاميك» ولو حاولت أن أفسر لها معنى أصول الفقه لما أمكنني ذلك.

والحقيقة أنها كانت تجربة جيدة ورائعة أفادتني في الاختلاط مع أجناس وأشكال من الناس، وفي آخر يوم من الدراسة في المعهد طُلب من كل شخص تدوين عنوانه، فأعطيتهم عنواناً عاماً، وظلّت بعض الزميلات اليابانيات يراسلنني في الأعياد والمناسبات عبره، غير أني لم أرد عليهن، فمكثن فترة يراسلنني ربما ثلاث أو أربع سنوات حتى مللن من عدم الرد فأمسكن عن مراسلتي، ولم أكن أريد أن أكوّن معهن علاقات لأنهن نسوة، وفي إحدى الرسائل بعثت لي إحداهن نسخة من الصور التي صورنها في الفصل الدراسي لنا جميعاً، وهي لا تزال لديّ.

وقد يسأل البعض ويقول: ربما الشرقيون سيفهمون هذا بطريقة خاطئة؟ والجواب: لا، فأنا لم أفهم الأمر بطريقة خاطئة، ولكن لم يعجبني أن أواصلهن، لأنهن كنَّ يرددن فكرة زيارتي في جدة، وليست هناك مشكلة في إرسالهن الصور لي لأنهن لسن جميلات، وإذا نظرتَ إلى صورة إحداهن علمت أنها مجرد صورة ليابانية غير مثيرة، ولذلك زوجتي حين تنظر إلى الصور تكون مطمئنة ولا تكلمني.

وسألني بعض الأصدقاء عما إذا كنت أحببت أمريكا في تلك الزيارة؟ وأقول: بلا شك كانت تجربة جميلة وثرية! أكسبتني شيئاً من الاطلاع وأي اطلاع؟ حتى أننا ذهبنا إلى نيويورك وواشنطن وزرنا مبنى الكونغرس وكانت زيارة سريعة.

وهناك ترى الصخب وتحول الإنسان إلى آلة، نعم إنهم يعملون كالآلات، وتلاحظ طغيان الجانب المادي وقوته، وأثر المادة بين، فإذا كان لديك مال فأنت كل شيء وإذا لم يكن لديك مال فأنت لا تعني شيئاً، وهذا أمر واضح هناك جداً، فأنت ترى بعض المشردين في الشوارع كأنهم بهائم أو حتى أقل شأناً.

ولكن عندما تسير تشعر أنك في بلد فسيح ولا أحد يسألك من أين قادم؟ وإلى أين ذاهب؟ أنت في حرية تامة ولا أحد يقيدك، ولا تشعر أنك في بلد غريب عنك بل تشعر كما لو أنك مواطن من هذا البلد منذ أول يوم تطأه قدمك، تركب القطار لا أحد يحس بأنك غريب، وهذه ميزة جميلة في أمريكا، أحسست بها خاصة حين ذهبنا إلى أورلاندو واستأجرنا سيارة فان كبيرة، ونحن نقودها بأنفسنا لأنهم لم يرضوا أن يعطونا سائقاً، وبمجرد أن تملأ الاستمارة تحصل على السيارة في دقائق، وبعد الانتهاء منها يمكنك تسليمها في المطار، فأخذنا سيارة كبيرة جديدة كانت موديل تلك السنة، كنت أنا من يقود السيارة وأعطونا خرائط نسير عليها بدقة، وقالوا لنا لا تحتاجون إلى سائق، وكان حجزنا

في فندق هيلتون، وفعلا سرنا بالخرائط حتى وصلنا إلى الفندق بالضبط من غير أي عوائق.وكان ختام زيارتنا لأمريكا في مدينة أورلاندو وبعدها قفلنا عائدين إلى الديار المقدسة.

يسألني البعض عن شعوري حينما سمعت بأحداث الحادي عشر من سبتمبر وخاصة أنني معجب بهذا البلد إلى حد ما؟ والحقيقة أن القضية ليست قضية عاطفة وإعجاب وما إلى ذلك، القضية قضية موقف بغض النظر عن أي شيء، والجميع يعرف الصخب الإعلامي، وحساسية الموقف من أميركا بعد ضرب السودان وأفغانستان والتضييق عليهما، ومن قبل ومن بعد الدعم اللامحدود لاحتلال الإسرائيليين لفلسطين، وكان العراق يُضرب ويُقصف في عملية ثعلب الصحراء، وضُرب العراق في عهد الرئيس كلينتون بقذائف لم يضرب بها في أيام بوش المتأخرة، ولكننا ننسى بسرعة.

وفي عهد كلينتون لم يتركوا مكاناً إلا قصفوه وقتلوا الأطفال والنساء، وفي رأيي المتواضع أن الذي فعله كلينتون لم يفعله بوش الابن، لأن بوش كان واضحاً وصريحاً يختلف عن كلينتون، فهذا الأخير غير واضح.

وأنا كنت أقول ما فعله كلينتون لا يعرفه الناس أو بالأحرى لم يلاحظوا خطورته لأنه لم يدخل ولم يقتحم، وهو مع ذلك كان

من أنهى العراق قبل بوش الابن. الذي أقصده أن هذه الحوادث كان لها تفاعلات مؤثرة في الناس تأثيراً قوياً، وحين جاءت أحداث الحادي عشر من سبتمبر، كان الجو العام محتقناً، فهناك الانتفاضة، وعملية السلام مع إسرائيل متعثرة، وضُرب السودان وأفغانستان، والعراق يُضرب ويُحاصر.

وهناك مصادر جديدة للمعلومات بعد إطلالة قناة الجزيرة، وبسبب هذا الجو العام كأن الناس شمتوا بالإدارة الأميركية، ولكن الأمر جاء بطريقة عشوائية، ونظرة الناس كانت من هذا الجانب بغض النظر عن صحة ذلك من عدمه، ولو حصلت الأحداث في إيطاليا أو فرنسا لربما اختلف موقف الناس كثيراً.

والجميع يعرف أن الأحداث وقعت أثناء الانتفاضة الفلسطينية، والتي قمعتها إسرائيل بسلاح أميركي، وتحت حماية أميركية، والجميع يشاهد هذا بعد إطلاق قناة الجزيرة حيث لم يعد الإعلام الغربي هو المصدر الوحيد للمعلومات، وكل هذا أثر في رأي وردة فعل الناس، فأنا كنت في قرارة نفسي ضد العملية الإرهابية وقتل الأبرياء، ومتعاطف مع الشعب الأميركي، لكني في الوقت نفسه لست متعاطفاً مع الحكومة الأميركية.

الفصل الخامس

كيف مات أسامة؟



في ما سبق أشرنا إلى أن تسجيل مادة الكتاب، انتهت قبل موت أسامة بن لادن بسنوات، إلا أن التأخر في عملية تحريره المضنية جعلت مقتل أسامة يأتي قبل الفراغ من المذكرات نهائياً، فخصصنا للحدث هذا الفصل، الذي جاء على شكل حوار، بين المحرر وصاحب السيرة، الدكتور سعد الشريف.

• أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية أنها قتلت أسامة بن لادن، كيف تلقيت هذا الخبر لأول وهلة؟

- حزنت كثيراً، وبما أن الخبر أعلن مبكراً بعد صلاة الفجر فكنت كمن استيقظ على خبر مفزع بغض النظر عن الخلفيات. لكن بحكم العلاقة التي كانت بيننا من رحم، وصداقة، وأخوة، ورفقة الجهاد والسلاح في مرحلة من المراحل فلا بد أن يحدث استرجاع لكل هذا وقت تلقي الخبر فتذكرت أول يوم قابلته فيه، ثم آخر يوم تركته فيه.

• هل كان وقع الخبر عليك قوياً إلى درجة انك كمن يحتضر في هذا المشهد الذي صورت؟

- استرجاعي لذكرياتي مع أسامة كانت من باب تذكر محاسن الموتى، وحديثي كان عما عايشته أما ما بعد ذلك فلا أستطيع إلا أن أكون كبقية الناس في تحليل الموضوع.

• هل ما يستوجبه علينا الدين من تذكر محاسن موتانا يجعلك تغفر لأسامة ما قد كان، خاصة وانك تضررت كثيرا من تبعات هذه العلاقة ولا زلت حين تلقيت الخبر؟

- الإنسان بطبيعته يتذكر كل ماهو حسن وقت الموت لشخص ما، بالإضافة إلى علاقة المصاهرة بيننا فقد كانت عنصر ضغط كبير جداً، خاصة وأن أختي زوجة أسامة بن لادن«سهام الشريف» تربطني بها علاقة روحية فضلا عن العلاقة الأخوية، فقد كنا نتحاور كثيراً حول القضايا والمواضيع المختلفة، وحين حضرت رسالة الماجستير وأطروحة الدكتوراه كانت تراسلني لأخذ رأيي في موضوعات مختلفة.

• أسامة بن لادن كما قال المحللون أصبح عدة شخصيات، فهناك أسامة المجاهد، وأسامة المناوئ للغرب، وهاتان الصورتان هما العالقتان في ذهن أغلب الناس، وأسامة الذي أفتى بجواز قتل أبرياء كثر ولن نقف عندها كثيراً بسبب رهبة الموت كما ذكرت، فأي هذه الشخصيات قفز إلى ذهنك لحظة تلقي الخبر؟

- بحكم ما كان من أخوة وصداقة ورفقة ومصاهرة إلى آخر ما يمكن أن يقال في علاقة طيبة في المرحلة الأولى، إلى مرحلة النقاش والإنكار والاعتراض والهجر في كثير من الأحيان

لمحاولة الإمساك بزمام الأمور، هاتان المرحلتان هما من كانا في ذهني ساعة تلقي الخبر.

سيطر عليّ بن لادن الصديق!

• ما هو الموقف الذي ألحّ عليك في تلك اللحظة بعد تذكر شريط ذكرياتك مع أسامة؟

- لاشك أن العِشرة والعلاقة الحميمة في مرحلة من المراحل بعمومها كانت تحضرني، ولكن لحظة المفارقة كانت تلحّ عليّ كثيراً.

• هل قلت في نفسك لحظة تذكر هذه اللحظة لو استمع لي أسامة لما كان حصل كل هذا؟

- بلا شك، خاصة وأننا في هذه الفترة نعيش تغيرات كبيرة في عالمنا العربي مما جعلني أشعر بشيء من الانتشاء في نفسي لأنني منذ البداية كنت أؤمن بهذا الطرح.

• إذاً حدثنا عن جوهر الاختلاف بينك وبين أسامة والذي كان السبب في المفارقة، خصوصاً وأنك في مرحلة من المراحل بلغت من القرب له أن أطلق عليك أحدهم لقب «نصف أسامة»؟

- الاختلاف كان بيننا في الأفكار والرؤية، حتى أننا لحظة المفارقة كان كل منا يبكي لفراق الآخر، لكن حين تناقشت مع

أسامة في آخر لحظة قال لي: «لا أستطيع» فكأن كمن حسم أمره ولا يستطيع التراجع.

لم يؤنبني ضميري

• حين تألمت لموت أسامة، ألم تشعر بشيء من تأنيب الضمير فلو كنت بذلت مزيداً من الجهد في مراجعة أسامة لربما أخذته لطريقك؟

- أبداً، لأنني بذلت أقصى ما في وسعي خلال مراحل مختلفة.

• لم تقل لنا ما هي فكرة الاختلاف مع أسامة؟

- جوهر الاختلاف أنني بعد التجربة الأفغانية وبخروج الروس لم اعد أرى نفعاً من اتجاه الجماعات المسلحة، وأن التغيير ممكن أن يحدث بطريقة سلمية، وأن العمل ضمن مؤسسات مدنية والتأثير من خلالها أفضل، أما مسألة مقاومة المحتل فهذه مسألة مُسلّم بها في كل الشرائع السماوية والأرضية لكنها قضية مختلفة تماماً عما سارت إليه الأمور بعد ذلك.

لا يستطيع نسياني

• علمنا من خلال ما تم بثه أن أسامة لم يكن منقطعاً عن العالم كما كنا نعتقد، فهو يشاهد ويرى ما

يجري في العالم العربي، فهل تعتقد أنه حين رأى هذه التغييرات تذكرك وقال صدق سعد؟

- الله أعلم، ولكني متأكد أنه مهما تغيرت به الأحوال وتبدلت لا يستطيع نسياني، كما أني لا أستطيع، رغم اختلافنا الشديد الذي جعل كلاً منا يسير في اتجاه معاكس.

• في المجالس تذكر أسامة الصديق، والأخ الحميم وما إلى ذلك من زخم المواقف والمشاهد، فهل هذا ما استدعى مشاعر الحزن على أسامة، أم العائلة والمصاهرة وبكاء النساء خصوصاً وأنك متزوج من ابنة أخته، هو ما كان له التأثير الأكبر؟

في الحقيقة كلها منظومة متشابكة ومؤثرة على بعضها، ولكن حين أعود للذكرى ونوع العلاقة نفسها أجدها أثرى وأغنى من كل هذا التصور، لأنه كان بيننا مثل ما يقال «إخوة الدم» في مرحلة من المراحل كدنا أن نموت سوياً، وضربنا سوياً، ودفنا سوياً، وذات مرة أُخبر أنني قتلت فأتى مسرعاً وحين وصل وعلم أنني المصاب ولست المقتول سجد لله سجود شكر، كل هذا بلا شك له أثر كبير جداً في النفس ويجعلك تستشعر حزنك على ما آل إليه هذا الصديق.

• هل افهم من هذا انك تُعزَّى في أسامة ولا تعزِّي فيه من شدة ما كان بينكما من روابط، حتى أنني سمعت أن بعض أقارب أسامة كانوا يشتكونه إليك؟

- لا تعليق، رحمه الله!

• تضررت كثيراً من أسامة الثالث، فمنعت من السفر، وتم حجز أرصدتك، وأضرار أخرى سنتطرق لها لاحقاً، ألم تهوّن من وقع خبر الوفاة عليك تلك الأضرار؟

- كانت علاقتي قوية بأسامة ومتينة، صحيح أننا اتفقنا واختلفنا، ثم تفرقنا من بعد ذلك بقناعة كل منا بفكر وخياراته، لكني بحكم أن ما حدث لي من أضرار كان في غيبته فإنني لا أستطيع تحميله مسؤولية ما لحق بي من أذى!

• بصراحة هل مرت عليك لحظة ندمت فيها على أنك عرفت أسامة؟

- أبدا، فأنا مستقل التفكير منذ البداية، فأعرف الرجال بالحق ولا أعرف الحق بالرجال، وهذا التفكير الذي نشأت عليه هو ما جعلني أكون حيثما كان الصواب، وحيثما كان الخطأ أجانب، مع أسامة أو غيره، وهذا الفكر أراحني كثيراً في كل المراحل التي مرت بها العلاقة، ومما كنا نختلف عليه حتى في مرحلة أسامة

الأول، فلكل منا تصوره الخاص. فلماذا أندم على قناعاتي التي أراها صحيحة؟

• ما هذا الوفاء وما الاختراق الذي صنعه أسامة فيك، رغم كل هذا الحظر والضجيج والاختلاف إلا انك لم تندم على علاقتك به؟

لأن علاقتي به كانت بأسامة الإنسان، والأخ والصديق، والغيور على بلده الذي وُلد وتربى فيه، علاقة ما اختلف عليها اثنان، بل كان الجميع يفاخر ويبحث عن مثلها، فكيف أندم على مرحلة أرى أنها جداً ناصعة وايجابية، والمرحلة التي جاءت فيما بعد، لم أعايشها وأتابعها كما تابعها غيري من الناس.

كنت أضحك على نفسي!

• إذاً كيف استطعت الفصل بين هذه المراحل لأن هذه مشاعر متناقضة أيقظها موت أسامة؟

- لو نظرت إلى رجالات التاريخ، ستجد بلا شك الايجابيات والسلبيات، وكونك تعيش مرحلة من الايجابيات في مقابل مراحل من السلبيات لم تعشها، فمن المؤكد أنك ستتذكر ما عايشته لا العكس، أما الآخر فتسمع عنه، وهناك فرق بين أن تسمع وأن تعيش.

• هل أفهم من ذلك أنك تحاول أن تضحك على نفسك فتنظر له على أنه أسامة الذي عرفت، حتى وإن كنت موقناً بأنه ليس كذلك؟

- قد يكون هذا اختصاراً لما في النفس، صحيح، بالإضافة إلى أنك يجب أن تحترم عدوك إذا كان لديه مبدأ متمسك به وباق عليه، بغض النظر عن صحة هذا المبدأ وخطئه، فكيف بصديق، لكل منا أفكاره ومبادئه؟

• بحكم المصاهرة المزدوجة مع بن لادن، هل كنتم يئستم منه منذ فترة طويلة، فقد انعزل عنكم منذ سنوات وكنتم تعلمون أنه لن يعود فلماذا كانت ميتته محزنة؟

- الموت له رهبة وله تأثير، وأن يكون بمثل هذه الطريقة لا شك أنه مؤثر جداً، وفي ديننا مفهوم الإحسان العام للنفس البشرية أياً كانت ولو لعدو، فما بالك بقريب وصديق من 10 - 15 سنة، وهي مشاعر تؤثر على النفس، ونعبر عنها كشيء منفصل عن الاتفاق والاختلاف.

• هل حزن قرابة أسامة عليه رغم بعده ومعرفتهم بعدم عودته، نوع من عدم اليأس منه رغم كل هذا خصوصاً وانك قلت لي سابقاً إنه كان«رجاعاً للحق» فيما مضى طبعاً؟

- بلا شك لا يوجد مستحيل في هذا الأمر وحده التصور العقلي ليس له حدود، لكن من حيث الواقع نرى أن هذا الإنسان سلك طريقاً لا يمكن العودة منه، وان أراد أن يعود فالنهاية في كلا الحالتين واحدة مادام الأمر على ما هو عليه، وفي النهاية هو أخ أو ابن، أو عم أو خال، من الطبيعي الحزن عليه ولو لم تقم له مراسم عزاء.

• ألم تشعر بشيء من الخيانة لأسامة الصديق، وأنت لم تقم له سرادق عزاء؟

- هناك نوع من الأسى على أنه لم يكن له شيء من هذا القبيل، لأنه في النهاية نفس بشرية ينبغي احترامها بغض النظر عن الأخطاء الأخرى.

• هل يعني هذا انك تختلف مع عائلته على أنهم لم يقيموا له مراسم عزاء، أم أن العزاء في القلوب كما يقال؟

- هذه إجابة دبلوماسية لكن أناس كثر يسألون هل هناك عزاء لنعزي أم لا؟

• فبماذا تجيبون؟

- لا يوجد جواب، وانتم أدرى بالحال، فلا نريد أن يفهم العزاء على أنه إقرار وتأييد، ولكن على سبيل المثال: إذا كان ابنك

عاصياً وجرّ عليك المتاعب ثم مات أو قتل فستقيم له حتماً مراسم عزاء رغم كل شيء، وهذا بديهي لكن لكل ظرفه وحاله الذي هو أدرى به.

• وحالك أنت ماذا فعلت؟

- كما تراني.

هكذا قتل أسامة

• في ما يخص مقتل أسامة وبما عرفت عنه ما هي الرواية الأقرب إلى تصديقك في قصة مقتله؟

- في منطقة مثل باكستان لا شك أن هناك شجاعة في أن يتواجد في مثل هذا المكان، تطبيقاً لنظرية «كلما كنت قريباً من العدو كنت أكثر أمناً»، لكن التساؤل الأول: مكان مثل الذي صور وبهذه المواصفات كيف يمكن أن لا يتواجد به افراد للحماية؟ ولم يكن بداخله سوى أربعة أشخاص منهم ابنه خالد، وقد يكون هذا من باب إذا كثر العدد لفت النظر، لكن التساؤل الثاني: أن المبنى كبير ولا بد أن يكون له مداخل ومخارج عدة، وأعتقد أن العملية كلها لم تستغرق إلا خمس أو ست دقائق أما باقي الأربعين دقيقة التي قيلت فكانت في البحث والتفتيش عن محتويات المكان.

• من خلال معرفتك بأفغانستان وباكستان من تظن وفّر الحماية لأسامة؟

- قد يكون من تصور أنه يخدم قضية معينة أو لصالح جهة تخدم جهة أخرى أياً كانت، وسواء كان هذا التصور بسبب عقدي او مصلحي، فإنه هو الراجح عندي، وهو الذي مكّنه من التواجد في منطقة أكثر أمناً.

• من خلال معرفتك بأسامة وذكائه الشديد في مدّ الخطوط مع كل الأطراف، هل تعتقد انه هو من اخترق الأجهزة الأمنية الباكستانية ولم يُخترق؟

- ممكن أن يخترق تلك الأجهزة من حيث الاستمالة أو التعاطف، لأن الشعب الباكستاني عاطفي بطبيعته وهو ليس غريباً عليهم، ولكن ما حدث بعد ذلك من صدام بين طالبان باكستان والجيش الباكستاني أكل من هذا الرصيد بشكل كبير ولو قتل أسامة قبل هذا لكان من الممكن أن تسقط الحكومة كما سقطت حكومة برويز بسبب المسجد الأحمر.

• كيف تحمي باكستان شخصاً هم مناوئون لحلفائه، على هذا الاعتقاد؟

- في تقديرنا، أن المتعاطفين معه ربما ليسوا من الحكومة المركزية، وإنما في الاستخبارات العسكرية، وكثير من أنظمة

العالم تتحالف مع بعض أعدائها سراً أو بعض حلفاء أعدائها للحصول على بعض المكاسب، وأوراق المناورة.

• إذاً من معرفتك بأسامة ترجح أن يكون أتى إلى هذا المكان مختاراً، وأنه كان محاصراً لإيمانه بالمشاركة الفعلية؟

- لا أعلم ما هي الظروف المحيطة به، ولكن يبدو أن ضغط القوى المحيطة به كان قوياً جداً وبالتالي قد يكون ليس لديه سوى هذا الخيار، فالتنقل في المناطق الباكستانية فيه خطورة من حيث إنهم قبائل لا يحفظون السر من باب التباهي، إضافة إلى الاختلاط الحاصل على الحدود والذي من الممكن أن يوصل إلى بعض الخيوط، وبذل الجهد المضني في التنقل يفقد التركيز.

تم بيعه في صفقة

• ذكرت سابقاً أن أسامة شخصية مبالغة في أخذ الاحتياطات الأمنية، فنادراً ما يكون في مكان لا يحفر فيه خندقاً في الأرض أو ما شابه؟

- نعم هذا صحيح، وهذا ما جعلني أضع علامة استفهام حول أن ما حدث قد كان ضمن صفقة أو اتفاقية، فأسامة الذي رأيناه في الصور كان آمناً، ومفروضاً عليه البقاء بشروط المستضيف، وليس بمواصفاته التي يؤمن بها ويأخذ بها في أماكن سكناه في كل

المراحل التي قضيناها سوية، وكانت التهديدات قائمة بشدة حتى في تلك الأيام.

• هناك من يجزم بأن أسامة استدرج إلى هذا المكان لحمايته ثم باعه الباكستانيون؟

- كل شيء وارد في ضوء شح المعلومات، والوضع والتصور الذي أعرفه تغير كثيراً، فالعقيدة الباكستانية أصابها شيء من الانحراف جراء الضغط الأمريكي القوي عليها، فخلق لها إرهاباً محلياً لم يكن موجوداً من قبل، كان هناك خلاف طائفي بين السنة والشيعة لكنه محدود جداً ولم يكن بهذا التصور إلا بعد التحالف الذي حصل، فما كان يستبعد من الباكستانيين القيام به قديماً، ربما يقومون به اليوم.

• أسامة لم يكن مسلحاً كما قيل، ألم يكن هذا يعزز القول بأنه أسير تحت الحماية؟

- من معرفتي بأسامة لا يترك سلاحه في ظروف لم يكن عليه طلب فيها فما بالك الآن ويهتم بأن يكون له في كل منطقة يذهب إليها خندقاً أو ما شابه من باب التأمين..وقد يكون أسيراً بالفعل لكن هو لا يعلم بذلك ويرى أنه كان مختبئاً وفي مأمن.

• مسألة قتل أسامة وليس أسره ماذا تعني لك، خصوصاً وأنه لم يكن مسلحا؟

– قد يكون هذا لحسابات خاصة بالرئيس الأمريكي لإسدال الستار سريعاً على هذه المرحلة، أما أسره ومحاكمته فستدخل في سنوات كثيرة، خصوصاً وأن لديهم تجربة سابقة مع صدام حسين، فربما يرون أن قتل الشخص هو الأفضل لهم من حيث الاستراتيجيات الأمنية من أسره وهذا فيه دلالة على اطمئنانهم لكمّ المعلومات الذي كان لديهم.

بل سيقاوم ولو بغير سلاح؟

• من ضمن ما ذكر أن أسامة حين دخل عليه الأميركيون لم يبد مقاومة ولم يكن معه سلاح، فهل أسامة الذي تعرفه ممكن أن يستسلم بسهولة دون أي مقاومة حتى بدون سلاح؟

– بالطبع لا، من المؤكد أنه قاوم ولو بدون سلاح فقد يكون حاول أن يأتي بسلاح فقتل، ولكن كونه يضرب برأسه فهذا دليل على التصفية.

• وإن ثبت انه لم يبد مقاومة بالفعل كيف تفسر هذا؟

– قد يكون أصيب بذهول كونهم وصلوا إلى غرفة نومه وهو نائم بجوار زوجته فهذه قضية ليست سهلة، والسرعة الخاطفة

والمعرفة الدقيقة لتفاصيل المكان الذي هو فيه، دليل آخر على أن هناك اختراق دقيق بلا شك.

• لماذا تستبعد فرضية أن يكون أسامة تغير بالفعل واستسلم، ورأى أن لا جدوى من المقاومة، وجبن عن مواجهة الموت بعزم؟

- لو كان الأمر كذلك لأعلن هذا لكني لا أعتقد هذا أبداً، بدليل آخر تسجيل له قبل سبعة أو ثمانية اشهر والتسجيل الذي سيذاع.

• بحكم معرفتك بأسامة هل تعتقد أن الأمريكيين، حققوا له غايته في أن يموت على يد أعدائه؟

- كل إنسان يتمنى الانتصار ومن يسلك هذا الطريق لاشك في أنه يتمنى أن يكون هو المنتصر، وقد تعرض أسامة للموت أو القتل مرات عدة كنا فيها سوياً، وهذا هو المحفز الأساسي له ولمن معه فإما أن يعيشوا بما يرون من أهداف أو يموتون في سبيلها.

• على طريقة الثوار حين يموتون، هل تعتقد أن أسامة من حيث علم الأميركيين أو لم يعلموا، مات كما لو كان هو من أخرج مشهد موته؟

لا شك في أن الأميركيين حققوا لأسامة غاية مراده في أن

يموت على أيديهم، وبهذه الطريقة وبهذا الشكل فالقتل أهون عنده من الأسر.

• لو خيّره الأميركيون بين القتل أو الأسر ماذا كان سيختار؟

- بلا شك كان سيختار القتل.

• الطريقة التي قتل فيها أسامة والمشهد الدرامي هذا هل يساعد على موت أسامة في نفوس مريديه؟

- على العكس تماماً، والرواية الأميركية عن كونه أعزلاً ولم يبد مقاومة، فيها رسالة إلى أتباعه ومؤيديه على أنه جبن واستسلم فقتل، وهو نوع من الزهو الذي يريدون به إضعاف معنويات أتباعه.

• تاريخ الجهاد، والإرهاب فيما بعد أيضاً حافل بأسماء كثيرة، مثل عبد الله عزام وخطاب والزرقاوي والمقرن وآخرين كانوا ملء الدنيا ويشغلون الناس، وبمجرد موتهم تقلب الصفحة، فهل سيكون أسامة مثلهم بعد مقتله أيضاً؟

- الأشخاص يختلفون فعبد الله عزام على سبيل المثال طويت صفحته في الجهاد الأفغاني، لكن هناك من يقول إنه الباعث على المقاومة في فلسطين، وأقرب الروايات تقول إنه

صفي على يد الموساد الإسرائيلي، أسامة يختلف عن الباقين لأنه مؤسس لشيء معين، ويمثل قدوة في أنه كان من الممكن أن يعيش كشخص مترف وفي هذا جانب من الأسطورة له أثره، ولكن هل هم في حالة تُمكنهم من التراص والقوة أم من الترهل والضعف بالغة؟ هذا ما ستظهره لك الأيام ولا شك أن أسامة كشخصية تربعت على عرش العالم عشر سنوات، ليصبح أهم مطلوب في العالم كله، يصعب نسيانه.

• لكن أسامة مات قبل أن يموت ونسيه الناس قبل أن يقتل، وعلى سبيل المثال في الثورات العربية لم يرفع أحد صورته؟

- المرحلة التي كان يطرح فيها أسامة مناوءته للأميركيين أوجدت تعاطفاً كبيراً معه، لكن عندما تجاوزت هذه الأفعال إلى قتل وسفك دماء الناس والمدنيين أدى ذلك إلى انخفات هذا الجانب كثيراً، ولكن مما يعتقد أسامة أنه حققه قبل موته، هو إقناع الناس بأن القوة المهيمنة التي لا تقهر أكثر هشاشة مما تبدو، ويمكن أن تقاوم بأبسط الأشياء مع وجود الإرادة، وهذا ما كان أسامة يشير إليه دائماً ويسر إليّ به، ويضرب المثل في السابق بالاتحاد السوفياتي الذي كان على قوته وجبروته وسطوته، استطعنا أن نقاومه لأن الإرادة كانت أقوى وهذا هو التصور الذي كان أسامة

يسعى إلى نشره ونجح فيه بعض الشيء. ولكن في هذه الفترة فقد أسامة الكثير من التعاطف لوجود طريقة أخرى يمكن أن يحدث بها التغيير غير القوة وهي ثورة الشعوب، ولا شك أن توقيت قتله، كان ذكياً جداً من خصومه، حتى ينساه الناس.

قتل الأبرياء قصم ظهره!

• في رأيك ما الذنب الأكبر الذي ارتكبه أسامة سوى ذنوبه المعلومة سلفاً، حتى تزعزعت مكانته كمجاهد في نفوس الناس في السنوات الأخيرة، حتى تمت تصفيته وقد تراجعت شعبيته إلى حد كبير حتى كادت تنحسر؟

- الأفعال التي ارتكبت من تفجير وقتل، وتبنيها أضعفت هذا التعاطف من جانب، ومن جانب آخر ضعف أداء القاعدة في الفترة الأخيرة فبدلا من أن يلحق أصبح هو يلاحق وهذا عنصر مؤثر جداً، لأن الشعوب تحب المنتصر دائماً وإن كان على خطأ.

• الثورات العربية أحدثت نتيجة أثبتت نجاحها على الأرض، وكان هذا رهانك، هل ترى أن هذا يمكن أن يهوي بنموذج القاعدة كقاعدة والتغيير بالعنف؟

- بلا شك، وقد تجاوزنا هذه القضية من ثورة تونس ومصر.

• هل ترى مستقبلا للقاعدة بعد أسامة والمعطى الجديد، خصوصاً وأن احد المحللين المحايدين قال إن أسامة لا يعوض؟

- أتصور أن أسامة كان أكبر من القاعدة، وفي تصوري أن القاعدة بعده ستضمحل تدريجياً إن لم تخترق ويستفاد منها لتبرير التواجد هنا وهناك.

• أعلن اليوم أن أيمن الظواهري سيكون خلفاً لأسامة في القاعدة، حدثنا عن أيمن الظواهري وقد التقيته مرات عدة؟

- أنا لا اعرف أيمن الظواهري جيداً، فهو عندما أتى إلينا كان طبيباً ولم نكن نعرفه في الجبهات ومن معلوماتنا انه كان طبيباً في بيشاور ومن جماعة الجهاد في مصر فلا أعرفه معرفة شخصية.

• ولكن حين تحدثت لي سابقاً عنه، بشيء من الاستخفاف فلا ترى انه الرجل المناسب، خصوصاً وأنه ليس له ماضٍ جهادي معروف، فكيف يرضى به أناس في الميدان قد يكونون أكفأ منه؟

- أنا لا أعرفه في تاريخ الجهاد الافغاني، كان طبيباً في مرحلة ما وله هدفه وتصوره. فقد كان ينأى بالشباب عن الاشتراك

في بعض العمليات ليختزن الطاقات لمشروعه ومنطقته الخاصة التي يؤمن بها.

• إذاً هل شخصية مثل أيمن يمكن أن تخدم القاعدة، وتسد فراغ أسامة؟

- هذا مستحيل، ولكن هذا لا يعني نسيان مواهب الظواهري، فهو شخص شرس ذكي، لا يتكلم إلا نادراً، وسبب كرهي له أنني سمعته يوماً يكفر الشعراوي والغزالي، ومنذ ذلك اليوم كرهته، وهو يحاول التقرب مني وأنا أتجنبه!

• كثير من الناس الذين كانوا بعيدين عن أسامة مثل الشيخ سلمان العودة قبل 3 سنوات حاولوا استغلال وجود أسامة واستماعه لما يحدث في الشارع من أحداث، فوجهوا له رسالة، بعد أن ذهب أسامة، ألم تسأل نفسك لماذا لم تحاول أن تستغل الود الذي بينكما في ان توجه له رسالة إعلامية أو خاصة لمحاولة أن تؤدي ما عليك لوطنك الذي كان أسامة الأخير يستهدفه؟

- في الحقيقة بذل الجهد واستفرغ الوسع في خلال مفاصلة طويلة بيني وبينه، ووصلنا من النقاش حداً جعلنا نتماسك بالأيدي ذات مرة، خصوصاً عندما اتهمني حينما ألححت عليه في العودة إلى صوابه بأنني عميل للاستخبارات السعودية، ودليله أنني

دعوت السفير السعودي لمناقشة أطروحتي للدكتوراه في السودان، وأهديت السفارة نسخة منها، فأصبحت بذلك في نظره عميل. ومع هذا كنت احاول بشكل او بآخر اذا قابلت احدا يمكن ان يراه او يعرفه إلا أن أحرضه على أن يفتح معه هذا الامر ويراجعه لعله ينتهي، فما كان من أحد أولئك الأشخاص إلا أن وشى بي عنده، وقال له: لماذا تُبقي هذا الشخص بجوارك؟ وكان أسامة من أخبرني بذلك محاولة منه لاستعطافي لأبقى معه، فرددت عليه قائلا: أنا في السودان ولست تحت عباءتك، ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين. ولا يعني هذا أن اسامة كان يخطط لكل ما حدث أو يعلم ما سيكون، إلا أن قراءتي له جعلتني أشعر بأن طريقة تفكيره ستوصله حتماً إلى ما حدث بعد ذلك، فلم أترك شيئاً لم أقله لأسامة حتى أقوله بعد ذلك وأبعث به إليه.

• هل أفهم من هذا أن الذين أرسلوا له رسائل ونصائح خصوصا في السنوات الأخيرة، كانت غائبة عنهم هذه الخلفية، بمعنى أنه حتى لو آمن بكلامهم غير قادر على التراجع؟

- ربما يكونوا لم يعرفوه، وربما تكون لهم مآرب أخرى، والأعمال بالنيات، ولكن قصده وطريقته. وأنا من طبعي لا أحب الحكم على الناس.

أنا ظلمت وحوصرت

• من غير المستحب استثمار موت أحد مهما كان، ولكن بعيداً عن هذه المثالية، هل تؤمل أن ينهي موت أسامة معاناتك الشخصية أنت أيضاً مثلما ترجو أن تطوى معه معاناة أختك، لأنك موضوع في القارورة نفسها؟

- بعد تردد قال: هذا أمل كبير جداً، لأن قضيتي ليست مبنية على أي أساس، فلا توجد أي تهمة ضدي ولا أي علاقة لي بما تسبب في تصنيفي على قائمة الداعمين للإرهاب عالمياً، ما ترتب عليه فصلي من عملي تعسفاً، ومنعي من السفر، وغلق حساباتي، وأن أمنع حتى من عمل أي شيء ذي بال. بل حتى الشركات التي كنت شريكاً فيها تم إيقاف سجلاتها حتى خرجت منها، وكان ذلك ظلم وقع عليّ لا يعلم مداه إلا الله سبحانه وتعالى، فخلال عشر سنوات أنا شبه محاصر، كما لو كنت أقضي عقوبة ذنب لم أرتكبه.

• للتصحيح فقط حتى يفهم القراء، أنت ذكرت لي في لقاء سابق أن السلطات السعودية لم تكن هي حاملة وزر هذا الظلم، وإنما وضعك على قائمة الأمم المتحدة كان عقاباً أميركياً بوشاية سودانية، والمملكة بحكم عضويتها في الأمم المتحدة مجبرة على الخطوات التي اتخذتها... أليس كذلك؟

- نعم صحيح، ولكن كنت أتمنى أن تصحح المملكة هذا الخطأ عبر اتصالها بالجهات الأممية، لأن الذي زج بي في هذه القوائم، بالتأكيد يجهل من أنا، فحساسية علاقتي السابقة بأسامة جعلت اسمي يتردد باستمرار معه كلما ذكر حتى بعد أن فارقته وأعلنت معارضتي له، وهو لم يزل في السودان. هذه الخلفية لا يبدو أن الإدارة الأميركية والأممية لديها علم بها. والأمل أن تتسارع الخطى لكي لا يظل الأبرياء يدفعون ثمن أفعال وأخطاء لم يكونوا فيها شركاء أو طرفاً.

• وهل هذا يعني أنك أيضاً سَتُحَرك ملفك؟

- أنا ملفي لم أتوقف عن تحريكه حتى من قبل، لأنني صبرت طويلاً. حاولت أن أتفهم الهجمة التي تتعرض لها بلادنا بعد أحداث سبتمبر، حاولت أن أتعايش مع الظروف التي كانت تمر بها البلاد من الإرهاب والهجمات الانتحارية، ثم بعد ذلك بدأت في الاستفسار والبحث عن مخرج، فكان الجواب دائماً أن هذا قرار ملزم من الأمم المتحدة التي نحن عضو فيها، فكنت أتفهم ذلك وأطلب بصفتي مواطناً تعرض للظلم أن يدافع عني، طالما لم تكن هناك أي تهمة أو دليل أو بينة أو حتى قرينة، فملفات بعض الذين كانوا في غوانتانامو حلت وانتهت وأنا لم أزل على حالي، ولكن الأمل لم ينقطع، والتعاطي مع مشكلتي إيجابي من الجهات الرسمية، لكن المعاناة حتى هذه اللحظة مستمرة.

• هل أفهم من هذا أنك كنت تتمنى أن لم تكن انفصلت عن تنظيم القاعدة؟

- لا أبداً، لم أفكر في هذا يوماً من الأيام، فالقضية بالنسبة لي قضية مبادئ، بغض النظر عما يلحق بي من ضرر. وإنما اعتبرت ما حل بي ابتلاء وامتحان.

• يعني أنت ما خرجت لتؤثر السلامة؟

- بطبيعة الحال، لم تكن السلامة ما أنشده، بقدر الانتصار لمبادئي المنطلقة من خلفيتي الشرعية، وإلا فإن المرء لا يعجزه شيء إذا أراد، وأنا مررت بالموت مرات ومرات، فما أنا بالشخص الذي يهاب الموت على سبيل قناعاته ومبادئه، والحق أحق أن يتبع، وأنا اعتبرت الأمر بلوى صبرت عليها، وسأبقى صابراً آخذا بكل الأسباب وطارقاً لكل الأبواب المشروعة، حتى يأتي الله بالفرج، وأغدو مثل أي إنسان في هذه البلاد يتمتع بكل حقوقه وحريته.

المرء لا يعجزه شيء

• قصتك بين آلاف القصص حول معالجة الإرهاب بظلم الأبرياء، ماذا يمكن أن يقال للأميركيين على هذا الصعيد؟

- أنا أعتقد بأن أخذ الأبرياء بذنب المخطئين، واحد من أهم روافد تطرف الفكر، فعندما تلبس الأبرياء بأخطاء لم

يرتكبوها فأنت بذلك تحرضهم على التهور، والعنف والشدة يولدان الشدة، خصوصاً إذا لم يكن المرء محصناً شرعاً وعقلاً والتجربة، يكون عرضة للانجراف نحو المزلق الخطأ.

• بهذا ألا نعتبر مثلما قالت الحكومة السعودية في تعليقها على مقتل بن لادن، إن مقتله ينبغي أن يكون مساعداً على مراجعة أنواع الظلم التي تجري تحت غطاء مطاردته ومن ذلك ما حل بك أنت شخصياً؟

- هذا شي أساسي، وإن كان ينبغي أن يكون من قبل والآن من باب أولى، لأن كل المعطيات التي توصلوا إليها، بما فيها حتى أدق خصوصيات الرجل، وعرين رأس القاعدة، ينبغي أن يكون مغنياً لهم، فلا يحتاجون إلى أخذ الناس بذنوب غير ذنوبهم.

• على ذكر أميركا، أنت ذكرت فيما سبق من أحاديث جانبية أنك ليست لك مشكلة مع أميركا وقد كنت فيها سائحاً قبل أن تمنع من السفر؟

- نعم في عام 96 كنت في أميركا في رحلة سياحية مع العائلة، ومكثت في بوسطن شهراً ونصف أدرس هنالك اللغة الانجليزية إلى جانب قضائي للعطلة مع أسرتي، ولا زلت أعتز بتلك التجربة وأحتفظ بصوري عنها.

• إلى أي شيء إذاً تعيد موقفهم منكم، طالما أن سيرتك الذاتية كلها تشير إلى أنك لست بالشخص الذي يستهدفون أمثاله؟

- السياسة الأميركية السابقة في إدارة بوش هو أخذ الجميع بالذنب عشوائياً، حتى إنهم لو وجدوا حمار أحد المجاهدين السابقين لاعتقلوه، وحصل أن اعتقلوا خدماً عند بعض المطلوبين، هذا واضح، وهم بأنفسهم اكتشفوا أنهم ظلموا خلقاً كثيراً وحكموا ببراءة عدد منهم. ولكن ما يؤسف هو المكابرة عن مراجعة تلك الأخطاء، وإعادة الحق إلى نصابه.

هكذا تزوج بن لادن أختي

• موضوعنا في هذا الجزء سيتركز على الخطوات التي اتخذتموها أو التي ستتخذونها لاستعادة أختكم التي توفي عنها أسامة بن لادن، فما هي المعلومات التي علمتموها حتى الآن عنها بعد رحيل زوجها؟

- لا تزال المعلومات المستقاة عبر وسائل الإعلام فقط، وثمة محاولات للاتصال مع الجهات المعنية للاستفسار أولاً هل هي موجودة معه أم لا، لكن نظراً لقرينة ابنها خالد، فمقتل ابنها الأكبر في الموقع الذي قتل فيه أبوه يجعلنا نزداد ثقة بوجودها هنالك، لمعرفتنا المسبقة بمدى تعلقها به، وأنه لا يمكن أن يفرقهما

شيء إلا الموت، فالقضية بالنسبة لنا والوضع هكذا أصبحت قضية إنسانية في المقام الأول.

• وهل أنتم متأكدون أنها على قيد الحياة، ولم تمت من قبل، خصوصاً وأن بن لادن قبل مقتله غاب فترة طويلة مصحوباً بقصص كثيرة، ليست أختكم إلا واحدة منها؟

- بما أننا لم نسمع خبراً عن موتها فالأصل بقاء الأمور على ما هي عليها، وكما تقول الانجليز «لا أخبار، يعني أن الأخبار جيدة»، فنحن الغالب على ظننا أنها بخير وعلى قيد الحياة، وبين يدي الباكستانيين كما فهمنا، حتى الآن.

• ما الذي يدفعك إلى هذا اليقين، هل أفهم من ذلك أن الاتصال معهم كان حياً بصورة أو بأخرى؟

- الاتصال منقطع تماماً منذ وقت طويل من قبل أحداث 11 سبتمبر، إلا أن مصائب مثل الوفاة لا تلبث أن تظهر حتى وإن تأخر العلم بها بعض الشيء، فابنتها التي ماتت قبل نحو سنتين بسبب «الولادة» سمعنا بوفاتها، وهذا ما يجعلنا نطمئن. وهي زوجة شخص من أهل المدينة في أفغانستان اسمه عبد الله أبو الخير، فلو كانت توفيت هي الأخرى لعلمنا.

• وهل هنالك أسباب إضافية لاعتقادكم بأنها موجودة؟

- حدثتك قبل التسجيل، بأنها لم تكن امرأة عادية بالنسبة إلى زوجها أسامة، فهو متمسك بها إلى أبعد حدّ، وكان صمودها معه في ظروف مضت ربما أشعره بأنها ليست ممن يمكن أن تتخلى عنه. والسبب في نظري وراء ذلك ليس أسامة لذاته وإنما تعلقها الكبير بأبنائها. ونحن علمنا أن زوجته خيرية صابر موجودة في إيران، والزوجة الثانية كانت في سوريا والآن أصبحت في قطر، فلم يبق إلا هي والزوجة الحديثة اليمنية. وما زلت أؤكد على أن أهم القرائن هي مقتل ابنها خالد في المكان نفسه، لأن أبناءها أحد نقاط ضعفها الكبرى لشدة تعلقها بهم، فلن تقبل أن يكون خالد بعيداً عنها، فهي ضحت في هذا السبيل أكثر مما يتصور في وقت سابق.

• أراك تركز كثيراً على أبنائها، كأنك تقول بأن دخولها في هذا المعترك مع أسامة ليس من أجل شيء غير أبنائها، ولماذا لا يكون من أجل زوجها الذي أحبته أيضا؟

- هذا لا شك فيه، لكن عنصر الأبناء عنصر أساسي وليس العكس، وعادة نحن في ثقافتنا الحجازية أن المرأة تصحب زوجها حيثما كان. لكن عنصر أبنائها ضاغط بشكل مختلف لمعرفتي

الشخصية والدقيقة بها، فأنا أعرف الناس بها وبظروف حياتها مع أسامة.

• وهل هنالك تجارب سابقة لك معها في هذا الصدد لترويها لنا؟

- ثمة مواقف ومشاهد كثيرة أنا قريب منها، يصح أن تكون برهاناً على ذلك، ولكن دعني أخبرك بواحد فقط، هو أنه عندما ألحّ والدي رحمه الله على أن تزوره في المدينة قبيل ترك أسامة للسودان، جاءت إلينا على أمل أن تبقى معنا إلى الأبد بسبب ما تبين من توجهات أسامة للغياب الدائم عن المملكة، فما كان من بن لادن إلا أن أمسك بأطفالها ولم يبعث معها إلا الرضيع من أبنائها لمعرفته أنها لن تمكث بعيداً عن البقية، وهذا ما تحقق له إذ لم تكمل عشرة أيام حتى بدأت تبكي في الليل وفي النهار تتوسل إلينا «أولادي أولادي» حتى أعدناها إليه رغماً عنها وعنا، مع أنها جاءت لنا بجواز من «سفرة واحدة»، لأن المأمول هو أن تمكث مع أهلها ولا ترجع. فلما رأى والدي ما حل بها من الكرب، لجأ إلى السلطات الأمنية التي سهلت مشكورة عودتها إلى أبنائها، فكانت تلك زيارتها الأخيرة، وبعدها توفي الوالد ثم الوالدة، رحمهما الله. ولم تستطع بعد ذلك أن ترجع، لأن جذبنا جميعاً كإخوة ووالدين لها، تفوق عليه جذب أبنائها له.

استغل حبها لأطفالها

• وهل أسامة علم بنواياكم تلك حتى اتخذ من أبنائها عنصر ضغط عليها؟

- هذا صحيح، وهو يدرك هذه النقطة، وبالتالي استطاع أن يرجعها ويقيدها بأبنائها، لمعرفته بمدى تعلقها بصغارها، وأنا أعرف نساء كثيرات من أقاربي ومعارفي ولكن مثل أختي سهام في التعلق بأبنائها لا أعرف. هل تعلم أنها عندما كتبت أطروحتها في الدكتوراه لم تهدها لزوجها ولا لإخوتها، وإنما أهدتها في رسالة بليغة إلى والديها في سطر عابر، ثم أوقفتها على أبنائها بالكلية بأسمائهم فرداً فرداً، لست أبالغ إن قلت لك هي تتنفس بعيون أبنائها.

• بصراحة قل لي، هل بيتم «نية» خلعها من أسامة؟

- لا نقول «خلع»، وإنما الوالد رحمه الله أراد أن تبقى بجانبه، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً، ونحن نتحدث هنا عن عام 95 قبل أن ييأس الكل من عودة أسامة إلى أهله وبلاده.

• سنعود إلى قصة زواج أسامة من كريمتكم، ودورك الشخصي في ذلك، ولكن من حيث الأفكار هل كانت أم خالد مجرد زوجة تابعة لبن لادن أم أنها أيضاً كانت مؤمنة بمشروعه الجهادي، عندما كان الجهاد ناصعاً؟

– لا شك أن زواج أختي بأسامة في بداية الأمر كان الباعث عليه هو إيمانها في ذلك الوقت بأنه شخص بذل ماله ونفسه وجهده في سبيل إعلاء كلمة الله في أوائل مرحلة أفغانستان، فكان هذا أهم سبب جعلها تقتنع بالزواج به رغم زوجاته السابقات، فنظراً لخصوصية العائلة والمنع المطبق من جانب الوالدين وكل العائلة لهذا الزواج، لم يكن هناك ما يبرر موافقتها سوى ما تسمع عن أسامة في ذلك الوقت من فضل.

• ولماذا لا يكون السبب الحقيقي، هو كما ذكرت في لقاء سابق، أنك غزوت عقلها وأقنعتها بالأمر؟

– نعم صحيح، لا أنكر أنني بذلت جهوداً مضنية في سبيل إقناعها، لكن الذي ساعدني على ذلك هو ما كان أسامة يتمتع به من سمعة طيبة يومئذ، والدليل على ذلك أنها حين قررت الموافقة بعد سنة من المحاولات معها، برهنت على أنها لم ترد في أسامة غير صورته التي ذكرنا، فتبرعت بمهرها وذهبها كاملاً للجهاد في ذلك الوقت بمجرد أن سُلمت من جانب أسامة، وهو تصرف مثالي في تلك السنوات، كان الجميع يشجع عليه ويحرض.

• هذا في المرحلة الأولى، ولكن في مرحلة أسامة التالية، التي انحرف فيها عن مساره النقي الذي عرف به أولاً، هل ظلت شريكة له في مشروع تنظيم القاعدة، الذي أصبح النساء فيه طرفاً في السنوات الأخيرة؟

- ما أتصور هذا أبداً، لأنها حاصلة على الدكتوراه واطلاعها جيد، وفسرت جزءاً من القرآن في أطروحتها لنيل شهادة الدكتوراه، وكان أملها في مقدمة تلك الأطروحة أن تتم تفسير القرآن، وأنت تعلم أن القرآن بإذن الله يعصم حامله، العالم بأسراره، من الزلل، يضاف إلى ذلك ما أعرف من سمات شخصيتها الميالة إلى الاعتدال والهدوء، وهي فوق ذلك امرأة محصنة شرعياً قبل أن ترتبط بأسامة فعندما تزوجها كانت معيدة في الجامعة، ثم حصلت على الماجستير في المدينة المنورة قبل أن تكمل الدكتوراه في السودان في التخصص نفسه، مما يشير إلى أنها لم تتحول عن منهجها الفكري مثل أسامة، ولكن أسباب بقائها معه في تقديري هي مثلما ذكرت لك سابقاً.

أسامة ضد جهاد النساء

• وما موقف أسامة بالمناسبة من إقحام النساء في العمل الجهادي؟

- ما أعرفه عن أسامة أنه لم يكن يتعامل مع نسائه إلا كزوجات، وما كان يدخلهن في أمر من شؤون نشاطه الجهادي الأول، ولا كانت أختي التي كنت جلست معها أنا وأسامة كثيراً تشاركنا في أي حديث ولا أي هم ميداني. وكان أسامة فاصلاً بين حياته العامة، وبين حياته الخاصة في بيته وأسرته عندما كنت قريباً منه.

• هل نفهم من هذا أن ما كان تنظيم القاعدة يدعو إليه نساء المسلمين، أسامة ما كان يرضاه لنسائه؟

- أنا لا أستطيع أن أفتي بما لا أعلم، ولكني أتكلم عن مرحلة سابقة، وما أعتبره دليلاً على أن أسامة بقي رأيه في هذا الجانب كما عهدته، هو أنني لم أسمع في وسيلة إعلامية ولم أقرأ أن لإحدى نسائه أو بناته أي دور أو نشاط في هذا المجال. وهذا دلالة واضحة على الفصل بين المحيط العائلي والنشاط العام، الذي سخّر أسامة نفسه له.

• ولكن ما النتيجة؟ هل إقحام النساء في العمل الإرهابي، كان بدون رضى أسامة؟

- أنا في تصوري أن الذي تم من إشراك النساء، اجتهاد من عناصر أخرى في التنظيم، للاعتبارات التي ذكرتها لك، وهي التي ظل أسامة مؤمناً سنوات كنا فيها سوياً، ولم أعرف يوماً أن له اهتمام بهذا الجانب، لأن النظرة الذكورية في الجهاد هي الأساس في تصوري عنه ومعرفتي به، بل كان يرى أن الجهاد فرض من أجل حماية النساء والأعراض، وبالتالي ما كان يقحمهن في ذلك. ونظرة أسامة عموماً للأنثى هي أنها تربي وترعى الزوج والأبناء، وبالتالي يمنع بناته من أن يدرسن في المدارس، حتى أحوج ذلك أختي أم خالد إلى اختراع «نظام المنازل» في ذلك الوقت قبل أن

يعمل به في المملكة، فاستطاعت أن تعلم بناتها في الدار، بحيث تأخذ المناهج الدراسية سنة بسنة من الابتدائية حتى أوصلت بناتها للمرحلة الثانوية، فكان هذا أحد المؤشرات المهمة على توجه أسامة في هذا الباب.

زوجة زعيم تنظيم القاعدة «دكتورة»

• وكيف استطاعت هي أن تحقق درجة علمية متقدمة، وزوجها بهذا التزمت؟

– إذا لاحظت ذلك فإن أسامة تزوجها وهي معيدة، في طريقها لإكمال الماجستير، ثم اشترطت عليه قبل موافقتها على الزواج أن تكمل دراساتها العليا، ومع ذلك حاول ألاّ يسمح لها بذلك عندما أتيحت لها الفرصة في السودان، فلم يوافق إلا بعد ضغوط شديدة، وهذا من أحد أسباب اختلافهما. ولذلك لم تشر إليه في إهداء الرسالة، رغم أنها كان بوسعها أن تفعل. ولشدة ما كان أسامة يتشدد في أمر النساء كنا نناقشه ونختلف معه، ونرى أن التعليم حق للنساء مثلما هو للرجال.

• وماذا ترى أنت، ألست كنت شريكاً له في هذا التفكير عندما كنتما سوياً على الأقل؟

أبداً لم أتوجه لهذا حتى في ذلك الوقت، بل كنت أعارضه بشدة، فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول: النساء شقائق الرجال.

ودور المرأة أساس في المجتمع، لأنه متى ما صلحت المرأة صلح المجتمع لأنها الأم المربية والزوجة الحانية والبنت الودودة المظلة لوالديها، ودور المرأة تستطيع أن تبصره جلياً في تاريخنا الإسلامي.

• هل أفهم من هذا أنك مع عمل المرأة، لأنك حتى لو لم توافق تنظيم القاعدة في أفكاره بعد طلاقك لرموزه، إلا أنك لم تزل من التيار المحافظ في السعودية الذي يرى معظمه أن عمل المرأة ينبغي ألاَ يتجاوز حدوداً معينة، فهل مثلاً ترى مشاركة النساء في الانتخابات البلدية مثلاً؟

- لا أرى ما يمنع شرعياً المرأة المحتشمة من العمل، لأن المرأة في الإسلام كانت عاملة وملتزمة بقيمها في آن، وأحاديث نبوية كثيرة تؤصل هذا الجانب وليس هذا محل سردها، ويكفينا من ذلك حديث خالة أبي سعيد الخدري، التي سألت النبي صلى الله عليه وسلم في القيام بأمر نخلها بعد موت زوجها وهي في العدة، فأذن لها النبي صلى الله عليه وسلم بذلك وهي في حالة عدة، فكيف إذا كانت في وضع طبيعي. وكل ذلك ضمن قواعد وضوابط وأطر معلومة نظمها الشرع. تبعاً لذلك فإن الانتخاب «رأي»، والمرأة في الإسلام ذات رأي كما في حديث قصة الحديبية عندما استشار النبي صلى الله عليه وسلم زوجه أم سلمة، فكان

رأيها محل تقدير من النبي والصحابة، فلم يحجز رأي المرأة والحال هكذا؟ لست أدري.

• إذاً أنت ترى أن منع المرأة من الانتخاب مصادرة لرأيها؟

- ما في شك، وما هو أبعد من مصادرة رأيها، هو أننا محتاجون إلى رأيها في مثل هذا المجال لأنها شريك، وليست أداة أو آلة تستخدم، بل هي شقيقة الرجل، ولكن من غير تفريط في التعليمات الشرعية المنظمة، والأعراف الاجتماعية المعتبرة أيضاً.

• بالعودة إلى أصل الموضوع، أنتم الآن ستسعون لاستعادة أختكم باعتبارها كريمتكم ومواطنة سعودية في الوقت نفسه، فما هي خطواتكم في هذه الجزئية، وكيف تتعاملون مع من لا يزال ينظر إليها على أنها زوجة أسامة «الإرهابي»؟

- لا شك أن القضية ينظر إليها من ناحية إنسانية في المقام الأول، وزوجها أفضى إلى ما قدم، وبقيت هي، وبالتالي من واجبنا نحن كإخوتها أن نستعيدها، في وقت لم نأل جهداً في ذلك حتى من قبل إلا أن العوائق التي كانت تحول دون ذلك قد زالت، كما أنها بصفتها مواطنة أيضاً نتوقع من الجهات المعنية

أن تساعدنا في تحصيل هذه الغاية، ونهيب بها أن تمدّ لها ولنا يد العون لتعود إلى حياض أسرتها، فهي الآن باتت أحوج ما تكون إلينا جميعاً وطناً وعائلة وأهلاً، وتعامل ولاة الأمر مع حتى أولئك الذين ضلوا الطريق وسفكوا الدماء من أبناء الوطن، يجعل أملنا كبيراً في تعجيل اتخاذ الجهات المعنية بالخطوات اللازمة لاستعادتها، فنحن واثقون بأنها لم تكن شريكة بأي صورة من الصور في أي عمل إجرامي، وهي في النهاية امرأة نحن والدولة مسؤولون عن حمايتها وحفظها وصيانتها، طالما غدا ذلك ممكنا.

• وهل بلغكم شيء عن حالتها الإنسانية؟

- نحن علمنا أنها ليست الزوجة التي أصيبت، ولا بد أن تكون بيد السلطات الباكستانية، ولكن يا أخي هذه المرأة قصتها مع المعاناة طويلة، الله يعلم وحده كم صبرت منذ الأيام الأولى من وجودها بالسودان حتى الآن، ولكن أبناءها كانوا نقطة ضعف لها كبلتها، ونستطيع تصور كم ستكون معاناتها اليوم مرّة وقد فقدت ابنتها البكر قبل عام وابنها خالد أخيراً مع أبيه، وهذا الابن كان بالنسبة إليها «فتنة» لا تكاد تتصور الحياة والعيش بدونه، فهي بكل تلك المصائب في أمس الحاجة إلى تدخل ينهي معاناتها أو يخففها، فإن يكن من عقاب فإن ما مرّ بها أكبر من أي عقاب، وهذا افتراض، وإلا فإننا لا نتوقع هذا القول من أحد في قلبه مثقال حبة من رحمة. (يسكت سعد ويتأوه. كان فيما فهمت يكتم عبراته،

وقد كان في أحاديثه الجانبية يلمح إلى أنها عانت ظلماً وقهراً لا يشاء الخوض فيه، حفظاً لحرمة العلاقة العائلية، ولكن آهاته تتحدث عن أهوال وأشياء)!

ليست شريكة أسامة فكرياً

• هل تريد أن تقول إنها ليست طرفاً في قضية أسامة المعلومة؟

- نعم هي ليست طرفاً، وأنا أؤكد ذلك من خلال معرفتي بها وصحبتي إياها على مر السنين وتعلقها بي. وحتى لو افترضنا غير ذلك، فحتى المذنبون تستقبلهم أوطانهم وتستصلحهم، كما هو شأن معتقلي غوانتانامو وغيرهم من المطلوبين الذين ما زالوا يسلمون أنفسهم، مرة بعد أخرى. ونحن واثقون أنها ستجد ما تستحقه من العناية من جانب ولاة أمرنا.

• ما هي الخطوات التي قمتم بها حتى الآن لاستعادتها، أم أنكم واثقون بأن الجهات المسؤولية في الحكومة ستقوم بواجبها من غير أن تتدخلوا؟

- هذا جانب حقيقي، يضاف إليه أيضاً أننا ما زلنا نتثبت ونزداد تأكداً من وجودها، وصغنا برقية قررنا توجيهها إلى الجهات المسؤولة في الدولة، لإشعارهم بتطلعاتنا واستعدادنا للتعاون معهم في أي أمر يرونه لأننا كما تعلم في مجتمع محافظ، وحتى الدولة

تشجع الأُسر على النهوض بواجباتهم نحو من يقع تحت رعايتهم من أهل وولد.

• ولكن هي امرأة فقدت كل شيء هنالك، وهي الآن في خريف عمرها، فهل أنتم جازمون بأنها راغبة في العودة؟

هذا سؤال افتراضي تعود إجابته إليها، لكني حسب معرفتي الشخصية بها أستطيع الجزم بأنها ليست فقط راغبة في العودة، بل تتمنى ذلك وتترقبه بشوق، فبعد زوال الموانع التي كانت تقيدها من قبل لا بد أنها ستكون أسعد الناس بالعودة إلى عائلتها ووطنها الذي أحبته، فأهل المدينة من أشد خلق الله تعلقاً ببلادهم خصوصاً عائلتنا لأسباب فضل المكان ومجاورة النبي عليه الصلاة والسلام، فالمسلمون جميعاً يهفون إلى هذه البقاع فكيف بإنسانة عاشت أجمل أيام حياتها بين أحبتها هانئة؟ وأتذكر عندما كان أسامة في السودان يخوفني من العودة إلى السعودية، ويقول لي سوف يفعل بك ويفعل أقول له: السجن في المدينة أحب إليّ مما أنت فيه!

• فيما سبق رأينا أن الحكومة السعودية تعاملت مع أبنائها المطلوبين، بمنطق «عفا الله عما سلف»، وأختك ترى أنها حتى الخطأ لم تكن شريكة فيه، هل

تتوقع أن يساعد ذلك على سرعة استعادتها رسميا؟

- هذا الأمل، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ ونرجو أن ينظر لها من هذه الحيثية.

• هذا عن أختكم، فماذا عن أبنائها، وهل بقي لها أحد؟

- بقي لها ابنتان، ولا أدري هل هما متزوجتان أم لا.

• لا تخف، «تنظيم القاعدة ما يفوتون أحد. أكيد متزوجات ومخلفات بعد»؟

- (ضاحكاً)، نحن نرى أنه لا ينبغي أن تفصل أم عن أبنائها، وهذا أمر تستوعبه الجهات المختصة، فالمملكة لم تعتد أخذ أحد من أبنائها بجريرة آخر، فأبناء أسامة وإخوانه يعيشون بعافية وأمن واستقرار، وأبناؤه من أختنا أحق بذلك من غيرهم. ولكن الخوف من أن يكن متزوجات، وهذا ما لا ينبغي أن يعيقنا عن مواصلة جهودنا.

• وهل هنالك تنسيق بينكم وبين عائلة بن لادن في استعادة بقية أبناء الرجل؟

- لا يوجد هذا النوع من التنسيق، بهذا المعنى، لحساسية الأمر بالنسبة لعائلة بن لادن، وبالتالي لم يبحث معهم، ولم نتطرق

للموضوع مطلقاً. وتلك حساسية نالني منها أنا شخصياً ما لم ينل غيري، وقد يكون الأمر بُحث من جانب أطراف أخرى، لكن من ناحيتي أنا لم أفاتح أحداً فيه لعلمي بموقف العائلة المسبق.

• علمنا من مصادرنا، أن أطرافاً من عائلة بن لادن تعتبر علاقتها بابنها ومن ترك، علاقة قطعت وانتهت، فهل يؤثر هذا في تقديرك على موقفكم أنتم؟

- لا أعتقد بأنه سيؤثر، لأن هذا خيارهم الشخصي ولا علاقة لنا به. نحن نتكلم عن أختنا التي تنتمي إلينا، وليس عن أحد آخر، وبالتالي من واجبنا شرعاً وعرفاً ووطنياً أن نستعيدها.

• فهمت أن عائلتكم مشغولة هذه الأيام فقط باستعادة أم خالد، فكأن موت بن لادن أحيا لها الأمل في ابنتهم مجدداً، فهل يمكن أن تستثمروا علاقات المملكة المتميزة مع الباكستانيين في هذا الشأن؟

- هذا من العناصر المشجعة لنا، وهي من ضمن ما خاطبنا به الجهات الرسمية، ونتمنى أن تستثمر هذه الجزئية، والإسلام علمنا أن نرحم الضعفاء، ونجبر المنكسرين، خصوصاً إذا كنا نتحدث عن امرأة مثل أم خالد لا تجيد حتى استخدام السلاح!

• هل يعقل أن زوجة أسامة لا تتقن استخدام السلاح؟

- حسب علمي، نعم لا تعلم كيف تستخدم أي سلاح أبداً، وهذا يعود إلى النظرية السابقة التي ذكرت لك عن رؤيته لدور المرأة.

• بالعودة إلى تعدد الزوجات عند أسامة، فإن الناس عندما قتل الرجل وبدأت وسائل الإعلام تتحدث عن أبنائه، هالهم كثرتهم والرجل كان مجاهداً ثم أصبح بعد أن تبنى الفكر الإرهابي مطارداً، وفي كل تلك المراحل لم يكن لديه فيما يعتقد الناس وقت، فما هي فلسفته في قصة الزيجات وأنت أعلم الناس به؟

- (ضاحكاً بشدة)، هو جهاده كان على جبهتين. فالتعدد بالنسبة إليه أم القضايا، وإقناع الناس به، وبالتالي كان معظم زوجات من يعرفوه يحرصن على أن لا يلتقي أزواجهن به، لأن لديه فلسفة خاصة في هذا الأمر. وكان مما يردده دائماً حديث «تناكحوا تكاثروا فإني مكاثر بكم الأمم»، وهذا ما جعله يكون ساخناً على الجبهتين.

• ولماذا لم يقنعك أنت بالتعدد وأنت صهره وقريب منه، أم أن زوجتك (خالها بن لادن) حمرت له العين وحذرته من الاقتراب منك؟

(ضاحكاً)، ربما يكون هذا، ولكن هي قناعات. (تهرب، ربما كان معدداً وأنا لا أعلم)!

• بصراحة أريد أن تجيبني على هذا السؤال، وهو أن عدداً من الناس كانوا يصفون أسامة بالشخص الرومانسي والجذاب في أيامه الأولى، فهل كان يخطب من جانب النساء خصوصاً وأن هذا من الخطوات المسموح بها شرعياً في الخطاب الديني السعودي؟

- طبعاً دائماً إذا وصل المرء إلى مرحلة النجومية، تتحسن حظوظه في أشياء كثيرة ومن بينها النساء، لكني أصدقك القول أسامة كان يتعب في الحصول على زوجة، لأن معظم النساء لا يرغبن في التعدد، إلى جانب الأسباب التي تخص كل امرأة بمفردها. كان يتعب في البحث حتى وصل النصاب.

• بهذا ألا يؤنبك ضميرك بأنك صاحب الفضل والوزر في تزويج أختك بأسامة، حتى جعلت تراجعها في ذلك نحو عام كما علمنا؟

- أنا ضد الدخول في محاسبة نفسي على شيء قد تم ولم يعد بوسعي إصلاح شيء منه، خصوصاً وأنني عندما سعيت في الأمر كان الرجل سوياً ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير. ولو كنت زوجتها به في هذه المرحلة نعم لكنت ندمت ولمت نفسي، لكني قمت بما أراه مناسباً في ذلك الوقت، وما حدث من تغير فيما بعد لم يكن بوسعي أن أتنبأ به.

• ولكننا فيما علمنا من مصادر أخرى، فإن والدك أنبك شخصياً عندما تغير أسامة، واتهمك بأنك من أغواها به؟

- هذا صحيح، والحق أنه إغواء مزدوج فبريق أسامة في أيام الجهاد الأفغاني أغواني وأنا مع الوقت استطعت أن أغوي أختي معي، وقصة زواجها بأسامة ذات شجون طويلة ولن نوفيها حقها هاهنا، فبين ما يجعلها ذات حظوة عند والدي رحمه الله أنها كانت أديبة وشاعرة بعض الشيء لأن تخصصها العام «لغة عربية»، وكانت تسافر معه وتقرأ له الأشعار وتؤنسه، فكان يحبها ويتعلق بها، فكان هذا سبب لومه لي فيما قبل الزواج وبعده، وكان هروبي هو بأنها «رغبت» وهذا قضاء وقدر.

والدي كان ضد تزويج أسامة

• ولكن الوالد فيما تخبرنا المصادر، اعتبر دخول أسامة للعائلة عنصراً غير مريح يحملك مسؤوليته حتى قبل أن يتغير، فهو اختطف الابنة ثم هرب بك إلى أفغانستان بدون إذنه، ثم حرمه من ابنته بعد ذلك ما جلب له العديد من المتاعب... مع كل هذا لا تقر أنت بالذنب؟

- ما من شك في أن الوالد رحمه الله ينظر للقضية من هذا الجانب، لكن في المقابل في تصوري أنه كان يعذر أسامة من

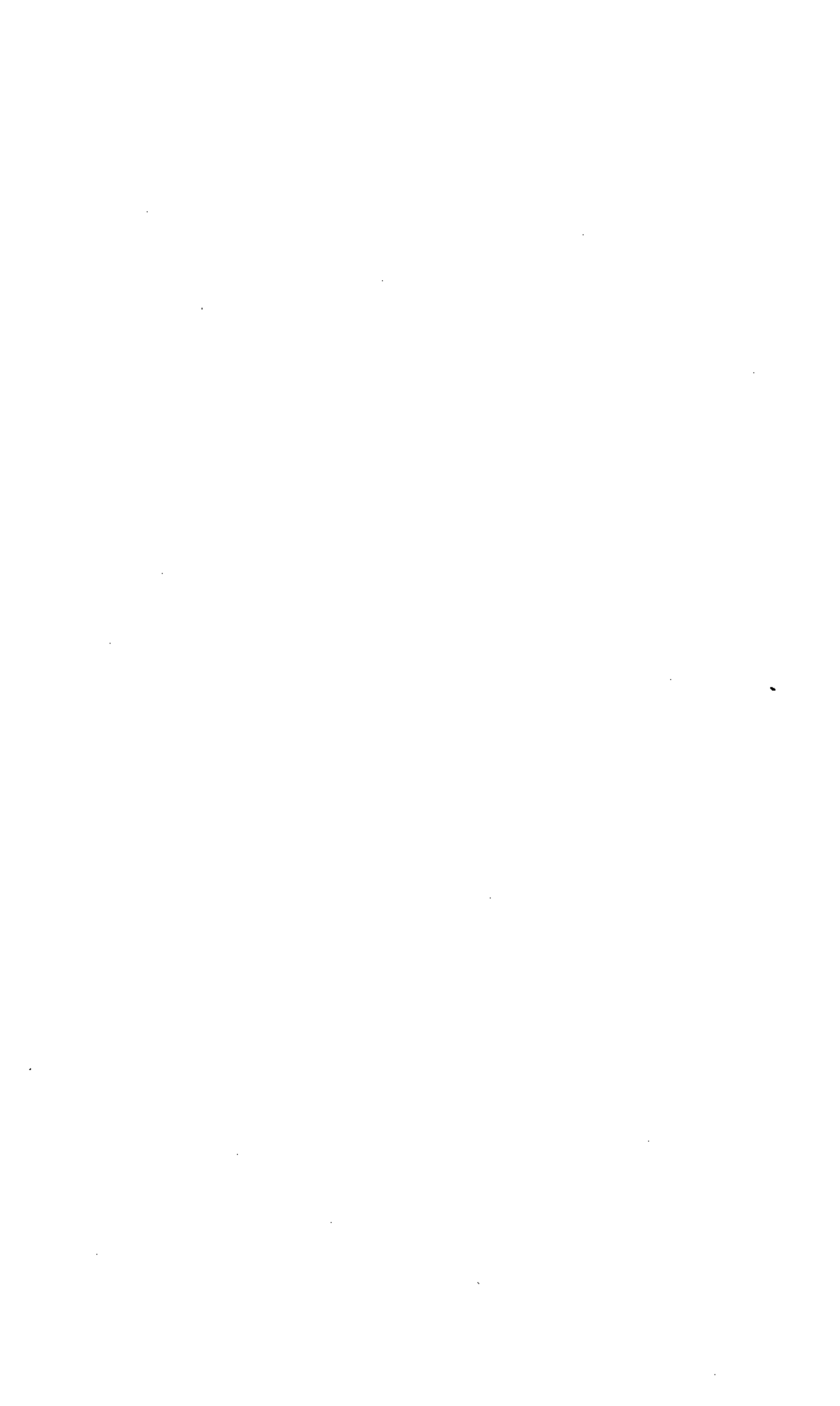
الداخل أيام جهاد الأفغان، وإن كان يلومه ظاهراً. مع أنه رحمه الله كان يقول لأسامة هؤلاء الذين تساعدونهم سينتهون من الروس ويقتتلون فيما بينهم.

• أنا سمعت أنه كان يعلنها بصراحة في وجهه «وخّر عن أولادي»؟

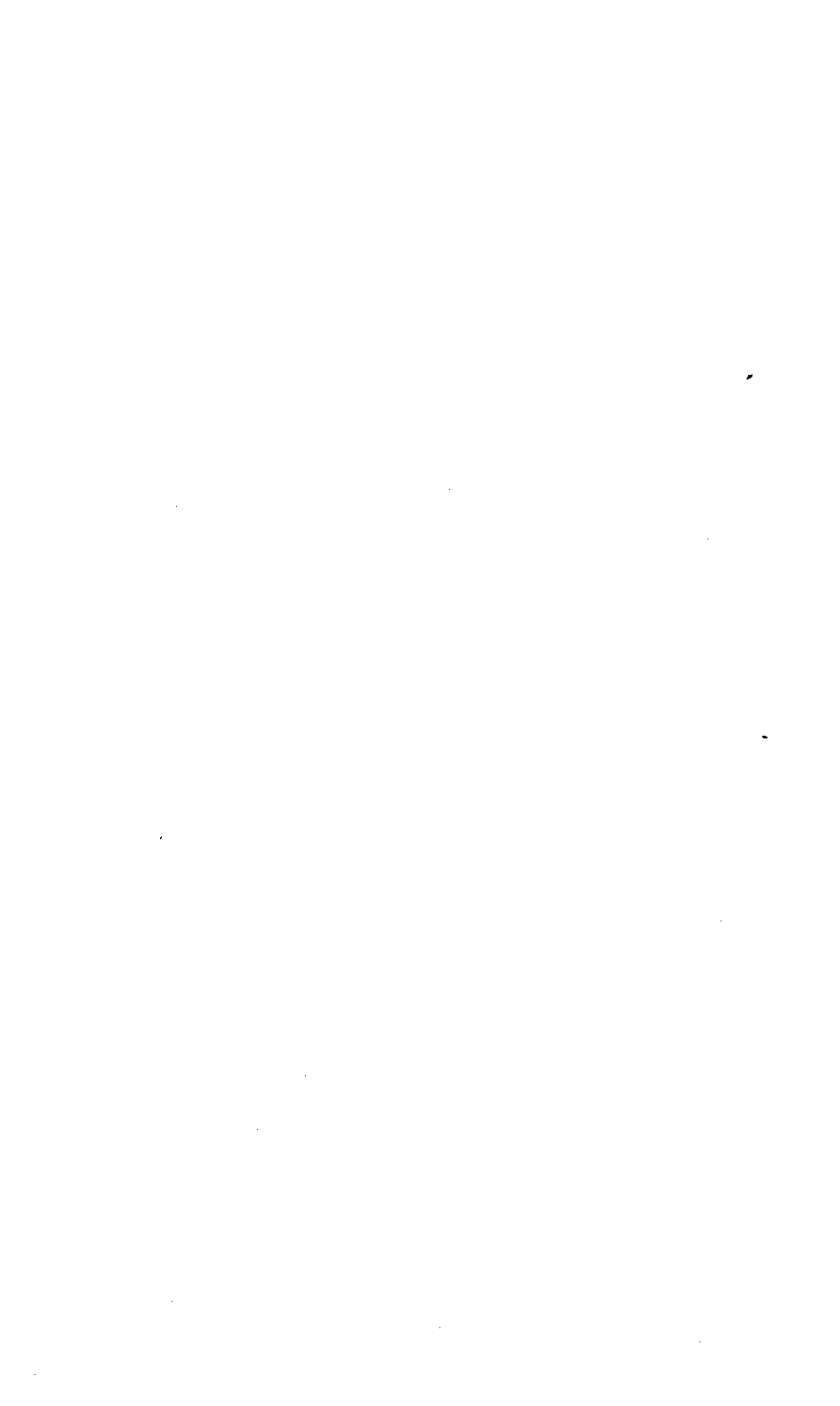
- بلا شك، لأنه كأب يشعر أن ابنه وابنته أخذا منه، وكان يخشى على البقية أن تنتقل إليهم العدوى، وهذا غير مستغرب من الأب.

• على ذكر أن أختك كانت أديبة، هل كانت التي تكتب لأسامة قصائده التي أشغل بها العالم؟

- أسامة يحب شعر الحماسة والفخر بشدة، وكان يحفظ القليل منه، فهذه الإمكانات لدى أم خالد مما جعله يستمسك بها أكثر، وكانت أستاذته في هذا الجانب، فكان عندما يكتب شيئاً يعرضه عليها، فتراجعه له لغة ووزناً، أما هي فليست شاعرة بكل ما للكلمة من معنى ولكن تكتب الشعر ولديها ذوق أدبي رفيع، وتخصصها في النحو والصرف جعلها أكثر قدرة على وضع لمساتها المهمة في هذه الناحية.



قسم الملاحق



وفد سعودي موفد إلى أفغانستان

بسم الله الرحمن الرحيم

1412/2/28هجري

الحمد لله والصلاة على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه... وبعد

فقدت عقدت اللجنة الموفدة من المملكة العربية السعودية المكونة:

1 - معالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

2 - فضيلة الدكتور صالح بن عبد الله الحميد نائب الرئيس العام لشؤون المسجد الحرام، والمسجد النبوي، وإمام الحرم المكي.

3 - فضيلة الشيخ عبد الله بن صالح القصير مندوب سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز الرئيس العام لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.

4 - سعادة الدكتور علي بن إبراهيم النملة مدير عام الهيئة العامة لجمع التبرعات للمجاهدين الأفغان، للتعرف على واقع المشكلة بين الحزب الإسلامي بقيادة المهندس قلب الدين حكمتيار، وجماعات الدعوة إلى القرآن والسنة.

عقدت اجتماعاً مع المهندس قطب الدين حكمتيار رئيس الحزب الإسلامي، وتباحثت معه في الخلافات والاشتباكات التي وقعت بين الحزب والجماعة في ولاية كونر وما صاحبها وتبعها من آثار وتصرفات أضرت بالجهاد الأفغاني.

واستجابة لأمر الله ورسوله-صلى الله عليه وسلم- في التعاون على البر والتقوى، والإصلاح بين الإخوة، وتقديراً لحرص المسؤولين في المملكة العربية السعودية، وعلمائها وحرص قادة الجهاد الأفغاني والمهتمين بالقضية كلها، وحرصاً على رأب الصلح وتجنب الخلاف والمصادمة، ورغبة في التعاون لمواجهة العدو المشترك لتحرير أفغانستان كلها تم الاتفاق على ما يلي:

1 – ضرورة الاستمرار في وقف القتال الذي تم التوصل إليه، وعدم تحديد ذلك بوقت محدد، وحل أي نزاع ينشأ بالمفاوضات والمباحثات، وتحكيم رجال الصلح والتحكيم.

2 – فك الحصار عن المجاهدين من أي جهة في كونر، وفتح الطرق أمام الجميع لوصول التموينات والأدوية، ونقل المصابين، وإزالة نقط التفتيش في الولاية رفعاً للحرج ودرءا لتجدد الفتنة.

3 – عودة الأمور في ولاية كونر إلى ما كانت عليه قبل بدء الخلافات، وسحب الجهود العسكرية للطرفين، ورد الحقوق إلى أصحابها وفق ما تصل إليه لجنة المصالحة.

4 – تمكين لجنة المصالحة التي ارتضاها الجميع سابقاً من عملها، وحثها على الاستعجال في إنهاء الصراع والخلاف ليتسنى للجميع استكمال تحرير أفغانستان في ظل الظروف الراهنة. ويترك للجنة المصالحة أمر البت في اختيار أعضاء جدد لها بعد التنسيق مع الطرفين.

5 – الإشراف على تنفيذ هذه النقط، والتعاون بين جميع الأطراف المعنية في تنفيذها. والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

التوقيع:

عبد الله التركي

عبد الله بن صالح القصير

الأستاذ برهان الدين رباني

سياف

حكمتيار

سميع الله

علي النملة

صالح بن حميد



«قرار لجنة التحكيم الأول في قضية كونر»

بسم الله الرحمن الرحيم

1412/3/19 هـ - 1991/9/28 م

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه ومن اهتدى بهداه ثم أما بعد:

فبعد مطالعتنا للأمور وسؤالنا الأطراف المختلفة وتقليب وجهات النظر ومشورة أهل الرأي، ودراستها من الناحية الشرعية تبين للجنة التحكيم أن الحل الشرعي الأمثل في قضية كونر وغيرها من الأراضي المحررة، هو إقامة ولاية شرعية(إمارة) وذلك على النحو التالي:

أولا: تشكيل مجلس شورى من أهل الحل والعقد من جميع المسلمين في كونر.

ثانيا: يقوم مجلس الشورى باختيار أمير لهم تجب عليهم طاعته بالمعروف.

ثالثا: يلتزم بقية الناس- كذلك- بطاعة الأمير المختار بالمعروف.

رابعا: ينبغي على الأمير- بعد مشاورة مجلس الشورى وأهل الاختصاص- أن يختار أهل الكفاءة والأمانة والديانة لتقسيم الأعمال والمسؤوليات عليهم، ليقوموا على مختلف شؤون الحياة

التربوية، والاجتماعية، والاقتصادية، والعسكرية، والسياسية وغيرها.

يلتزم – فيما سبق أعلاه- بالضوابط الشرعية التالية:

يراعى في تشكيل مجلس أهل الحل والعقد، واختيار أمير الولاية، وكذا في توزيع المناصب والمسؤوليات استيفاء الشروط الشرعية في المواصفات اللازمة لذلك المنصب.

لا يعتبر أمير الولاية إماماً عاماً للمسلمين، بل يجب عليه وعلى رعيته طاعة الأمير للشرعي في أفغانستان، وعليهم جميعا مبايعة إمام المسلمين العام إذا وجد في أفغانستان أو غيرها من بلاد المسلمين.

يعتبر مجلس الشورى صاحب الحق في اختيار الأمير وعزله وفق الشروط والضوابط الشرعية.

يضع مجلس الشورى لوائح شرعية لتنظيم أعماله، وتحديد علاقة التنظيمات الجهادية بالولاية، وطبيعة التعامل والتعاون معها.

لا يجوز وجود تكتلات (تحزبات أو تجمعات) داخل الولاية الشرعية، وعلى الجميع طاعة أمير الولاية بالمعروف.

ما يجب على الولاية:

إقامة شرع الله وإشاعة الأمن، ونشر العلم، وبث الدعوة، وحفظ الدين والنفس، والعرض والمال والعقل، وسياسة الناس بالدين الحنيف لما فيه خير دينهم ودنياهم.

إشاعة العدل بين الناس وإحياء روح الأخوة الإسلامية، والتعاون على البر والتقوى.

صيانة بيضة الدين بديمومة الجهاد في سبيل الله حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله.

أن تكون الولاية عوناً لجميع المجاهدين، ومعبراً لقوافلهم دون النظر إلى انتماءاتهم التنظيمية ما داموا يجاهدون في سبيل الله.

وبهذا تكون الولاية – بإذن الله– مأوى للمهاجرين، ومأرزاً للصالحين، وملاذاً لجميع المسلمين.

فعلى جميع الأطراف المتنازعة في كونر الالتزام بذلك، والوفاء بما تعاهدوا عليه من قبول قرارات لجنة التحكيم «يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود»، ونصح جميع المسلمين العمل بمقتضاه، تطبيقاً للشرع، وحسماً للخلاف والتفرق.

توقيع أعضاء الجنة:

الشيخ محمد حسن جان.

الشيخ سعد الشريف (أبو محمد).

الشيخ عدنان عرعور (أبو صالح).

الشيخ أبو صهيب.

الشيخ أبو هاجر.



بيان من لجنة التحكيم في نزاع ولاية «كونر»

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

قال الله تعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين • إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾.

في هذه الأوقات العصيبة التي كثرت فيها المؤامرات السياسية ضد الجهاد في أفغانستان لدفع المجاهدين إلى التخلي عن ميادين القتال، وساحات النزال فيبيعوا جهادهم وتضحياتهم، فعلاوة على تلك المحن الداهية، والقوارع المتتالية، تتفجر فتنة بين صفوف المجاهدين في ولاية كونر، واحدة من الولايات المحررة في أفغانستان الجريحة.

وإننا ندين تلك الفتنة ومن كان وراءها لأن التفرق بين المسلمين واقتتالهم مما نهى الله عنه، وهو مدعاة لغضبه، وضعف المسلمين وتأخر نصرهم، نسأله جلَ وعلا أن يعافي المجاهدين من هذا البلاء.

ولقد الأطراف على حصر دائرة الخلاف حتى تحقن

دماء المسلمين، فتدخر ليوم كريهة وسداد ثغر ضد أعداء الله من الشيوعيين وأعوانهم، فوافق طرفا النزاع على لجنة تحكيم مكونة من خمسة أعضاء للفصل بينهما على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لإخماد الفتنة، وإنهاء المحنة.

ولذا ينبغي على جميع المسلمين شاهدهم وغائبهم أن يكفوا ألسنتهم عن الخوض في فتنة عصم الله أيديهم وسيوفهم عن الولوغ فيها. وينبغي علينا إتباع الضوابط الشرعية من التثبت ولتبين كما قال الله تعالى: (فتبيَنوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) وأن نتلقى جميع الأخبار بعقولنا لا بألسنتنا كما قال تبارك وتعالى: (إذ تلقَونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم) كما لا يجوز الحكم على أي طرف بالسماع من جهة واحدة، ولا القضاء لطرف دون وجود البيِنات لقوله صلى الله عليه وسلم: «ولو يعطى الناس بدعواهم لادَعى رجال أموال قوم ودماءهم، ولكن البيِنة على المدعي، واليمين على من أنكر» رواه البيهقي بسند حسن وبعضه في الصحيحين.

وبينما كانت اللجنة تباشر مهامها يوم الجمعة 20 صفر إذ فوجئت بفاجعة أليمة وهي اغتيال **الشيخ جميل الرحمن** الذي يعد من البارزين السابقين في حقل الدعوة وساحة الجهاد، واللجنة تستنكر هذه الجريمة الشنيعة وتدعو الله أن يعامل القاتل ومن وراءه بعدله، وأن يتغمد فقيد الجهاد بواسع رحمته «ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه

ولعنه وأعد له عذابا عظيما». ولقد عاودت اللجنة متابعة مهمتها بعد تجديد التزام جماعة الدعوة بلجنة التحكيم من قبل الأمير الجديد وهو الشيخ سميع الله.

ونبشر جميع إخواننا بأن المجاهدين ما تركوا ساحات الوغى والجهاد ضد الشيوعيين، فحشود المجاهدين تتوافد حول تمركزات العدو ومواقعه المهمة، والاستعدادات من الذخائر والمواد الغذائية بدأ إرسالها وتخزينها في مواقع المجاهدين. وهذا يرتب علينا حقا آخر بعد كف الكلام عنهم إلا بالدعاء لهم، وهو حق نصرتهم على أعداء الدين المتسلطين على المسلمين في أفغانستان، قال تعالى: (وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر).

نسأل المولى جلَ وعلا أن يؤلف بين قلوب المجاهدين، وأن يجمع على الحق كلمتهم، وأن يصلح ذات بينهم وينصرهم على عدوهم إنه سميع قريب مجيب الدعوات، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

التوقيع:

الشيخ حسن جان

الشيخ سعد الشريف (أبو محمد)

الشيخ عدنان عرعور (أبو صالح)

الشيخ أبو صهيب

الشيخ أبو هاجر

التقرير الشامل... إلى ابن باز

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهذا

وبعد:

فهذا تقرير كامل عن مجريات الأحداث في فتنة «كونر» من أفغانستان إلى أصحاب الفضيلة العلماء وعلى رأسهم سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز حفظه الله ورعاه. وذلك إبراماً للذمة ونقلاً للأمانة وإظهاراً للحق والواقع الذي عليه الحال وذلك بصفتي عايشت الأحداث عن قرب قبل حصول الفتنة الأخيرة وأثنائها فقد كنت عضواً في لجنة الصلح بين طرفي النزاع – وهما جماعة الدعوة إلى القرآن والسنة والحزب الإسلامي – قبل اشتعال الفتنة وكذلك كنت عضواً في لجنة الصلح والتحكيم بعد حدوث الفتنة، وممن باشر الرؤى والسماع من الأطراف والدخول إلى كنر. والله المستعان.

فأقسم هذا التقرير إلى قسمين:

القسم الأول: ما قبل القتال الأخير بين جماعة الدعوة والحزب الإسلامي.

القسم الثاني: وقوع الفتنة بالقتال بين الطرفين ومجريات الأحداث حتى الساعة.

فأولاً: ما قبل حصول القتال الأخير:

الوضع داخل كونر:

قبل ذلك فأقول (كونر» ولاية من 29 ولاية في أفغانستان وهي من الولايات المحررة من أيدي الشيوعيين قبل ثلاث سنوات ونصف تقريباً واشترك في تحريرها جميع المنظمات الجهادية الموجودة على ساحة أفغانستان وكان الثقل والأغلبية للحزب الإسلامي (المهندس حكمتيار) وجماعة الدعوة (الشيخ جميل الرحمن – رحمه الله –). وبعد التحرير أجتمع الناس هناك من أجل تكوين ادارة مشتركة من جميع الأحزاب الجهادية ومجلس شورى الولاية. فاستقر الأمر على اختيار الشيخ غلام رباني – وهو من علماء كونر المشهورين بعقيدتهم السلفية وأثريته وهو من منظمة الجمعية الإسلامية (الأستاذ رباني) وكان الاتفاق قد وقع عليه من قبل الأحزاب في داخل (كونر)، أما جماعة الدعوة فقد كان لها أعضاء في مجلس الشورى ثم عند مباشرة العمل قاطعت جماعة الدعوة مجلس الشورى ثم بعد إعلان الحكومة العبورية لأفغانستان عين محمد علي – من الجمعية الإسلامية – والياً على كونر من قبل الحكومة العبورية، وعزل غلام رباني. ومن هنا بدأت المشاكل. فما

أبرم لغلام رباني باتفاق انحل فلم يوافق الناس على محمد علي ولم يعتبر غلام رباني. فحصل اتفاق بين الحزب الإسلامي – المهندس حكمتيار – وبين جماعة الدعوة – جميل الرحمن رحمه الله – ضد الحكومة العبورية التي انسحب منها المهندس حكمتيار، ثم اتفق المهندس حكمتيار والشيخ جميل الرحمن على الانتخابات العامة وعلى أن يكون تمثيل المنظمات في مجلس الشورى والإدارة على حسب ثقلهم وأغلبية الأصوات، وكان يرأس الانتخابات غلام رباني فبدأت الانتخابات في بعض المناطق من كونر ولم تتم في البعض الآخر حتى حصل الخلاف بين الحزب الإسلامي وجماعة الدعوة على من له الأغلبية واعتبرت الانتخابات لاغية ولا عبرة لها. في أثناء ذلك أعلنت جماعة الدعوة الإمارة الإسلامية في كونر وطالبت الجميع المبايعة والخضوع لها فرفض معظم قادة الاحزاب في كونر وأعلن الحزب الإسلامي الإمارة الجهادية في كونر بقيادة الشيخ فقير الله – وهو من علماء كونر السلفيين في العقيدة والاثرين في الأحكام – وهو مشهور بذلك.

ثم حصلت الحزازيات بين الجماعة والحزب. وبدأت الجماعة محاولة الزام الناس تحت سلطانها وإمارتها مع وجود الأحزاب الأخرى في الولاية وذلك ترغيباً أو ترهيباً. وبدأت تضع نقاط تفتيش وتخرج بعض الأحزاب من مراكزهم في أسد أباد -عاصمة كونر- وغيرها ثم عوملت الجماعة من قبل الحزب

الإسلامي بالمثل لأنه في الوقت الذي أعلنت جماعة الدعوة الإمارة هو كذلك أعلن إمارة، فبدأ يضع نقاط تفتيش على مراكزه لأنه فقير الله منع مرة من نقاط تفتيش الجماعة.

فحصل ان جاءت دورية – سيارة لجماعة الدعوة ليلاً في يوم ما – فأوقفتها نقطة تفتيش للحزب الإسلامي فلم تقف لها وعبرت بسرعة فما كان من الحزب إلا أن أطلق عليها النار فقتل ثلاثة من جماعة الدعوة. فحصلت مفاوضات بين الجماعة والحزب حول القتلى وتسليمهم وأصرت جماعة الدعوة على الحزب أن يسلم القتلى له وقال الحزب نحتكم إلى الشرع في المسألة ولا نسلم لكن أحداً حتى يقضي في المسألة شرعاً فلم يتوصلوا إلى شيء.

فأمر الشيخ جميل الرحمن رحمه الله جماعته باخراج الحزب من ولاية كونر ان لم يسلموا القتلى وأصر الحزب أن لا يسلم لهم أحد إلا بعد ان يقضي في المسألة شرعاً لأنه يرى أنه لم يقوم بقتلهم وذلك بأن السيارة عندما تجاوزت نقطة الحزب ضرب عليها الحزب من الخلف وردت جماعة الدعوة على نفس المصدر من الأمام من نقطة لها بعد الحزب فقتل ثلاثة في الأمام أما الذين في الخلف فلم يصابوا. وقبل ذلك قبض على المسؤول الأمني للحزب ومن معه في الولاية من قبل جماعة الدعوة.

بعد ذلك حاصرت جماعة الدعوة مراكز الحزب الإسلامي – المهندس حكمتيار – في الولاية وأخرجوهم بالقوة من مراكزهم وأخذت أسلحة الحزب الثقيلة الموجودة في المراكز وتطور الأمر وأخرج كذلك بعض الأحزاب الأخرى كملك محمد ميران من الجماعية الإسلامية في (نواه باس) مدخل كونر من جهة باكستان وغيرهم.

بعد ذلك طالب المهندس حكمتيار الشيخ جميل الرحمن رحمه الله آنذاك إرجاع مراكز الحزب الإسلامي وتشكيل إدارة مشتركة من جميع الأحزاب الجهادية التي ساهمت في تحرير الولاية وإيقاف الحملات التشويهية ضد المجاهدين وأرسل وفوداً للصلح إلى الشيخ جميل الرحمن رحمه الله بعد رجوعه من المملكة منها وفداً من الباكستانيين ووفداً من الأفغان ووفداً من العرب قدر الله وكنت عضواً فيه وكان على رأسه الأخ أسامة بن محمد بن لادن فالتقينا بالشيخ جميل في مقر مجلة المجاهد في بيشاور وطلبنا منه أن يحل هذا الإشكال بينه وبين المهندس حكمتيار بالصلح والتحكيم وأن ينتدب من طرفه اثنان وكذلك المهندس حكمتيار ليجلسوا ويتفقوا على حكم يقضي بينهم في هذا الخلاف.

فأجابنا الشيخ جميل رحمه الله أن الخلاف ليس بيني وبين المهندس حكمتيار، بل الخلاف بيني وبين فقير الله التابع

للمهندس حكمتيار في الولاية وهو تابع للإمارة الإسلامية وليس عندي إلا أن يسلموا القتلى الثلاثة ثم بعد ذلك ننظر في أمرهم ونحكم الكتاب والسنة. فقلنا له نحن جئنا من أجل أن نصلح بينكم على أن تحلوا أمركم بالقضاء الشرعي وأن ترجعوا مراكز الحزب الإسلامي التي أخذتموها وتتفاهموا بينكم في ذلك بعد أن تتفقوا على تكوين لجنة قضائية متفق عليها بينكما.

فكرر الشيخ ليس الخلاف بيني وبين المهندس حكمتيار بل الخلاف بيني وبين فقير الله وليس عندي إلا أن يسلموا القتلى نحكم عليهم ثم بعد ذلك ننظر في أمرهم.

فقلنا يا شيخ هذا ليس حلاً للإشكال فلابد أن يتنازل كل منكما إلى لجنة قضائية تفصل في النزاع في ضوء الكتاب والسنة. فقال الشيخ كونوا لجنة ونحن ننظر ان حكمت بما نرى أخذنا بها وان فلا. فقال الأخ أسامة يا شيخ لابد أن تبين لنا من الآن هل أنت موافق على تكوين هذه اللجنة بالرضى بينكم وبين المهندس حكمتيار. وإلا فليس عندنا وقت نضيعه في تكوين لجنة ثم تنظر فيها، فنريد أن تعطينا من الآن موافقتك وتعين لنا من ترضى بهم حكاماً. فقال الشيخ أنا لا أفوضكم بشيء.

فذكرنا الشيخ –رحمه الله– بضرورة حل هذا الأمر صلحاً خشية تأزم الأمر وتطوره إلى قتال ودماء. فأصر الشيخ –رحمه

الله– ليس عندي إلا أن يسلموا القتلى ثم بعد ذلك ننظر.

فقال الأخ أسامة إذاً ما دام الأمر كذلك فنخشى أن يقع بينكم شيء فلو أنكم جنبتم الأخوة العرب ما يحصل بينكم من مشاكل فتكتبوا للأخوة العرب الذين في كونر بذلك. فقال الشيخ أنا سوف أكتب لهم ولكن لا أستطيع أن أجبرهم على الخروج. فقلنا له لو أنكم شددتم عليهم أن يتجنبوا هذا الخلاف حتى لا تزداد الفتنة.

ثم خرجنا من عند الشيخ ولم نصل إلى أي حل للخلاف ولا إلى إيجاد صيغة للتفاهم.

ثم قبل حصول القتال الأخير بأسبوعين تقريباً أعلن المهندس حكمتيار مرة أخرى مطالبته للشيخ جميل الرحمن – رحمه الله – بإرجاع مراكز الحزب الإسلامي في كونر وحل القضية سلمياً وإلا فسيضطر ان يرجع مراكزه بالقوة كما أخذت منه بالقوة وأن تشكل إدارة مشتركة من جميع المجاهدين في كونر. فلم يتغير موقف الشيخ جميل الرحمن – رحمه الله – من ذلك وأصر على موقفه السابق.

ثانياً: وقوع الفتنة بالقتال بين الطرفين ومجريات الأحداث حتى ساعة كتابة هذا التقرير.

ثم بعد عدم إمكانية حسم النزاع المصالحة والتفاهم وقعت كارثة نشوب القتال بين جماعة الدعوة والحزب الإسلامي (المهندس حكمتيار) وذلك بأن قام الحزب الإسلامي باجتياح كونر لإرجاع مراكزه واشتراك في القتال الأستاذ عبدالله اللغماني من جهة لغمان إضافة إلى الكونريين من الحزب الإسلامي. والأستاذ عبدالله هذا هو قائد للحزب في ولاية لغمان وولاية لغمان على حدود كونر وله قصة مع جماعة الدعوة وهي أنه أراد أن يمد جبهته في لغمان بالسلاح والعتاد عن طريق كنر من جهة باكستان فمنع من جماعة الدعوة مما اضطره أن يذهب بإمداداته عن طريق طويل من ناحية براون حتى وصل إلى لغمان فاشترك في هذا القتال حتى يؤمن لنفسه طريق الإمداد من ولاية محررة على حسب كلام الحزب الإسلامي.

فحصل ما حصل ووقعت الفتنة فقام المصلحون مرة أخرى سعياً للصلح وإيقافاً لدماء المسلمين التي تراق بيد المسلمين فشكلت لجنة صلح اتصلت بالمهندس حكمتيار فوافق على الصلح وفوض اللجنة بذلك من جهته وكان على رأس هذه اللجنة الأخ أسامة بن لادن وكنت عضواً فيها.

ثم اتصلنا بالشيخ جميل الرحمن – رحمه الله – وناقشناه في القضية وفي الصلح مرة أخرى ولكن بعد اندلاع القتال فوافق

الشيخ فخرجنا من عنده بلجنة تحكيم منبثقة من لجنة الصلح. وكان أعضاؤها خمسة هم: الشيخ حسن جان من علماء باكستان المعروفين والشيخ أبوصهيب والشيخ عدنان عرعور وكان الشيخ جميل الرحمن -رحمه الله- مصراً عليه والشيخ أبو هاجر العراقي وكنت أنا خامسهم.

ثم اتصلنا بالمهندس حكمتيار فاعترض على بعض أعضاء لجنة التحكيم وهما عدنان عرعور وأبو صهيب واعتبرهما طرفاً في الخصومة فكيف يكونان حكاماً فيها؟ وبعد أن قدم له الأخ أسامة بعض الضمانات أنهم لن يميلوا في الحكم... إلخ وافق ووقع بشرط أن تكون جميع قرارات اللجنة من داخل كونر وأن تستمع من الأطراف مباشرة حتى تقف على الحقائق والوقائع. (أنظر النموذج - 1 - في الملحق الخاص بلجنة التحكيم وصلاحيتها وموافقة الطرفين عليها).

بعد تشكيل لجنة التحكيم والموافقة عليها. بدأت اللجنة مباشرة أعمالها تجاه حل النزاع وإيقاف القتال. فأصدرت قراراً بإيقاف إطلاق النار وبلغت الأطراف به ثم علمت اللجنة أن إطلاق النار قد توقف بمساعي لجنة صلح أفغانية مدة عشرة أيام. فأصدرت اللجنة قراراً باستمرار إيقاف إطلاق النار. وبعدها أصدرت قراراً بفتح الطرق لغير المهمات القتالية. ثم قررت اللجنة

النزول إلى (باجور) منطقة حدودية باكستانية من أجل الدخول إلى كنر ومباشرة تنفيذ القرارات ومعاينة الواقع. فنزلت اللجنة في صباح يوم الجمعة 20-2-1412هـ وعند وصولها مباشرة اتصلت بالشيخ جميل الرحمن – رحمه الله – من أجل أن يفوض من جهته مندوبيين يصحبوا اللجنة إلى داخل كونر لتنفيذ القرارات. فعين لنا ثم ذهبنا إلى مكتب الحزب الإسلامي في باجور لنفس الغرض وبينما نحن كذلك إذ نسمع بمقتل الشيخ جميل الرحمن –عليه رحمه الله– فتعطلت أعمال اللجنة مدة ستة أيام ثم باشرت عملها فاتصلت بالشيخ سميع الله أمير جماعة الدعوة وخليفة الشيخ جميل الرحمن من أجل أن نجدد معه العهد على لجنة التحكيم فوافق وجدد العهد. (أنظر النموذج – 2 – من الملحق).

ثم بعد ذلك سمعنا بقدوم لجنة سعودية للمصالحة على رأسها معالي الدكتور عبدالله التركي وطلبوا من لجنة التحكيم اللقاء بهم فالتقينا بهم وشرحنا لهم الوضع وما أنجزناه وما أصدرناه من قرارات. ثم تمخض من مساعيهم أن وقع الأطراف على قرارات صلح خمسة (أنظر النموذج – 4 – في الملحق).

ثم بعد ذلك أخذت لجنة التحكيم وثيقة الصلح هذه وأدخلتها مع ما عندها من قرارات وقررت التوجه إلى باجور لمدارسة الوضع والسماع من الأطراف واختيار الطرق المثلى

والعملية لتنفيذ هذه القرارات وذلك لأن اللجنة قررت في أول جلساتها أن تبدأ بالصلح ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.

رحلة لجنة التحكيم الأولى إلى باجور بعد مقتل الشيخ جميل الرحمن -رحمه الله-.

ذهب من أعضاء اللجنة في هذه الرحلة المشايخ أبو صهيب وأبو هاجر وسعد الشريف ثم بعد ستة أيام لحق بهم الشيخ عدنان عرعور بعد إلحاح من اللجنة عليه وتخلف الشيخ حسن جان لسفره خارج باكستان وقد أصدرت اللجنة بياناً بملخص ما وصلت إليه في هذه الرحلة (أنظر النموذج - 5 - من الملحق) وانضم إلى اللجنة بعض الشخصيات القيادية من الأفغان كلجنة صلح من جهة جماعة الدعوة وصلح وتحكيم من جهة الحزب وهم: أحمد زي، وسيد نور الله عماد، والشيخ فياض، وقاري شفيع. ثم عادت اللجنة إلى بيشاور واتصلت بالقادة الثلاثة (مجددي، وجيلاني، ومحمد نبي) من أجل أن يرسلوا مع اللجنة مندوبين أو يوقعوا على وثيقة الصلح السعودية. فبعد اللقاء أخذنا منهم مندوباً من كل واحد منهم وفي أثناء بقاء اللجنة في بشاور أصدرت اللجنة قرارها التحكيمي الأول القاضي بتشكيل مجلس أهل الحل والعقد من جميع المسلمين في كونر (أنظر النموذج - 6 - في الملحق) الخامس بذلك.

ثم قررت لجنة التحكيم التوجه مرة أخرى إلى باجور ثم إلى كونر لاستكمال مساعي الصلح ولتنفيذ قرارات التحكيم والصلح.

الرحلة الثانية للجنة التحكيم والصلح إلى باجور ثم إلى كونر.

ذهب في هذه الرحلة جميع الأعضاء خلا الشيخ عدنان عرعور ولم يبدِ لنا سبباً لتخلفه والشيخ حسن جان لانشغاله وكبر سنه وذهب من لجنة الصلح سيد نور الله والشيخ فياض والشيخ قاري شفيع واعتذر الشيخ أحمد زي لمرض والده وثلاثة مندوبين من القادة (مجددي، جيلاني، محمد نبي) وبقيت اللجنة في باجور قرابة خمسة أيام أصدرت فيه قراراً بتشكيل مجلس شورى لتنفيذ قرارات الصلح والتحكيم من كل منظمة عشرة أعضاء إضافة إلى جماعة الدعوة فيكون المجلس مكوناً من ثمانين عضواً (أنظر النموذج - 7 - من الملحق) الخاص بذلك.

ولم تستطع اللجنة الدخول إلى كونر في هذه الرحلة بسبب عدم إبلاغ القادة الميدانيين الكبار قبل توجهها إلى هناك وقد أصدرت اللجنة بياناً مفصلاً حول هذه الرحلة (أنظر النموذج رقم - 8 - الخاص بالرحلة الثانية).

ثم عادت اللجنة بعد ذلك إلى بيشاور وهي تنتظر رد القادة

الميدانيين على خطابها شديد اللجهة بشأن عدم إمكانية دخول اللجنة إلى كونر فجاءها الرد بأن القادة الميدانيين مستعدون لاستقبالنا وهم لم يرضوا عن هذا الوضع بين المسلمين (أنظر النموذج - 9 -) وهو خطابهم مع ترجمة أهم ما فيه بالعربية مؤرخ بتاريخ 1991/10/3.

وفي هذه الأثناء لاحظت اللجنة بعض الناس استخدموا بياناتها وقراراتها لأغراض خاصة أو وجهوها في حسب أهوائهم وكذا لاحظ أكثر أعضاء اللجنة أن الشيخ عدنان عرعور أطلق على نفسه رئيس لجنة التحكيم في الوقت الذي لم يكن للجنة رئيساً لأنها لجنة تحكيم وقضاء ما ينبغي أن يكون لها رئيساً ولم يحصل أنه اختير من قبل اللجنة بهذا المنصب وإن قام بإدارة بعض جلساتها من باب التنسيق لا على أنه رئيس وهو يعرف ذلك جيداً فأصدرت اللجنة بياناً خاصاً عن لجنة التحكيم (أنظر النموذج - 10 - من الملحق الخاص بذلك).

ثم اجتمعت اللجنة وناقشت التوجه إلى كونر بعد الخطاب الأخير الذي وصل لنا من داخل كنر سعياً في الصلح وسماعاً من الأطراف في داخل كونر ورؤية الوضع مباشرة وحل النزاع. فقررت اللجنة الدخول إلى كونر واعتذر الشيخان عدنان وأبو صهيب عن الذهاب فطلبنا منهم ابداء السبب لنا خطياً بعد أن فشلنا بمحاولة

إقناعهم على أهمية أن يذهبا معنا (أنظر النموذج - 11 -، - 12 - من الملحق) الخاص بذلك.

ثم في اليوم التالي وهو يوم الجمعة الموافق 1412/4/4هـ الموافق 1991/10/11 – وكان موعد توجه باقي أعضاء اللجنة الشيخ حسن جان وأبو هاجر وسعد الشريف وباقي أعضاء لجنة الصلح الشيخ أحمد زي والشيخ فياض وقاري شفيع – يأتينا خبر بانسحاب الأخوين من لجنة التحكيم وخطاباً بذلك منهما ومعه خطاب من جماعة الدعوة بخط الشيخ سميع الله بحل لجنة التحكيم وعدم شرعيتها وتأييدها لجميع قرارات الصلح والتحكيم السابقة وتأييدها لمساعي لجنة الصلح الحالية (أنظر النموذج - 13 -، - 14 - من الملحق الخاص بذلك مفصلاً).

ثم بعد ذلك اجتمعت لجنة الصلح وكنت عضواً فيها وقررت استمرار مساعي الصلح رغم هذه العقبات والعراقيل وقررت التوجه إلى كونر لتنفيذ قرارات الصلح الأربعة وتنفيذ قرارات لجنة التحكيم قبل حلها من قبل جماعة الدعوة. ثم قام باقي أعضاء لجنة التحكيم بتوجيه خطاب إلى كل من الشيخ سميع الله والمهندس حكمتيار بخصوص لجنة التحكيم وفض النزاع القائم بينهما (أنظر النموذج - 15 -، - 16 - من الملحق الخاص بذلك) لم يصلنا جواباً على هذا الخطاب من جماعة الدعوة

واستلمنا جواباً من الحزب الإسلامي بالموافقة على بقاء لجنة التحكيم بأعضائها الباقين.

رحلة لجنة الصلح الثالثة إلى كونر بعد حل لجنة التحكيم.

فتوجهت لجنة الصلح صوب كونر مروراً بباجور لأخذ مندوبين من الحكومة المؤقتة ومن الحزب الإسلامي ومن جماعة الدعوة وقد أخذنا العهود والمواثيق من الأطراف على إيقاف إطلاق النار وتنفيذ القرارات وكتبوا لنا ذلك، من الحزب كتب لنا مولوي هاشم نائب أمير الحزب في كونر ومن جماعة الدعوة كتب لنا نور مجيدي مسؤول العلاقات الخارجية في الإمارة في كونر وهو قد كان مخولاً من قبل الجماعة للتفاهم معنا. فاتجهنا إلى كونر سعياً للصلح وإيقافاً لدماء المسلمين التي تسيل. وقد أصدرت لجنة الصلح بياناً مختصراً بتفاصيل ما توصلت إليه في هذه الرحلة (أنظر النموذج -17- الخاص بذلك).

أهم ما توصلنا إليه في هذه الرحلة إلى داخل كونر.

الجلوس مع أطراف النزاع الذين باشروا القتال والسماع منهم وأخذ آرائهم حول إمكانية تنفيذ قرارات الصلح والتحكيم.

إجماع الأطراف على أن القتال سببه النزاع حول تكوين

الإمارة في كونر وليس عقدياً مطلقاً بل اشتهر الأطراف بسلفيتهم في العقيدة فعّبد الله أمير الحزب من كِبار مشايخ كونر ويدرس العقيدة الأثرية في مسجد أسد أباد ومشهور بدعوته من قديم.

بوادر تجدد القتال كبيرة بل شاهدنا بأعيننا ذلك بل وصرحت لنا جماعة الدعوة بذلك إما أن يسلم الأحزاب لنا ويخضعوا تحت إمارتنا وإلا فهم بغاة خارجون على الإمارة الإسلامية ويجب قتالهم.

فشلنا في إقناع قادة جماعة الدعوة الميدانيين في داخل كونر وعلى رأسهم مولوي عبدالرحمن نائب سميع الله وحاجي روزي مسؤول الداخلية ومولوي فضل الجلال مسؤول الحسبة بتنفيذ قرارات الصلح والتحكيم.

معاينة الوضع من جهة الأغذية والأدوية والألبسة والطرق بالنسبة للمدنيين فقد كان كل ذلك طبيعياً وقد صورنا ذلك كله بالفيديو والله المستعان.

وفي الختام أهيب بالعلماء والدعاة وأهل الخير أن لا يتعجلوا في إصدار الأحكام والفتوى قبل التحقق والتثبت من أسباب الخلاف ومنشئه والسماع من جميع الأطراف. كما أرجو منهم أن يكونوا من الساعين للصلح وجمع الكلمة ورأب الصدع وحل النزاع وإطفاء الفتنة بين المسلمين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، وأنادي

كل حريص على إيقاف هذا النزيف الدموي بين المسلمين وكل من كانت له كلمة تسمع عند الأطراف أن يسرع ويبادر بالصلح وفض النزاع مخلصاً لله في ذلك هذا وقد وقع ما حذرنا منه من قبل فقد تجدد القتال وهاجمت جماعة الدعوة الحزب الإسلامي في داخل كنر وأخذت كثيراً من المركز والوضع حالياً في تأزم فالبدار البدار. اللهم أني قد بلغت اللهم فأشهد.

سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه.

عضو لجنة التحكيم والصلح

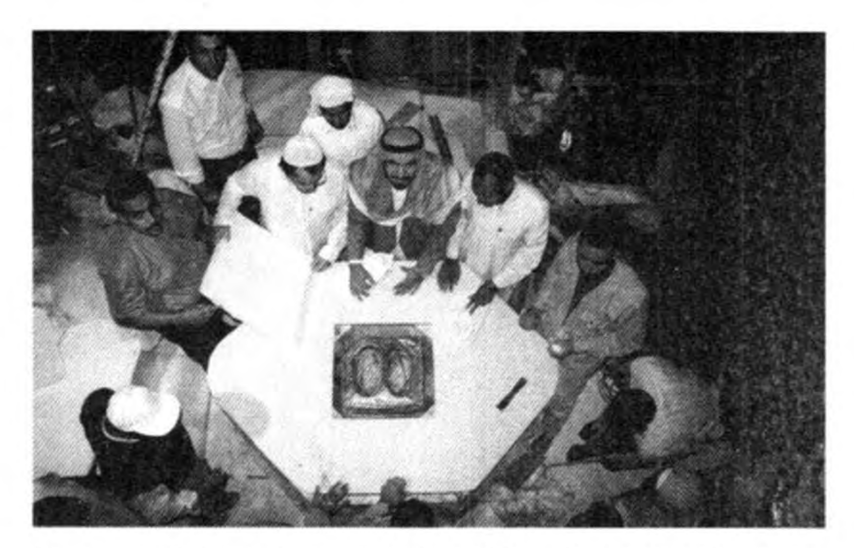
سعد بن عبدالله الشريف

1412/5/1هـ





مجموعة صور من مراحل عمرٍ مختلفة، وبطاقات عمل. ومن اليمين في الأعلى يبدو أبناء الدكتور سعد الأربعة، محمد (خلف) ومن اليمين:
[illegible]



سعد يتوسط العاملين في الحرم المكي من شركة بن لادن السعودية، وقد تحلقوا حول «مقام إبراهيم» الشريف، بعد إزالة المقصورة عنه، تمهيدا لترميم إطاره.



في هذه الصورة يحقق سعد أكبر لحظة تشرفه في حياته، وقد تشرف بإكمال أعمال ترميم إطار «الحجر الأسود»، والتقط الصورة قبل إزاحة الستار عنه لعموم المسلمين.



بجوار زملاء وزميلات له في الدراسة بعد إنهاء دورة للغة الانجليزية في «بوسطن» الأميركية. ويبدو التاريخ واضحاً.



في السودان، وقد سلم مفتاح سيارة نقل عام، كتبرع لإحدى الجهات الخيرية في السودان.



في هذه الصورة الخاصة جداً، بدا سعد ممسكاً (أدوات التنظيف) بيده، وخلفه باب «الكعبة المشرفة»، وهو للتو خرج منها، بعد القيام بغسل داخلها، وهي من اللحظات النادرة التي يحسد ملايين المسلمين عليها سعد، لتشرفه بها.



في مكتبته في جدة.



صورة سعد وهو في سن الطفولة، وقد ألبسته أخته سهام «قميص» نسائي، وصورته لتضحك عليه. فكانت أعز صورة لديه.

صورة حديثة له في منزله في جدة بتاريخ 15 أيار (مايو) 2011

الإهداء

إلى نور عيني وضياء قلبي ومصدر الثقة بنفسي والقوة لي في هذه الحياة بعد الله أمي وأبي .

وإلى جنة عيني وربيع عمري فلذات كبدي خديجة ، وخالد ، ومريم ، وسمية . راجية أن تشدوا عضدي إن أمدّ الله في عمري وتساهموا مع في إكمال تحقيق هذا التفسير العظيم وما ذلك على الله بعزيز .

وإلى كل من يحب القرآن واللغة العربية إلى كل هؤلا ، أقدم هذا الجهد المتواضع وما هو إن شا ، الله إلا خدمة لكتابه العظيم .

راجية أن تتقبلوه بقبول حسن بعد أن يتقبله ربي خالصاً لوجهه تعالى بإذنه ومشيئته وما توفيقي إلا بالله هو حسبي ونعم الوكيل .

صورة من إهداء سهام الشريف زوجة بن لادن لرسالتها العلمية (الدكتوراه) إلى والديها وأبنائها، وهنالك تجاهلت زوجها بن لادن الذي كان غاضباً منها بسبب إتمامها دراستها، بتحريض من أخيها سعد.

تعريف لسعد من الجامعة الإسلامية عندما كان فيها عضو هيئة تدريس.

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
الجامعة الإسلامية
بالمدينة المنورة
كلية

الرقم ————
التاريخ ————

تعريف

تقرر كلية الشريعة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة بأن فضيلة / الشيخ سعد بن عبدالله بن حسين الشريف (سعودي) الجنسية الذي يحمل الحفيظة رقم : ٩٥٠٦٧ وتاريخ ١/٢/١٤٠٤هـ الصادرة من : المدينة المنورة

هو احد اعضاء هيئة التدريس بالكلية .

وبناء على طلبه أعطي هذه الوثيقة .

عميد الكلية
د. سعود بن صالح العطيشان
١٤١٠/١٢/٢٧هـ

مدير الإدارة
سامي بن محمد ديوري

الختم الرسمي

المملكة العربية السعودية
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
كلية الشريعة
١٢٨١

جمهورية السودان
جامعة أم درمان الإسلامية
كلية الآداب
قسم اللغة العربية

الملخص في إعراب القرآن

لأبي زكريا يحيى بن علي الخطيب
المتوفى «٥٠٢هـ»
المجلد الثاني
سورتي الأنعام والأعراف
تحقيق ودراسة
لنيل درجة العالمية العالية الدكتوراة
في اللغة العربية (نحو وصرف)
إعداد الطالبة
سهام عبد الله حسين الشريف
إشراف فضيلة الأستاذ الدكتور
عميد كلية الآداب بجامعة أم درمان الإسلامية
الجزء الأول
١٤١٦هـ-١٩٩٥م

صفحة غلاف الجزء الأول من رسالة الدكتوراه لسهام بنت عبد الله بن حسين الشريف، من جامعة أم درمان الإسلامية.

وكذلك الصورة المقابلة



جمهورية السودان
امعة أم درمان الإسلامية
كلية الآداب
قسم اللغة العربية

الملخص في إعراب القرآن

لأبي زكريا يحي بن علي الخطيب

توفي : « ٥٠٢ »

المجلد الثاني

سورتي : الانعام والاعراف

تحقيق ودراسة

لنيل درجة العالمية العالية « الدكتوراه »

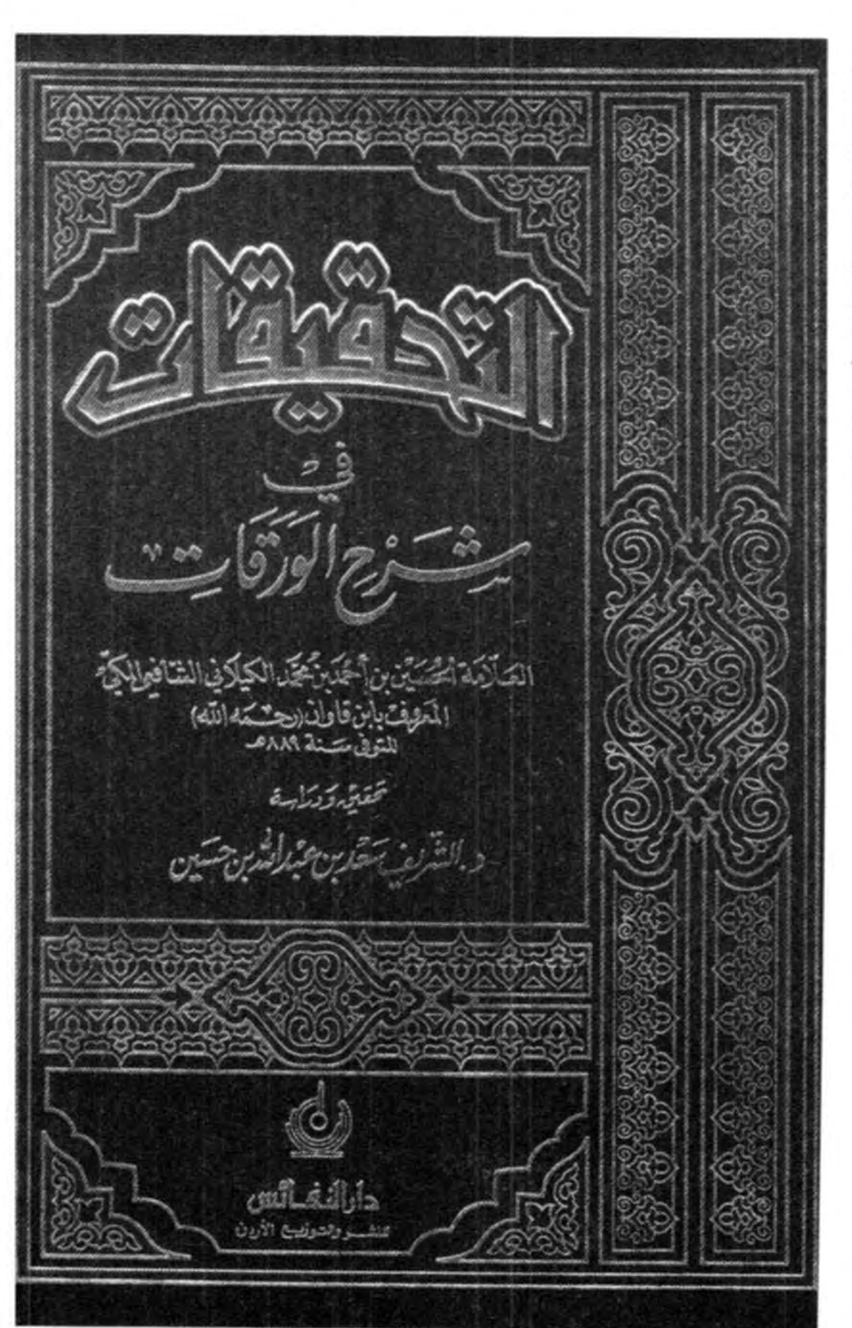
في اللغة العربية (نحو وصرف)

إعداد الطالبة
سهام عبد الله حسين الشريف

إشراف فضيلة الأستاذ الدكتور
محمد أحمد الشامي
عميد كلية الآداب بجامعة أم درمان الإسلامية

الجزء الأول

عام ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م



رسالة سعد للدكتوراه وقد طبعت في مجلد واحد.

يمارس هوايته المفضلة وهي السباحة.



في منزله، يشير إلى صورة معلقة للحرم المكي، وقد أثبتها في جهة القبلة في منزله الذي حوله إلى متحف للمقدسات لكثرة ما يعج بصور الحرمين الشريفين مكة والمدينة.

من إصدارات مدارك Madarek









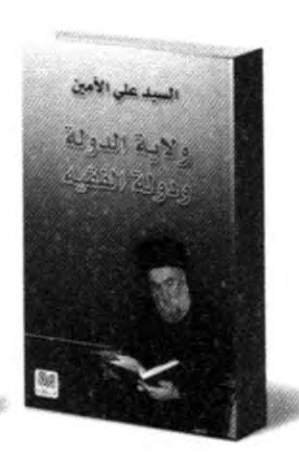









المرأة
والولاية العامة


السيد علي الأمين
ولاية الدولة
ودولة الفقيه


السيد علي الأمين
الأحزاب الدينية


صورة أوروبا
في
الأدب العربي الحديث
من طه حسين إلى الطيب صالح


تشيع العوام
وتشيع الخواص


حكاية اسمها
غازي القصيبي


أمريكا
في مرآة عربية
صورة أمريكا في أدب الرحلات العربي
ما بعد 11 سبتمبر 2001


أمريكا
في مرآة عربية
صورة أمريكا في أدب الرحلات العربي


كنا في إسرائيل
رحلات مصرية


تركي الدخيل
الدنيا... امرأة!

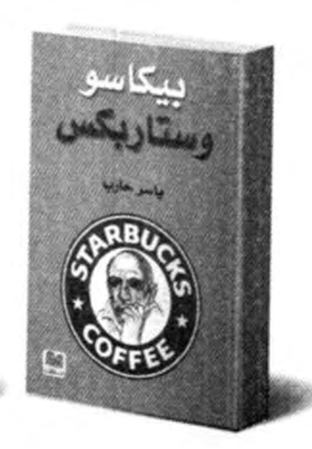
سلمان العودة
تركي الدخيل

تركي الدخيل
إنما نحن... جوقة العميان

المجتمع
الأحسائي المعاصر

نازح من جازان
مفاجآت التمرد الحوثي
على الحدود السعودية

تغطية العالم!
بدعة الإلزام بتغطية الوجه
أحمد السيد عطيف

خَارِجُ ٱلطَّائِفَة

بيكاسو
وستاربكس
ياسر حارب
STARBUCKS
COFFEE

كخه
يا
بابا


بَعد إذنِ الفَقيه
الحرام والحلال في أمر النساء
والطفولة والكتابة والطعام


تَلخيص البَيانِ
في ذِكر
فِرقِ أهلِ الأديانِ


رشيد الخيُّون
عمائم سُود
في
القصر السُّعودي
انطباعات شخصية عن نجد والحجاز


رشيد الخيُّون
رسالة
في العلمانية والخلافة


رشيد الخيُّون
ضد الطَّائفيَة


رشيد الخيُّون
لا إسلام بلا مَذاهب
و
طُروس أُخر من التراث


الحب والفراق
إنه محمد عبده يماني


رشيد الخيُّون
مُعتَزلة
البَصْرة وبَغْداد


رشيد الخيُّون
جَدلُ التّنزيل
مع كتاب
خلق القرآن للجاحظ


الضحك في


التطرف وثقافة السلام
علي سالم


أعمدة الضحك السبعة
علي سالم


دلال...


اعترافات زوج
علي سالم


علي سالم
بكالوريوس في حكم
الشعوب

في قلب بن لادن! الرجل والعائلة

ستقول: من هو د. سعد الشريف هذا، حتى تُكتب سيرته، أو تُقرأ؟

كاتب المذكرات، مثلك تماماً، طرح هذا السؤال قبل أن يكتشف أنه أمام بن لادن أو «نصف أسامة» كما أطلق عليه. فهو صديق طفولته، رفيقه في السلاح والجهاد والتشرد، كلاهما متزوج بكريمة الآخر، التقيا في المدينة المنورة، وفي أفغانستان، وفي جدة، وفي السودان. كانا ينامان في غرفة واحدة، ويترصدان العدوّ في خندق واحد. تعاطيا كل شيء معاً: الأرواح والمال والطعام والمواقف والفتاوى والدماء.

مع ذلك ملأ النصف الأول كل الكون شهرة وإثارة ونجومية، وظل النصف الآخر عصياً على أي ضوء، ضد أي شك! قاطَعَ العدسات والعناوين بكل أنواعها. ونزيد أكثر: كان أقرب إلى أسامة من عبدالله عزام، ومن أبي حمزة وأبي حفص والظواهري وأبي الغيث. بل كان أقرب إليه من أشقائه وإخوانه وأبنائه. كان الجميع يشتكي أسامة إليه، ويشتكيه إلى أسامة عند اللزوم. وما خفي أعظم وأعظم، وستجدون بعضه في هذا الكتاب، إذ لا يمكن حصره.


ISBN 978-9953-566-47-4

